حنين كمال نصّار

لَعْنةُ الصِّفْرِ

رواية

2024

لَعْنةُ الصِّفْرِ

تحذير

إذا لم تكن عزيزي القارئ، من هواة قراءة الرّوايات النّفسيّة، ذاتِ الإلهابِ والإثارة، فإنّي أحذّرك من قراءتها!

لَعْنـــــةُ الْصِّـفْــرِ

رِوايـــــة

حنيــن كمــال نصَّــار

• **لعنة الصفر**

(رواية)

• **حنين كمال نصّار**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/1/558)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	**: لعنة الصفر**
تأليف	**: عبد الله، حنين كمال عبد الرحيم**
بيانات النشر	**: عمان: حنين كمال عبد الرحيم عبد الله، 2023**
الوصف المادي	**: 296 صفحة**
رقم التصنيف	**: 813.083**
الواصفات:	**: / الروايات العربية/ / القصص النفسية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث/**
الطبعة	**: الأولى**

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• **(ردمك)**: **978-9923-0-1102-7** ISBN

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

الإهـداء

إلى مصدرِ الفخرِ والأمانِ (أبي)، ومُهجةِ الرُّوح ونبضِ الفؤادِ (أمّي)....

إلى روحِ المُوجِّه الأوَّل لي في عالم القراءةِ والكتابةِ، جدِّي المرحوم: (عبدالرّحيم نصَّار)

إلى محفّزتي الأولى لأن أخوضَ تجربة الكتابة الرّوائيّة، ابنة عمّي المقرّبة: (حلا)

إلى أخي وأخواتي، وأبناء أخواتي اللّذيذين جميعًا إليكم أهدي روايتي الأولى: (لعنة الصّفرِ)

شُكر وعرفان

شكرًا لكلِّ من ساهمَ في إيجاد هذهِ الرّواية بين أيديكم، من مؤثّرين وموجّهين ونقّاد ومهتمّين، وأخصّ بالشّكر:

- أستاذي الفاضل الدّكتور (إبراهيم خليل) على قراءته النَّقديَّة البنَّاءة لروايتي وملاحظاته الَّتي أثْرَتِ العملَ.

- أستاذي الفاضل الدّكتور (أنور الشّعر) على دعمه ونصحهِ لي في ما يخصّ النّشر.

- أستاذي الفاضل الدّكتور (خالد جبر) على نقده البنَّاء وحسنِ توجيههِ.

- صاحبة الرّؤية والتّحليل العميق، وأوّل من عرضتُ عليها عملي، وقرأتْه بكلّ حبّ واهتمام، أختي (ديانا).

مقدّمة المؤلّف

إنّ الإنسانَ مهما بلغتْ معرفتهُ بغيره، يبقى جاهلًا لدوافعِ النَّفس اللّاشعوريّة ومكنوناتها، وبواطن وخفايا النّفس البشريّة بتعقيداتها، وأسرارها الّتي تكادُ تخفى على الجميع؛ فنحن لدينا الظّاهر فقط، أمّا الباطن فلن نلمّ به، مهما بلغ تواصلنا مع الآخرين، ومن هنا جاءت فكرة الرّواية. والغريب أنّي عندما شارفتُ على الانتهاء منها، تفاجأتُ بشخصيّةٍ كانتْ قريبةً جدًّا منِّي؛ كنت أظنّ أنّي أعرفها تمامًا، ولكن، يبقى في كلّ إنسانٍ نعرفهُ إنسانٌ لا نعرفهُ!

أرجو لكم قراءةً شائقةً وماتعةً....

القسمُ الأوَّل

"حينَ أرى الظّلمَ في هذا العالمِ، أُسلِّي نفسي دومًا، بالتَّفكير في أنَّ هناكَ جهنَّمَ، تنتظرُ هؤلاءِ الظّالمينَ"

- جان جاك روسو

(1)

عُـمَــر

متكوّرًا على نفسهِ كغيلمٍ مرتعدٍ، ردمَ رأسهُ جوفَ قوقعته، ليدرأ عنهُ خطرَ أيّ بشريٍّ من حوله. باطنهُ هشٌّ منكسرٌ، وظاهرهُ صلدٌ شديدٌ، يمنعُ عنهُ بدَرَقتهِ الصّلبةِ أيَّ اقترابٍ.

منكمشًا كقنفذٍ احتمَى بكرتِه الشَّوكيَّة، ليندفعَ في وجهِ أيّ كائنٍ يقتربُ منه، لكن، هيهاتَ لهُ ذلك! فما كلُّ الأجسامِ من حولِه ترضخُ لعدمِ الاقتراب، وكثيرٌ منّا من يستلذُّ بمشهد الشّاة، وهي بين أنياب الذّئاب، بعضُنا تُغريهِ لوحةُ "ممنوع الاقتراب"؛ فيرى في الاقتراب نورًا، يضيءُ حنايا قلبِه، وبعضُنا يرى في الفضولِ غايةً، يُرضي بها نفسَه، ويُريح فيها عقلَه. بعضُنا اعتادَ على الأذى، وعلى أن يستحوذَ على الآخرينَ بتجبّره وتسلّطه.

ظهرَ عمرُ وهو مسجًّى ببدلتِه الفضفاضةِ، على هذه المرتبة، بفراشها الأبيض الرّتيب، كذبابةٍ بيضاءَ، تحومُ وتحومُ في فضاء رحبٍ لا يضيقُ، كلُّ المسافات من

حوله واحدةٌ، كلُّ شيءٍ من حوله شاسعٌ ممتدٌّ، وهو صغيرٌ بالكاد يُرى، كذرَّة (هيدروجين) في قلبِ كونٍ فسيحٍ.

كلُّ شيءٍ في الغرفةِ يُوحي بالسَّلامِ، ولا شيءَ يقودُ للسَّلامِ! ذلك البياضُ المقيتُ المنتشرُ في أرجاء الغرفة أرهَبَهُ، بدءًا بالجدران الأربعة، والسّقف الّذي ظهرت خيوطُ العنكبوت على زواياه، وفراشه الّذي ينام عليه. ناهيك عن العفونة الّتي عبقت رائحتُها، في خلايا دماغه، فأصابته بخدرٍ لا يقلّ مفعولُه عن مفعولِ زجاجةِ خمرٍ معتّقٍ، وذلك الهدوء البغيض الّذي أشعره بأنّه معزول عن الحياة، كجثّة هامدةٍ داخلَ كفنٍ، في أسفل بقعةٍ من الأرض، جثّة منسيّة في بقعة منسيّة، لا يفطنُ لها أحدٌ، ولا يفتقدُها أحدٌ، ليس لها من يدعو لها، أو يعودها. جثّة بلا عنوانٍ، بلا اسمٍ على شاهدِ قبرِها .. بلا قيمةٍ.. ولا رقم!

إنّ كلّ رقم في هذه الحياة يحملُ دورًا بارزًا، في معادلة الحياة الصّعبة، ولكلّ عددٍ مدلولُه وفضلُه، فهنالك الواحد الصَّحيح، رمز الجلاء والوضوح، وهنالك الاثنان الّذي تجد فيه التّوازن بين الأهداف والإنجاز، المشاركة والإصلاح، وهنالك الثلاثة، والأربعة والخمسة والألف

والمليار، وهنالك ما لا يمكنُ حصرُه! ولكلّ عدد دور وفضل في هذه الحياة إلّا الصّفر، رمز الفراغ واللّاشيء، رمز اللاوجود واللامعدود، رمز الفجوة والثّقب، بل رمز الشّؤم والنّحس. ولا غرابة أن كان يطلق على الصّفر لفظ "العلامة الماصّة"؛ فأيّ عدد يُضرب به ينتجُ صفرًا، وكأنّ الصّفر امتصّ ذلك العدد.

وحدَهُ الصِّفر الّذي يبقى معزولًا لا قيمة له، فما أصعب أن تكون في هذه الحياة صفرًا، مهمّشًا، منبوذًا ومكروهًا من نفسك قبل غيرك! وما أصعب أن تكون مجرّد نقطة بائسة، بلا شكل يوضّحها، أو دور يميّزها! وما أصعب أن تنتظر دورك لأن تنتقل من اليسار إلى اليمين، فتنتشي بسعادة مؤقّتة موهومة، فالعدد سبعة مثلا، عندما كنت يساره بلا قيمة، وحُرّكت إلى يمينه لتعطي العدد الأكبر "سبعين" لم تحظ حتّى بحقّ لفظك، فبقي الابتداء بلفظ (السّبع) وأصبحت أنت من اللّواحق، تُكتب على هيئة ياء ونون أو واو ونون! حتى في اللُّغة العربيّة، لم تحظ بوجودك في مكان معتبر، فأنت موجود في ما هو ملحق بجمع المذكّر السّالم، كأشباه الرّجال، لا حقّ لك في الكمال، ستبقى مهمَّشًا ما بين وبين، دون حلم، دون هدفٍ، دون شكلٍ، وبلا وجود.

لا حقّ لك في الاختيار، يُستهان بك دائمًا، ويُنظر إليك على أنّك ضعيفٌ ذليلٌ لا تُقدّم ولا تُؤخّر، لا تستطيع أن تدافع عن نفسك، بل لا يُترك لك المجال لأن تدافع عنها، يُستخفّ بك دومًا، وفي جميع المواقف والأحداث! لا يُعتمد عليك أبدًا، فدائمًا ما يقلّلون من شأنك، فأيّ شيءٍ أصعب من كونك الرّقم صفر؟ تستيقظ من نومك ولا رؤيا أمامك، تُعدّ فطورك ولا أحد إلى جانبك، تذهب إلى عملك فتُستبدلُ، فور إيجاد رقم آخر، تدخل مكانًا ولا يُشعر بك، تتلّفظُ بكلام، ولا يُسمع صوتك، تحاول أن تقف إلى جانب أيّ أحد، فيخذلك سريعًا، فتصبح نائيًا عن كلّ شيء، تصفعك الحقيقة بقوة، وتردّك على أعقابك، حيث اللامكان ولا الزّمان، فتتكوّر على نفسك، كما أنت متكوّر في الأصل، وتبقى صفرًا.

فيا أيُّها الصّفر، أما آن لك أن تضعَ حدًّا لهذا؟ أما آنَ الأوانُ لأنْ ترسمَ لنفسكَ صورةً جديدةً؟ صورةً تُرضيكَ أنت قبلَ أن تُرضيَ غيرَك، صورةً تدبُّ الحياةَ في أعماقك؟! لا تنتظرْ أن تُحَرَّكَ من مكانٍ لآخرَ، كحجرٍ نردٍ بائسٍ، لا تنتظرْ أن يُلغى دورُك ويُنسى فضلُك، لا تسمحْ بأن تبقى صفرَ اليدين، وصفرَ المكان، وصفرَ الوجودِ، وصفرَ العَدد. اصنعْ من نفسكَ في هذا العالمِ عددًا، أو تبدّد بددًا.

كانت الغرفة شديدة البرودة، في مثل هذا الوقت من السّنة، من شهر كانون الأوّل، ربّما كان هذا البرد الّذي يفتك فيه ناتجًا عن قسوة الخذلان، وبرودة قلوب من يفترض أن يكونوا مصدر الدّفء له. لولا تلك الدّمعة الحارقة اللّاهبة، الّتي انذرفت من عينه اليمنى أوّلا لتفسحَ المجال لشقيقاتها الدّمعات الأخريات، اللاتي كنّ يتدافعْنَ أمام محجر عينيه الوادعتين البائستين، قبل أن تتفجّرا شلّالًا لا يتوقّف، كشلّال آنجل الملاك، شلّال فم الشّيطان! فكم من ملاك وادعٍ أغرقه الظّلم، فتحوّل إلى شيطان. فلا أحدَ ينكرُ أنّ كثرة الضّغوط تولّد الانفجار؛ فسقوط المصائب، وتتابع الويلات على أيّ إنسان مهما بلغت قوّته، يُحدث تآكلًا في حوافّ قلبه، فيغدو هشًّا ضعيفًا من الدّاخل، صلبًا شديدًا من الخارج، كدرعٍ يقي فيه نفسه من نصال الخطوب.

علا صوت الضّجيج الّذي يُحدّث به عقله، أحدثَ جلجلةً وقرقعةً، حاول أن يوصد في وجهه الأبواب، لكنّ يديه كانتا ضعيفتين خائرتين! حاصرتْ رأسَهُ الأصواتُ النّاعقة من كلّ مكان، خيّل له وكأنّ صُدّاح البوم قد اتّخذت من عقله عشًّا، حاول أن يتماسك، ألقى عمرُ برأسه الثّقيل على السّرير، منكبًّا على وجهه، وضع الوسادة على رأسه، علّها تمنعُ المزيدَ من الذّكريات، لأن

تلجَ إلى حيث منبع فكره، إلّا أنّها حاصرته، علا صوتُها، فاستسلمَ عمرُ في أسًى شفيفٍ لها، أصاخ إلى أصواتِها، وتراءتْ له إحدى صورِها:

"سُخامٌ... حُمرةٌ... أُوارٌ... وشُواظٌ! انتحبتْ شرفةُ المنزل، وتوشّحت أعمدة البيت بالسّواد، غابت زرقةُ السّماء، وتصبّغت لوحةُ عائلتنا، بألوانٍ فحميّة! وهناك.. في منتصف الصّورة، سقطت قطعةٌ من جهنّمَ، غيَّبتِ الحياةَ عن شمسٍ وقمرٍ، ضاعا في غمرة النّيران، تفرّقتْ كواكبُ ثلاثةٌ، وتوطّن الهجرُ والخذلان...

صرخةٌ مدوّيةٌ في عمق الفضاء، تيقّظ إثرها الويل والبؤس والشّقاء، أعلن الأفقُ الحدادَ، واصفرّت الوجوهُ، وانعقدتِ الألسنُ، وتاهَ الكلامُ.

- ابتلعيني أيّتها النّيران الأكولة، دعيني أضيع في عتمة السّماء، اجعلي من جسدي الضّعيف رمادًا، تذروه الرّياح، قولي لي أيّتها النّيران الحاقدة: أين أخذت منّي أمّي؟ أين أخذت منّي أبي؟

هناك، في مخدعهما الوثير، كانا يغطّان في نومهما الهادئ، قبل أن تُداهمهما شعلةُ نارٍ خبيثة. بدأتْ جذوةً صغيرةً، في طرفِ الفراش، فتيقّظا! ظنّا أنّهما في

كابوسٍ فظيعٍ، فاندفعَا بكلّ ما أوتيا من شغفٍ للحياة، يطفئان بالغطاء الّذي كان عليهما ألسنة اللّهب الهائجة. ثارتْ النّيران فاتّسعت واصَّعدت، لتشمل الفراش عن كلّه، والأسقف والجدران، اختلطت حُمرة النّيران بسواد الدّخان، سرتْ إليهما في مأمنهما وامتدّت، في كلّ أوبٍ، وكلِّ مكانٍ، أبصرتُ النّار من نافذة حجرتهما، وقد أضاءَتها عن كلّها، لمحتُ أبي وهو يقفُ أمام أمّي، ليحميَها، ويمنعَ عنها ألسنةَ اللّهب الهائجة، سمعتُ صراخ أمّي، واستغاثات أبي، شاهدتُ عجزهما، لكنّي جبُنتُ وعجزْتُ عن حمايتهما، لم أستطع أن أخترق هذه النّيران، وتسمّرتُ في مكاني، ومن هول الموقف، لم أحسن التّصرّف، كان عليّ أن أفعل أيّ شيء لحمايتهما، أن أصرخَ، أن أستغيث بالجيران. رأيْتُ أمّي وهي تبكي، خوفًا عليّ، هتفتْ باسمي مرارًا، وهي تقول:

-أنقذوا ابني عمر!

حاصرَتِ النّيرانُ المستعرةُ، جسدَيهما الضّعيفينِ، وسرَى إليهما لهيبُها الحارُّ، أحاطَ بهما الدُّخانُ من كلِّ مكان، حجب عنّي الرّؤية، فلم أعدْ أرى غيرَ سوادٍ بسواد! خالطَ أنفاسَهما الحارَّةَ، سعلَتْ أمّي بشدّة، وضاقَ نفسُها.

رغمَ أنَّ الدُّخانَ قدْ حجبَ الرّؤيةَ، إلّا أنَّني أستطيعُ تخيُّلَ المشهدِ تمامًا، أستطيعُ تصوَّرَ لحظةِ محاولة أبي أن يصل بأمّي إلى بابِ الحجرة، بعد أن جعلتِ النّيرانُ حيّزَ الأمان ضيّقًا جدًّا، تساقطتْ قطعٌ من ألسنةِ اللّهبِ هنا وهناك، وصلا بصعوبةٍ بالغة، إلى الباب، ازداد سعال أمّي، وازداد أبي وهنًا، عانده مقبضُ الباب العالق، تآمرتْ عليهما أسباب الموت، والموت واحدٌ، طرق على الباب بقوّة، قبل أن يستجديَ أمّي لتثبت أكثر، بعد أن سقطت على الأرض، مختنقة برائحة الرّماد، لأوّل مرّة أسمع فيها أبي يبكي بهذه الطّريقة، رفع رأسَها بين يديه، وأحسّ ببرودة جسدها، رغم حرارة النّيران. راح يستجديها متوسّلًا:

- اصمدي يا وداد، عليك أن تعيشي، لا تغادريني الآن.

تعاظمَ سعالُ أمّي، لامستِ النّيرانُ شعرَها النّاعم الطّويل، اندفع أبي يطفئه بيده الّتي احترقت. شهقت، وتعاظمت نوبات سعالها، تسارعت نبضات قلبها، ولم تعد قادرة على التّنفّس بشكلٍ طبيعيّ، تهالكَ جسدُها، وعجزَ قلبُها عن مواصلة الصّمود! صرخ أبي مستجديًا الفراغ:

- أنقذونا، نحن نحترق...

حاصرتْهما النّيرانُ من كلّ مكان. احتضن أبي جسدَ أمّي بقوَّة، ودوّى صوتُ أنينه في السَّماء! حالتِ النّيرانُ بينَه وبينَ استمرار هذا المشهد التّراجيديّ، واستعرت أكثر، تدافعت قطعٌ ملتهبةٌ من سقف الغرفة، واخترقت جسديهما، علا صوت صراخه، حرّقت النّيران جلدهما، وتعمّقت إلى عظامهما، انتشرت رائحة جسديهما المتفحّمين، ذاب جسداهما الملتحمان، وانمحت معالمهما، انتزعت هذه النّيران منهما روح الحياة، واحتدمت فيهما، فآلا إلى فحمٍ وغبارٍ..

- اجتثّي أيّتها النّيران روحي، وخذيني معهما..

- اصمتْ أيّها الهلوع.

- قفي أمامي وجهًا لوجه، وناكفيني.

- اسكت فالضّعاف لا يطالبون.

- لسْتُ ضعيفًا، وسأريك من أكون!

- ستبقى يا عمرُ مجرّد صفرٍ ذليلٍ، لا دورَ لك في هذا الوجود!

ضاقت بي الدّروب، وتقطّعت لحالي نياط القلوب!"

كانا على مرأى من نظرِ عمرَ، قبل أن تحجبَ روحهما ألسنة اللّهب وتسكتها سكتتها الأبديّة، لم يستطعْ أن يقدّم لهما شيئًا، اشتمّ رائحة جثّتيهما المتفحّمتين، سمع صوت صراخهما وسعالهما اختناقًا، وعجز عن فعل شيء، تملّكه إحساسُ هذا الفتور القاتل والعجز المميت! عاتبته أفكار عقله:

-"ليتك متَّ معهما يا عمر... ليتك استطعتَ أن تقدّم لهما جزءًا بسيطًا ممّا قدّماه لك من حبٍّ وحنان.. ليْتك فارقت الحياة معهما، وأصبحت نسيًا منسيًّا!"

"ليتك وليتك وليتك" كلمة تكرّرت بنسقٍ مزعجٍ مشتّتٍ في عقل عمر!

حاصرته كلّ الصّور الّتي يحاول الفرار منها، والذّكريات الّتي يودّ الانفلات عنها، صورة هذا الفقد الموجع، وصورة الخيبة الّتي تعرّض لها من أخوته وأقرب النّاس إليه، إلى جانب صور التّآمر والمكر والقسوة، الّتي تعرّض لها في عمره هذا، بعد أن فقد مصدر قوّته وأمانه، وصورته بعد أن أصبح عاجزًا ضعيفًا، ليس له من الأمر شيءٌ، لا يقوى على ردّ المظالم عن نفسه أو درئها. حاول أن يُغلّق الأبواب عنها، وما استطاع! صرخ عمرُ بعلو صوته:

- كفى، أريد أن أرتاح! أريد أن أهرب من نفسي، ومن واقعي، ومن هواجسي!

جاءه الرّدّ من النّاحية الأخرى، من نواحي عقله:

"يا عمر، إنّ ما تهربُ منه يلاحقكَ! هذه الذّكريات الموجعة ما لم تتجاوزها ستحاصرك، فلا تتفلّت منها، ولا تحاول الفرارَ عنها، عشْها بكلّ ما فيها، حتّى يحينَ الوقتُ الّذي تفقدُ فيه تأثيرَها! فلا يعود يؤثّر فيك ألمٌ مضى، أو وجعٌ انتهى! لا تفكّر بكلّ من خذلك، واتركه للزّمان حتّى يخذله! ولا تسأل كلّ قاسٍ: "لماذا قسوْتَ؟" فكثيرًا ما تسرقنا هواجس الشَّكِّ والرّيبة؛ حتّى تقسو قلوبنا، وتصبح كالحجارة، أو أشدّ قساوة، فنُردُّ بذلك إلى عصر الجاهليَّة، ونُكبَّلُ بقيود من الغيبة والنَّميمة، وقد تُعمى قلوبنا عن اللَّحظات الجميلة، الّتي كنَّا نتشاركُ فيها، مع أناس كانوا يمضون معنا أجمل الأوقات، لا بل وقد تُعمى قلوبنا عن الحقّ، ونُقلّدُ بذلك وسام الحقد والكره، فيتعرّش الشّيطان في قلوبنا، وتتعرّى قيمنا الّتي كانت تدعم أفكارنا وأعرافنا."

- لطالما كنت أرى في أخويّ عامرٍ وفؤاد نظرات الغدر والحنق، لكنّي كنت أكذّب نفسي! حتّى عندما ألزماني على الإقامة الجبريّة، في هذه المصحّة النّفسيّة، واتّهماني

في عقلي، ظللتُ على أمل أن يعودا ويُخرجاني، وأن يَشعرا بذنبهما، بعد أن أقصياني عن صفو الحياة، وعزلاني عنها، وغابا تاركينِ داخلي بحارًا متلاطمةً أمواجُها من الخيبة والخذلان والأسئلة....

أطرقَ عمرُ لصوتِ عقلهِ من جديدٍ، علّه يجدُ الأجوبةَ، فجاءَهُ الرَّدُّ:

- إنَّ الغيابَ يفسّر كلّ شيء؛ ففي البعد تتَّضح الصّورة، وتتأكّد الفكرة، ويكتمل المشهد! فلا شيءَ أصدقُ من شعورِ الإنسانِ، إنْ أغلقَ عينيه أو أبقاهما مفتوحتينِ، لا يهمّ؛ فهو يرى بنور قلبه، وسطوة فؤاده."

انحدرَ الصّداع اللّعين إلى حيث عينيه، أحسَّ أنّ جسمًا ثقيلًا جدًّا، قد استقرّ فوق صدره؛ ليخنقه ويقضي عليه. صوته بدا مكتومًا! ربّما بدا كذلك بسبب علوّ أصوات ضجيج أفكاره، الّتي شاركت أخويه وأقرب النّاس إليه في عدائها له، حتّى هان عليهما وألقياه هنا، في مصحَّة نفسيّة، مدّعين أنّه فقد عقله حزنًا وكمدًا! أيّ وجع هذا الّذي يأتي من أقرب النّاس لنا؟ أيّ غدرٍ هذا الّذي يُحاكي غدر إخوة سيّدنا يوسف عليه السّلام، عندما ألقوه في غياهب الجبّ، ليخلو لهم قلب أبيهم المفطور! كيف يهون

لإنسانٍ أن يفعلَ فعلتَهم النَّكراء هذه؟ ألأنّه الأصغر بينهم؟ ألأنّه الأضعف؟

"ألم يكنِ الوضعُ مختلفًا، لو بقي والداي على قيد الحياة؟ فمنذ أن فقدتهما، والوضع كلّه قد انقلب رأسًا على عقب. أين تركتماني لوحوش الدّنيا الكاسرة، أحارب وحدي وأنا عاجز لا أقدر؟ كيف لفتًى مثلي ما زال في عمر السّادسة عشرة أن يحاربَ غدر أخوته؟ ألهذه الدّرجة هم يروننني ضعيفًا؟ عاجزًا عن الدّفاع عن نفسي؟ لماذا تُقابلُ أعمالي دائمًا بسوء الظّنّ والسّخط والعداء؟ لماذا عليّ أن أحمل كلّ الأوجاع فوق ظهري، وهم في رغدهم ينعمون؟ أين العدلُ في كلِّ هذا؟"

جاءه الرّدُّ، من جانبٍ آخر، من جوانب عقله الّذي بات كشظايا متعدّدة، في كلّ شظيّة فكرة مختلفة متناقضة:

- يا عمرُ، إنْ كنتَ تسألُ عن العدل، فالعدلُ ماتَ منذ أن ماتَ عمر، ويا أيُّها المنتظرُ على أعتابِ عمرَ، إنْ كنتَ تتسوّلُ العدلَ، فالعدلُ ماتَ بموت جسده، إنّ العدلَ قد غادرَ بلا رجعة، فلا تتسوّلْ عطفًا، ولا تستجدِ أمرًا، ولا تنتظرْ شيئًا؛ فهنا وفي هذا الزّمان، لن تجد حقّك، فهوّن عليك، ولا ترجُ عدلًا من شخص يجهله، ففاقد الشّيء لا يعطيه! ارفع يدك للبارئ المصوّر، العالمِ بكلّ شيء،

والمطّلع على سرّك، والّذي لن تهون عليه، ولن يبخسك حقّك، ارفع يدك وانطلق بدعائك الخفيّ، وسترى أنّ كلّ شيء سيعود لك!

علَتْ أصواتُ عقله أكثر وأكثر، خُيّل له أنّها تسخرُ منْهُ ومنْ عجزِه! تحاشدتِ التّناقضاتُ داخلَ عقل عمر، وضجّت محدثةً قرقعةً مجلجلة، شعر كأنّ الأفاعي تعشّشُ في رأسه، والعقارب تلدغ خلايا لبّه، ازداد الوَصَب عنده، ووزّع ألمه في كلّ نواحي عِليائه، رغب في أن يطرق رأسه في الحائط، علّ ذلك الوجع يلهيه عن الصّداع الأكبر، ويقلّل من تحاشد هذه الأفكار الّتي أضرمتْ نارها داخله.

ناداه هاتف من إحدى النّواحي:

- يا عمر، هذا الألمُ هو المحرّكُ الأوّلُ والأخيرُ لكَ، كي تنشغلَ عنهُ بما قدْ يشغلُكَ، يجب أن تفكّر بطريقة تهرب فيها، يجب أن تتناسى هذا الألم، وتستجمع رباطة جأشك! غيّر من واقعك، ولا تنتظر من أحدٍ أن يمدّ يد العون لك! لا تقبل أن تمضي بك الأعوام والأعوام في هذا المكان! أنت مختلف عن كافّة النّزلاء المقيمين في هذه المصحّة، لا تسمح لأحد أن يلعب بعقلك، ويقنعك على أنّك مريض مجنون! لا تسمح لأحدٍ أنْ يرسم لك

مصيرًا لا ترضاه ولا يناسبك، لا تسمح لأخويك أن يفعلا بك كما فعل ذوو الكثيرين من الّذين أصبحوا مرضى في هذا المكان المقيت!

استفزّته الكلماتُ، هبَّ من سريره منتصبًا، جنحَ بخطًى ثقيلة واهنة، نحو الباب الموصد من الخارج، طرق على الباب بضربات بائسة خرساء، كان متأكّدًا أنّه منفيٌّ معزولٌ، في أصقاع رُدهةٍ بعيدة، عن باقي الرّده، في آخر الممرّ الطّويل الملتفّ كأفعى رقطاء، في حجرةٍ لا يُسمع فيها صوتٌ، غيرَ صوت زفيره الكليل الهجير.

طرقة.. طرقتين.. ثلاثة، خارت قواه الواهنة أكثر، حاول أن يتحامل ويتجلّد، شعر بنَفَسهِ وهو يضيق، وبالغثيان وقد تملّك منه شرّ تملّك. تهادى مترنّحًا في مكانه، حاول أن يتماسك قليلًا، بالقبض على أيّ شيء تقع يده عليه، اصفرّ وجهه، وشعر بأنَّ كلّ ما في الغرفة يدور من حوله، كشمسٍ تدورُ من حولها الكواكبُ في مداراتٍ عكسيّةٍ، خارتْ قواهُ تمامًا، قبل أن يصبحَ عائمًا مشوّش الذّهن تمامًا، ازدادتِ القرقعةُ داخل هامته، بدت الرّؤية تخفت شيئًا فشيئًا، اتّسع السَّرابُ من حوله، ثقلتْ قدماه، ولم تعودا قادرتين على الثّبات أكثر، وهن جسمه بالكامل، خذلته أعضاؤه، حتّى خرَّ في مكانه مغشيًّا

عليه، لتتناقلَ معه الأفكارُ والذّكرياتُ المُنهِكة، في غيبوبته، على هيئةِ كوابيسَ تحاصرهُ، وهلاوسَ تشتّتهُ.

***

يحاربُ الإنسانُ من أجلِ الحفاظِ على مصدرِ أمنِه، ولحظاتِ صفوهِ، وأنسه واستبشاره، يظلُّ يحاربُ ويحاربُ ويحاربُ، وبلحظةٍ يكتشفُ أنَّه ما كان يحاربُ إلّا عمرَهُ، وراحةَ بالهِ، وهدوءَ عقلهِ، وصفاءَ أيَّامه! وحدَهم من اعتادُوا على أن يرفعُوا رايةَ الهزيمة، أمام كلّ ما وضعته الدّنيا في طريقنا من مكاسبَ كنّا نظنُّها خساراتٍ، من يستحقُّون أن نقولَ فيهم أنَّهم قد انتصروا، وأنا الآن أعلن انهزامي!

حاولْتُ كثيرًا ولم أنلْ من محاولاتي غير الوهم والسّهو والغفلة، يكفيني ما بذلْتُ، فهذا نصيبي! يجبُ أن أتعايشَ على ما إلْتُ إليه، يجبُ أنْ أرضخَ لقدري الّذي كُتِب لي. مرّ شهرٌ كاملٌ عليّ وأنا في هذه المصحَّة النّفسيّة، حاولْتُ كثيرًا، وبكيتُ أكثر حتّى جفّت دموعي ونضبتْ، لن أوهم نفسي أكثر؛ فحظّي من الحياة زهيد، ونصيبي من الدّنيا قليل.

استثارتْهُ إحدى أصواتِ فكرهِ:

- "قاوم يا عمر"

- لنْ أقاوم"

- "اصمدْ "!- كفاني صمودًا

- "إيّاك أن تنهزم"

- ما خُلِقْتُ إلا للهزيمة...

- "ما زال الأملُ يلعلعُ"

- سيظلّ اليأسُ ينتصر.

أفاق عمر، والحقنة المغذّية ماثلة في وريده، وهو مسجّى على السّرير الّذي شهد صراعاتِه، قبل أنْ يفرَّ منه فيُغشى عليه. تنامى جحوظ عينيه، حفرت العظام في وجهه أخاديد عميقة، وتحت عينيه تشكّلت حفرتان عميقتان مظلمتان. الرّؤيةُ من حوله شبهُ غائبة، الموجوداتُ أمامه أشباحٌ وأخيلة، وكلّما وسّع من محجري عينيه، ليتيقّن من الشّبح الماثل أمامه، اشتدّت عليه آثار الصّداع اللّعين!

وبعد عدّة محاولات مضنية، ودأبٍ شديدٍ، استطاع عمر، أن يرى أخيرًا، في هذا الطّيف الآسرِ، ملاكًا

رحيمًا، بعينين عسليّتين وادعتين، في وجهِ خنساءَ هيفاءَ، اسمُها (إيلاف).

ابتسمتْ في وجهي ابتسامةً هادئةً، يشوبها شيءٌ من التّوتر والقلق، كانت تحملُ في يدها ماعونًا، قبلَ أن تقوم بوضعه على المنضدة الصّغيرة، على ميمنة سريري.

لم تخفَ عليّ بساطتُها وبراءتُها، فعلى الرّغم من أنّ هذه الممرّضة –على ما يبدو- تكبرني بسبع سنوات، على أقلّ تقدير، إلّا أنّي استطعتُ سريعًا بلوغَ قعرِها، وملاحظة ارتباكها، أعتقد أنّ كلّ من يراها يستطيع لمس هذا، فقد بدتْ من النّظرة الأولى جليّةً واضحةً، ذكّرتني نظراتها الأولى بنظرات المعلّمة، في أوّل يوم تدخل فيه صفّنا، وهي تحاولُ أن تظهرَ رصانةً وصرامةً، ممزوجةً بقلقٍ خفيّ، لا يخفى عنّا، نحن أبناء هذا الجيل الخارق! على الرّغم من أنّي لم أكن كباقي أقراني في الصّفّ، إذْ لم أكن أبدي أيّ ميولٍ أو تصرّفات رعناء، بل على العكس تمامًا، فقد كنتُ معروفًا بين زملائي وأساتذتي، بأنّني متعقّلٌ رصينٌ حاذقٌ.

رغم ما بدتْ عليه هذه الممرّضة من بساطة ووداعة، واختلافٍ عن زميلاتها وزملائها الّذين مرّوا بي قبلها، إلّا أنّي لن أثقَ بها، فما نالني من الثّقة غيرُ الانكسار!

ستبدّل جلدها سريعًا، وتختلف نظرتها لتتساوى مع باقي النّظرات، بعد أن يمرّ عليها وقتٌ قصير هنا!

الكلّ هنا ما بين متآمر مؤذٍ، أو خاضعٍ بلا رأي أو شخصيّة، يخنقهم الظّلم، ولا يتجرّؤون على دفعه! يتجاهلون نداءاتِ قلبهم، ويفقؤون أعينهم عن جراحات غيرهم!

قفزَ لي صوتُها:

- حمدًا لله على سلامتك يا عمر.

لم أرغب بالرّدّ قطّ، أعلنْتُ الحربَ على كلّ من وما حولي، بينما واصلت الممرّضة إيلاف بلا يأس محاولاتها...

- وجدتُك مطروحًا على الأرض، عندما جئتُ أتفقّد أمرك.

لم يتغيّر شيءٌ هذه المرّة أيضًا؛ فقد قوبل كلامها بمواصلة هذا الوجوم! لعلّها ظنّت أنّي بكيمٌ أبهمُ! أو معتوهٌ أبلهُ، أسمع كلامها ولا أعي منه شيئًا، لعلّ هذا الظّنّ كان الأقرب، فمكاني هنا، في هذه المصحّة، ما بين المجانين والمرضى، يجعل أيّ إنسان يأخذُ عنّي نفس

هذا الانطباع! ولهذا صرتُ لا أتفاعل مع أيّ محاولات للحديث! وإقامتي هنا جعلتني أميل إلى الانعزال والانفراد، كرهْتُ النّظر في وجوه مدّعي التّعقّل ممَّن يتجرّؤون على تصنيف غيرهم، على أنّهم مرضى أو مجانين! منهم من يقابلني بنظرةِ سخريةٍ وضحكٍ، ومنهم من يناظرني بإشفاقٍ وأسًى، وفي الحالتين أمقتُ مثل هذه النّظرات، وأرفضها تمامًا.

- إيّاك أن ترهق نفسك في أيّ أمر يا عمر، أنت هنا لترتاح.

(لم تجدْ منّي ردًّا، وحارتْ في صمتي)

- لا تقلق، فمفعول هذه الحقنة قد بدأ يظهر في وجهك، وهذا ما جعلك تنامُ نومًا هانئًا قريرًا.

(رغم صوتها الحاني الأنيث النّاعم، إلّا أنّي استرسلْتُ في صمتي!)

- لا بدَّ أنّك جائعٌ الآن، سأتركك تتناول وجبتك!

واصلْتُ تمرُّدي، وقلْتُ بنزقٍ، دونَ أنْ أشعرَ بالصّخر داخلي وقد بدأ يتشقّق، ليتمدّد فيه فيضٌ من ماء روحي، بعد أن كان صلدًا جليدًا:

- لا رغبةَ لي بالطّعام.

صحيحٌ أنّ نبرتي في الجواب كانت حادّة، إلّا أنّي تكلّمتُ رغمًا عنّي!

ردّت إيلافُ باهتمام:

- إنّ لبدنك عليك حقًّا يا عمر.

تسلّل شيءٌ من الاطمئنانِ داخلي، لا أعلم كيف وجدْتُ نفسي أمام معلّم يسأل فأجيب:

- لكنّي أشعر بالإعياء، وأرى أنّ تناولي للطّعام الآن سيزيد الأمرَ سوءًا.

ردّت إيلاف بلهجة المُقنع:

- سيختفي أثر الإعياء هذا، بتناولك وجبتك، وتجرّعك الدّواء.

أخذْتُ نفسًا عميقًا، وسمحتُ لشيء من الرّاحة أن يتسلّل داخلي، لم أعِ بلحظتها، أكانت هذه الرّاحة المؤقّتة الّتي أشعرُ بها الآن، من بعد صداعٍ يفتك بي، وأفكار تجتاحُ خلايا عقلي، من جرّاء الحقنة المزعومة، أم من تأثير طاقتها الإيجابيّة الّتي تملّكتني، أيًّا كان السّبب،

وعلى أيّ حال، فأنا بأمسّ الحاجة لمثل هذه الرّاحة، وإن كانت راحة غير مكتملة، فما زال هنالك أثرٌ من آثار ذلك الصّداع اللّعين، ينخرُ داخلي، ويتسلّى بتقطيع خلايا رأسي العصبيّة، لكنّه ألمٌ مستحملٌ بالمقارنة مع الآلام الأخرى الّتي تفترسني وتبطش بي.

تململتُ في فراشي، هممتُ بالجلوس، زلفتْ منّي بهدوء، وعدّلتْ من الوسادة، لأسند ظهري عليها. جلسْتُ في موضعي، حرّكتُ من عنقي قليلًا، في محاولة منّي لتخفيف تصلّبها، فتيقّظتْ عظام ظهري لهذا الوجع، شعرتُ بألمٍ حارقٍ يُشبه الطّعن، امتدّ إلى ساقيّ النّحيلتين، فتنبّهتُ إلى هذا الإعياء الّذي لبّى هو الآخر النّداء، فجاء معه الدّوار على عجلٍ، وكأنّهُ على موعد هامّ معي! حاولتُ إخفاءَ عجزي، وقلتُ:

- أرفضُ البقاء هنا، هذا ليس مكاني، بالله عليك، انظري في وجهي، هل يبدو لك أنّه وجه مختلّ خرف؟ ناظري عينيّ، واسمعي كلامي، هل بي ما يشير إلى الجنون؟

رغم أنّي كنتُ عازمًا على التّوقّف عن المحاولة مرّة أخرى، إلّا أنّي لا أعلمُ كيفَ وجدْتُ نفسي، دون أن أدري، أحاول من جديد! ولكنّ محاولتي هذه المرّة بدت أكثر تعقّلًا؛ أريدُ أن أجدَ شخصًا أهلًا للثّقة، قد تكون هذه

الممرّضة خيارًا جيّدًا، لأبثّ لها همّي، وأشكو لها أمري، علّها تساعدني، وتخرجني من عتمة لجَّتي، وسُدفةِ دياجيري.

- من قال هذا يا عمر؟ من أخبرك أنّ هذا المكان للمجانين؟ أنت هنا، كما أخبرتك، لتنال قسطًا من الرّاحة، ولفترة وجيزة.

- الرّاحة لا تُعطى بالقهر، ثمّ إنّ الرّاحة الّتي تتحدّثين عنها غادرتني، منذ أن أُرغمتُ عليها!

حاولتْ إيلاف أن تغيّرَ الموضوع، قائلة:

- عليك الآن أن تتناول حساءك، وقطعة اللحم المشويّ هذه، انظر إنّها صغيرة، ستناسبك تمامًا كونك غير جائع.

- لكن....

- كفاك تململًا وتهرّبًا، لن أغادر من هنا حتّى تتناول وجبتك، أنتَ متعبٌ، والإعياء يسيطرُ عليك، من قلّة الطّعامِ! إنْ بقيْتَ على هذه الحال، ستقتل نفسك بلا شكّ، قبل أن تحظى بفرصة الخروج من هذا المكان!

يبدو أنَّ كلَّ الإناث يتشابهْنَ في إلحاحهنّ، ليتَني رُزقت بأختٍ لي تفهمني وتسمعني، تناصرني وتشدّ من أزري، تحرصُ عليّ وتدعمني، كأمّي. إنّ كلّ عائلة يجب ألّا تخلو من حسّ النّساء، أيًّا كانتْ أدوارهنّ، أمّهاتٍ، أخواتٍ أو زوجاتٍ؛ هنّ بلسم هذه الحياة، وسرّ الوجود، ومهما بلغنا، نحن الذّكور، من قوّة وتجلّد، إلّا أنّني أعترفُ وأقرُّ قانعًا، أنّ الإناث هنّ وقود هذه القوّة، وبتوقّف حسّهنّ تتوقّف الحياة عن الحياة.

تغرغرت الدّموع داخل عينيّ، من بعد راحةٍ مؤقتة، وجدتُ نفسي الآن وقد فقدْت كلّ قوّتي، بموتِ أمّي وأبي! استطاعتْ إيلاف أن تقرأ في وجهي ذلك الانكسار، ابتسمتْ في وجهي قليلًا، لتقشع طيور الهمّ عنّي! وناولتني طاولة صينيّة الطّعام الخشبيّة، وُضِعَ فيها طبق اللحم المشويّ، مع الخضار، وإلى حانبه صحن الحساء.

قلتُ بلهجةٍ محتجّة:

- لماذا أنا مُحتجزٌ وحدي في هذه الغرفة؟

- أوّلا، أنت لست محتجزًا، أرجو أن تستخدم ألفاظًا أدقّ، أنت هنا فقط لترتاحَ ليومين، ثلاثة، أربعة ... أو شهر! هذا يعتمد عليك أنت، وعلى تعاونك... كما أنّك محظوظ،

فغيرك من النّزلاء في هذه المصحّة، يتشاركون في غرفة واحدة، مع أكثر من شخص، هم لا يحظون مثلك بمكان نظيف، وهدوء يساعدك على تجاوز محنتك! أمّا أنت فتقيم بجناح ملكيّ، وتحظى برعايةٍ بالغةٍ، بتوصية من أخيك عامر!

- ههه، قلْتِ أخي عامرًا؟!

ابتسم عمر ابتسامةً صفراءَ، قبل أن يواصلَ قوله:

- لكنّي لستُ مريضًا، لتقرّروا لي الرّاحة!

- تحتاج أن تصفّي ذهنك بهدوء، بعيدًا عن أيّ مصدر إزعاج، لتسكنَ روحُك، وتهدأَ سريرتُك..

- وكيف للرّوح أن تسكنَ مع كثرة الهموم ؟

- ستسكنُ بالتَّصالح معها، والتَّجهُّز لرحيلها، فالهموم وإن طالت لا تدوم.

- الكلامُ سهلٌ، لمن لا يعيشُ الواقع! هل حدث أن سرق أحدهم حرّيّتك، لتعيشي في ظلمةٍ واغتراب؟ هل جرّبتِ شعور العجز؟ أن تعجزي عن العيش كما تحلمين، وتمضية الحياة كما ترغبين، أن تعجزي عن نيل أبسط

حقوقك، أن تكوني مقيّدةً خاضعةً لغيرك، لا حقّ لك في أن تمارسي حرّيّتك، أن تعجزي عن إثبات رأيك، ونيل الاحترام من الآخرين! أفكارك محرّمة، ومساعيك مرفوضة! يجاريك الجميع، يسخرون من عجزك! لم يعد لديّ فرصة لأرى أيّ شيء جميل في هذه الحياة، من بعد فقدٍ وهوانٍ وخذلان!

- اعلم يا عمر، أنَّ لكلٍّ منّا شمسه الّتي تنير أيّامه، وتضيء ظلمته، لكن، يحدث أحيانًا أن ندير وجهنا عنها، ونستسلم لعتمة أيّامنا، لظلمة دياجيرها الحالكة، متناسين أنّ كلّ شمس فينا لا تشرق مرّتين، وأنّ كلّ معتاد على الجلوس في العتمة، سيؤذيه الضّوء والنّور إن جاء، فيقبع منغلقًا على نفسه، مستأنسًا وغير مستأنس بظلمته الّتي من صنعه، وسيغدو كفيفًا لا يبصر من يومه ضياه. فلا تدرْ وجهك عن شمسها، وعش أيّامك بحلوها، وإيّاك أن تركن لكهف حزنك، فهيهات للحزن والشّمس من لقاء!

- ليت الأمر بهذه السّهولة.

- أعلمُ أنّ الأمر ليس سهلًا، ولكنْ، عليك أن تعرفَ أنّ اللهَ يهيّئكَ لأمرٍ عظيم، ستخلق هذه الكروب في داخلك قوّة عظيمة، تدبّ الحياة في كلّ أجزاء قلبك الميْتة.

- بل ستقضي عليّ تمامًا...

- لا تفكّر بهذه الطّريقةالسّوداويّة! ثق في نفسك، وفي قدرتك على تجاوز كلّ هذا، عليك أن تفكّر بإيجابيّة، أنصحك بالكتابة، لتفرّغ كلّ ما بداخلك من سلبيّات!

"لن يفهمني أحدٌ.." (قلتُ في نفسي)

- عليّ أن أغادر الآن، فدوامي قد شارف على الانتهاء، تناول حبّة الدّواء هذه، وصفِ ذهنك جيّدًا لتنامَ.

قارعتني أفكارُ عقلي المتنافرة والمتناقضة من جديد:

-"إنّها فرصتك، حدّثها الآن يا عمر"

- "لا تثق بها، لن تساعدك"

- "عليك أن تحاول، قد تكون فرصتك الوحيدة للنّجاة"

قلتُ بحزم:

- سأحدّثها...

واصلت الأفكار دورَها في تشتيتي بتناقضاتها:

- "إيّاك.."

- "لن تخسر شيئًا، قد يكون الأملُ فيها"

- "ستخذلك مثلما خذلك عامرٌ وفؤاد، إنّها غريبة"

أدرْتُ ظهري عن تلك الأصوات الرّامية إلى استسلامي وسكوتي، صممْتُ أذنيّ عنها، وفقأتُ عينيّ عن النّظر ناحيتها، ركّزتُ فقط في الأصوات الّتي تؤيّدني، وقلتُ لنفسي بتحدٍّ:

"لن أسمح لأحدٍ أن يغيّر "عمر" القابع داخلي، لن أسمح لهم بإذلالي، لن يجبروني على السّكوت، لن يرغموني على الكفّ عن المحاولة، سأسعى وأبتغي وأرتجي، سأطلبُ من كلّ شخص أراه مساعدتي، أنا واثق أنّي سأجد من يؤازرني ويساندني! فالسّاعي في مقصده لن يخيب."

هتفَ عمرُ في خجلٍ، وهو يرى إيلاف وهي تتجهّز للخروج:

- مهلًا، أريد أن تسمعيني!

نظرتْ إيلاف في ساعتها، كان قد تبّقى على نهاية دوامها عشر دقائق، لكنّها لم تعتدْ على كسر خاطر أيّ شخصٍ يحتاجها، كما كانت تؤمن أنّ أوّل خطوة

للتّشافي، هي أن تجد من يسمعك، أن تجد من يساعدك على التّخلّص من تلك السّموم القابعة داخلك، وتنحيتها بعيدًا عنك، أن تجد من يكون قادرًا ومستعدًّا لتحويل عشوائيّات أفكارك إلى انتظام، وفكّ أحبال حزنك المعقّدة حبلًا حبلًا! لطالما آمنت إيلاف بهذا! حتّى لو كان إيمانها متأخّرًا لا يهمّ، فأن تتعلّم من كيس تجربتك، خيرٌ لك من أن تبقى بلا خبرة!

قالت باهتمام:

- أنا أسمعك.

- منذُ أن كنتُ صغيرًا، وأنا أفتقدُ مشاعرَ الأخوّة والمحبَّة، عشْتُ إلى جانب أخويّ عامرٍ وفؤاد غريبًا، لِما كانا يكنَّان لي من كره وحسد وبغض، كوني الأصغر، والأكثر دلالًا وتفوّقًا، عشْنا تحت سقفٍ واحدٍ، لكنّ صراعنا في الحياة، كان في كلّ يومٍ يتجدّد. حتّى وصلَ إلى الإيذاء في كثير من الأحيان. أذكر أنّ عامرًا وفؤادًا تآمرا عليّ وأنا في السّادسة من عمري، وحاولا أن يسقطاني من أعلى جبلٍ رمليّ، فوقعتُ، واصطدم رأسي بصخرةٍ فَجَّرتِ الدّماء من رأسي...

لم تقنع إيلاف بكلام عمر، خاصّة أنّها كانت تعلم تمامًا أنّ المراهقين، ومن هم في هذا السّنّ، وتحت هذا الظّرف النّفسيّ، يهوّلون الأمور ويرونها من منظورٍ بعيد عن العقلانيّة، لكنّها لم تشأ أن تقاطعه، أو أن تظهر عدم اقتناعها، فتزيد من آلامه! كان عليها أن تسايره، وألّا تقطع رغبته في الفضفضة، خاصّة أنّه كان من قبل منعزلًا رافضًا لأيّ كلام!

واصلَ عمرُ كلامَهُ باندماجٍ، بينما واصلَتْ إيلاف إنصاتها...

- إنّ المدحَ المتواصلَ الّذي كنتُ أحظى به من والديّ، وذلك التّركيز الكبير على فضائلي، وتلك التّفرقة اللّاشعوريّة منهما، خاصّة من أمّي الّتي كانت تفضّلني وتحرص على توفير كلّ ما أريد، مهما كان ثمنه، شكّل شرخًا كبيرًا بيني وبين عامرٍ وفؤاد، وسمّم علاقتهما بي، فنمت الغيرة لديهما وتداعت، ولعلّي صرْتُ أشكّل تهديدًا لهما، فحاكا لي الدّسائسَ والمؤامرات، وعندما مات والداي في ذلك الحادث اللّعين، عجز أخواي المصونان عن الوقوف إلى جانبي، لقد خذلاني في أوّل الطّريق، ومن أوّل صفعةٍ لي من الحياة! تآمرا عليّ، ووضعاني

في هذه المصحّة، رغمًا عنّي، وأخرجاني من حسبتهما تمامًا، طمعًا بكلّ ما تركه أبي لنا من مالٍ ومتاع!

- ألا تخشى، بقولك هذا، أن تكونَ قد ظلمتهما يا عمرُ؟! هذان أخواك، سندك في هذه الحياة، ودعامة ظهرك.

- أعلمُ أنّك لن تتصوّري ما قلته! لن ألومك في هذا، فأنا متعجّبٌ مذهولٌ، فكيف الأمرُ لغيري؟ لكنّها الحقيقة الّتي ما زلتُ أدعو الله أن تكون وهمًا، أن تكون مجرّد كابوسٍ أصحو على نهايته! لقد سمعتهما في ذلك اليوم الّذي تآمروا فيه عليّ ثلاثتهم؛ فؤادٌ، عامرٌ وزوجته دلال! كنتُ في الغرفة، بينما هم كانوا يتناقشون في أمر اقتسام التّركة! لقد اقترحت دلال الأمر، قائلة: إنّ عليهما إرسالي إلى هذه المصحّة، مدّعية أنّها تراني غير طبيعيّ، وأنّي حاولتُ إيذاء نفسي أكثر من مرَّة، وأنّي غير مؤهّل نفسيًّا بنظرهم لمقاسمتهم التّركة!

- أنت قلتَ أنّك حاولت إيذاء نفسك أكثر من مرّة، لا بدّ أنّهم قلقوا عليك، وأتوا بك هنا لمنعك من إيذاء نفسك. عليك أن تكون مدينًا لهم بحياتك.

ردَّ عمرُ محتدًّا:

- هذا افتراء منهم، وعلى رأسهم دلال، كلّ ما جرى معي أنّي كنتُ أبكي كثيرًا، ولم أكن أرغب في رؤية أحد!

- ما تقوله -إن كنت متأكّدًا منه- أمرٌ خطيرٌ يا عمر!

- ليس هذا فقط، فأنا أشكّل مصدرَ قلقٍ لعامر وفؤاد، فأخي عامرٌ الأكبر، لا يستطيع أن يكسر كلمة زوجته دلال، الّتي تسيطر على البيت كاملًا، وهي بدورها، لم تتقبّل وجودي بينهم، وفؤاد مشغولٌ بدراسته، في أمريكا، فهو الآن في عامه الرّابع، في جامعة هارفارد، يدرس الطّبّ، ويقيم مع عائلة أمريكيّة، استسهلوا هذا الأمر وتآمروا عليّ ثلاثتهم، لأكون بعيدًا عنهم تمامًا، في كلّ شيء.

- كلامُك مقنعٌ يا عمرُ، لكن...

- إنْ رغبْتِ في مساعدتي، سأثبتُ لك صدقي وصحّةَ قولي!

- وكيف يمكنني مساعدتك؟

- أحتاج طريقة أتواصل فيها مع أستاذي (نزيه خير)، علّه يقنع أخي عامرًا بإخراجي، أو يجد طريقة يتواصلُ فيها معَ عمّي (نائل) في فلسطين، أو خالتي (نهلة) في

الإمارات، يجب أن يسمعا منّي ويعرفا بأمري، فأنا على يقين أنّ عامرًا وفؤادًا أخفيا عن الجميع فعلتهما النَّكراء.

- هل معك رقمه؟

- نعم، أحفظُه.

- أمتأكّد أنّه سيساعدك؟

- نعم، فعلاقته كانت وطيدة مع أبي، وكان أبي دائمًا يوصيه بي.

- لكن...

- يمكنني الاتّصالُ به الآن من هاتفك، لتتأكّدي من قولي..

بدتْ كلماته مرصوفة مرتّبة ومقنعة. رأتْ (إيلاف) أنّ أخذها لرقم الهاتف، واتّصالها بالأستاذ "نزيه" لن يؤثّر في شيء، خاصّة أنّها كانت مدركةً تمامًا أنّ الظّلم سرطانٌ متفشٍّ، في جسد هذه الحياة.. قالت هامسة:

- العيون هنا كثيرة، سأتولّى أنا الأمر. لكن، عدني أنت أيضًا أن تحافظ على اتّزانك، وتنتظر منّي خبرًا.

لمعت عيناه فرحًا، قال متّقدًا:

- شكرًا.

تناولت إيلاف الورقة ودسّتها في جيب مريولها، تلفّتت لترى إن كان هناك من رآها، وهي تأخذ من مريض شيئًا، وأوصتْهُ بتناول حبّة الدّواء

أبدى عمر موافقة سريعة، أخذ حبّة الدّواء، ووضعها في فمه، تجرّع الماء بعدها، وانتظر حتّى خرجتْ إيلاف، أزال الحبّة من تحت لسانه سريعًا، بعد أن ذاب بعضها في فمه، وضعها في جيبه. ولسان حاله يردّد:

"لعنة الله عليكم، تريدون أن تفقدوني عقلي، وأنا أعقل منكم! ولكنْ، هيهات لكم ذلك ".

***

(2)

إيـــلاف

تدورُ بنا رحَى الحياةِ، تطحنُنا، نمضي فيها كبذور متفرّقة، في كلّ مكان، تصيّرنا في طرقٍ كثيرةٍ، نمرّ في محطّات مختلفة، نقابل وجوهًا متعدّدة، ونفارق وجوهًا أخرى، فنصبح في متاهة عن بعضنا، وتقاربٍ مؤقّتٍ عن بعضنا الآخر، نغوص في دوَّامات الحياة العميقة حتّى ننضج. وكلّما مرّت بنا السّنون نضجنا أكثر، هكذا حتّى يسوقنا القدر لبذور تزرعُ نفسها داخلنا، يبقى سرّها ماثلًا فينا، بذور مجهولة، لكنّنا لا نستطيع منع أنفسنا عن التّفكير فيها! تأنس بها قلوبنا، وتألف لها، وترتاح بقربها، فنسقيها من ماء روحنا، حتّى تنمو داخلنا، وتصبح جزءًا من سنابل أيّامنا، هي بذور لوجوه ليس لها النّسيان.

بالعادة تظهر إيلاف كشعلة نشاط، لا تسكتُ عن أمرٍ إلّا لتدخلَ في آخر! لكن، في هذا الصّباح، من يوم إجازتها، كان الوضع مختلفًا تمامًا! فقد بدتْ شاردةً

تمامًا، على طاولة الطّعام! بينما كانت الأعين ترقبها، مرتابة في أمرها؛ حتّى شهيّتها كانت أقلّ، بدتْ إيلاف كوردةٍ صفراء ذاوية، فقدتْ شميمها.

قفزَ لها صوتُ أبيها:

- كيف كان يومك البارحة، يا إيلاف؟

- الحمدلله، لا شيء جديد يا أبي.

قال باهتمام:

- لكنّك، منذ عودتك البارحة، تبدين شاردة واجمة، وكأنّ شيئًا قد ابتلع كلامك، لم تحدّثينا عن يومك كالعادة.

- لا تقلق عليّ، لقد أمضيت يومي في متابعة أحوال المرضى.

تدخّلتِ الأمُّ قائلةً:

- لكنّك تبدين على غير عادتك، حتّى أنّكِ لم تفطري جيّدًا، جالسة معنا على الطّاولة، وعقلك يبدو في مكان بعيد جدًّا عنّا.

- لا شيء من هذا يا أمّي، أنا فقط أشعرُ بالإرهاق قليلًا.

- أخشى أن تكون أحوال المرضى وكآباتهم يا ابنتي قد أثّرت عليك، وعلى قلبك الرّقيق! قلت لك كثيرًا، أنّي غير راضية عن عملك، في مستشفى المجانين هذا! أنت في عمر الزّهور يا ابنتي، تستحقّين مكانًا أفضل تعملين فيه.

- أمّي، أقدّر خوفك لكن، أريد أن تكوني مطمئنة؛ فأنا قانعة بعملي هذا. كما أرجوك، توقّفي عن وصف هذا المكان بمستشفى المجانين!

- بم أسمّيه إذًا؟

- اسمه مستشفى الأمراض النّفسيّة. ومرضاه هم أناس طبيعيّون مثلنا، لكنّهم يحتاجون إلى الرّاحة فقط، ليستعيدوا طاقتهم.

- شفاهم الله وأراح قلوبهم، لكن، انظري إلى نفسك جيّدًا، لقد غابت ابتسامتك منذ أن بدأت العمل معهم، وشحب وجهك! قل لها كلمة، يا عليّ!

- اتركيها يا امرأة، إلى متى ستقفين في وجه أحلامها؟ ابنتك واعية وعلى دراية تامّة بما يناسبها، دعيها تقلّع الشّوك عن أيّامها وحدها! فلن ينفعها إلّا نفسها، ودون أن تواجه الصّعاب لن تصبح قادرةً على دفعها.

- يا إلهي، لقد جئتُ أستعينُ بمن يحتاج إلى الإعانة! لا حول ولا قوة إلا بالله، سأقوم من هنا، ولْتتفاهما وحدكما، لا مكان لي بينكما.

وجّهت الأمّ نظرها إلى إيلاف، وتابعت قولها:

- لنرَ إن كان عملُكِ هذا وتشجيعُ أبيك لك يا إيلاف سينفعانك!

أخذتِ الأمّ تلملم الصّحون عن الطّاولة، ومضت في طريقها إلى المطبخ، ولسان حالها يتمتم بغضب:

"لم يعدْ أحدٌ في هذا البيت يقنع بكلامي"

نظر الأب في وجه (إيلاف) وقال بصوت منخفض:

- لا تبتئسي يا ابنتي، أمّك فقط غير قادرة على التّحكّم بعواطفها، هي تفكّر في عرسك وخالد، تريدك ككلّ الأمّهات أن تظهري في أبهى صورة.

- كلّ ما أريده أن تكونَ مسرورة مطمئنّة يا أبي.

- أمّك ما زالت عالقة في ذلك الحادث الأسود، في ذلك الماضي الأليم، عندما أخذ القدر منّا أخوتك"رنا ورؤى ومجد ويوسف" حرقًا، بينما بقيْتِ لنا تنزعين عنّا ألم هذه

الحياة، وسطوة هذا البلاء، لقد كنْت رضيعة، وعمرك لا يزيد عن الثّلاثة أشهر، وضعتك أمّك على الكنبة نائمة كملاكٍ وادعٍ، ملتفّة بِقماطك، قبل أن يحلّ الحريق في البيت فجأة، ويبتلع كلّ ما فيه، إثر تماس كهربائيّ. لم تجدْ أمّك بدًّا غير أن تحملك وتلقي بك خارجًا ليتلقّفك أحد الجيران، وليكتب الله لك عمرًا جديدًا، ولتكوني زهرتنا في هذا البيت الّذي فقد أريجه بعد مصابنا الجلل ذاك.

سرحتْ إيلاف في كلام أبيها، تعجّبتْ كثيرًا، لم تكن هذه الذّكرى الأليمة بالمخفيّة عنها، وكثيرًا ما يتحدّث عنها أبوها، إلّا أنّها اليوم تحديدًا شعرتْ بكلّ وقعٍ فيها، ألهذا الحدّ يكون القدرُ متشابهًا؟ غريبٌ هذا التّوافق، فأمس حدّثني ذلك الفتى المسكين، عن الحادث الذي فقد فيه والديه، وها هو أبي اليوم يسترجعُ تلك الذّكرى الحارقة، والأغرب أنّ الحادثين طريقتهما واحدة! هل تكون هذه إشارة ربّانيّة، بأن وضعها الله في طريق عمر لتنتشله من حريق أيّامه، وتنجده، مثلما انتشلتها أمّها وهي رضيعة، لتلقي بها في طريق النّجاة!

قفزَ لها صوتُ أبيها:

- عليك يا ابنتي أن تستوعبي قلبها، فقلب الأمّ لا يكنّ ولا يستكين.

- لا تقلق يا أبي، سأقنعها بطريقتي قريبًا إن شاء الله.

عادت الأمّ وهي تحملُ صينيّة الشّاي، قبل أن يقوم كلّ منهما بتغيير الموضوع بسرعة غير مسبوقة. وضعت بها على الطّاولة، وقالت:

- هل اتّصلتِ بخالد، يا إيلاف؟

- ليس بعد يا أمّي. فاليوم إجازة، والوقت ما زال مبكّرًا.

- اتّصلي به الآن، وادعيه لتناول الغداء عندنا اليوم، قبل أن يرتبط بشيء.

- حسنًا، سأحاكيه بعد قليل، لا بدّ أنّه نائمٌ الآن، فهو لا يستيقظُ قبل الثّانيةَ عشرةَ.

اربدّ وجه الأمّ، قبل أن يومئ الأب بإشارة سريعة خاطفة لابنته، حتّى تستجيب بسرعة، قبل أن يثور البركان، فيصعب إخماده. ولأنّ اللبيب من الإشارة يفهم، أمسكت إيلاف بهاتفها، وانطلقت إلى غرفتها لتلبّي أمر أمّها العسكريّ، فهي على يقين، أنّ هناك أمورًا لا تحتمل التّسويف أو التّأجيل.

***

(3)

عَـامِر رشيـد

رنّ الهاتف طويلًا، قبل أن يُردّ بصوت مغمغم أنثويّ:

- مركز مستشفى روح، للصّحّة النّفسيّة، تفضّل، كيف يمكنني مساعدتك؟

- مرحبا، أريد أن تحوّليني للدّكتور "سامر السّفاريني".

- دقيقة من فضلك.

تصبَّب جبين (عامرٍ) عرقًا، راح يمسح بمنديله ما تجمّع من فيضه، لم يكن يدري ماذا يمكنه أن يقول! شعر أنّ الكون كلّه يزدريه ويحتقره، إذ كيف هان عليه أن يلقي أخاه الصّغير في مستشفى للأمراض النّفسيّة، دون أن يستوعبه ويكون إلى جانبه في محنته!

- الدّكتور سامر السّفاريني معك، تفضّل.

- أحدّثكم من أجل الاطمئنان، على حال أخي "عمر رشيد"، المقيم عندكم منذُ شهرين.

- دعني أرى ملفّه، دقيقة من فضلك.

أخذ عامرٌ يُحدّث نفسه بقلق:

"ماذا لو قال لي إنّ عمر بخير، ويمكنكم إخراجه الآن؟! كيف سأنظر في وجه عمر؟ كيف سيسامحني؟ كيف سأحافظ على مكانتي كأخيه الكبير! كيف سأضمن أنّه لن ينتقمَ منّي، بدلال أو بسارة، أو حتّى بنفسي؟!"

قاطع صوتُ الدّكتور سامر أفكارَ عامرٍ:

- سيّدي، إنّ عمر في أحسن حال، يحظى برعاية واهتمام بالغين، ونحن ما زلنا بصدد دراسة حالته النّفسيّة، بعد أن أجرينا له كافة التّحاليل والفحوصات.

تنفّس عامر الصّعداء! وكأنّه كان ينتظر هذا الجواب! لكن، كان يجب عليه أيضًا أن يتابع حالة أخيه جيّدًا...

- لكن، لماذا كلّ هذا التّأخير؟ أمن الصّعب معرفة حالته؟

- في الحقيقة، إنّ شهرين اثنين لا يكفيان، في الكثير من الأحيان، للوقوف على طبيعة الحالة، ودراستها، خاصّة في مثل الظّروف التي واجهت عمر، وفي مثل عمره

هذا، فمعظم الأمراض النّفسيّة تتشابه في أعراضها، وتحتاج إلى دراسة دقيقة.

- ماذا يعني هذا يا دكتور؟

- أعتقد أنّه يحتاج إلى وقت أكبر، وإلى جلسات متعدّدة، لكنّ هذا يرجع إليكم.

- حسنًا، إذًا أريد تمديد الفترة، ولكن هل يمكنني زيارته الآن؟

- لا أنصح بزيارته هذه الفترة، فقد تزيد زيارتكم الوضع سوءًا، في مثل هذا الوقت، كونه ما زال في حالة صدمة وحزن شديدين، كما أنّ عمر الآن يمرّ في حالة إنكار شديد، فهو يرفض الواقع الّذي أصابه، ويتبرّأ منه، فضلًا عن أنّه ما زال غير متقبّل فكرة إقامته هنا، ويبدي جحودًا بالغًا في شأنكم.

- لا بأس، لديّ سؤال: ما هي المدّة المقدّرة لتحسّن حالته، وبقائه في المصحَّة؟

- يحتاج عمر للتّعافي، إلى أربعة أشهر تقريبًا كأقلّ تقدير، وقد يستمرّ العلاج إلى عام أحيانًا، أو حتّى عامين، في حال ازدادت عليه نوبات الاكتئاب.

- وما الإجراءات المطلوبة الآن منّي، لتمديد الفترة؟

- ستتواصل معكم السكرتيرة، للاتّفاق على أمور تجديد الإقامة، والإجراءات المطلوبة منكم، ولا تقلق بشأن عمر، فهو يحظى بخدمة ورعاية ممتازة هنا.

انتهى عامر من محادثته، ليبدأ من جديد في محادثاته مع نفسه! الهمّ يأكل قلبه، يظهر أمام الجميع على أنّه الرّجل الشّديد القويّ الواثق، الّذي لا يتأثّر بشيء! لا أحد يقدر على قراءة مشاعره غير زوجته دلال! ضائع هو ما بين إحساسه بالتّخاذل، وما بين إرضاء نفسه وزوجته.

قفز له صوت دلال، الّتي سرعان ما قرأتْ أفكاره:

- لقد سمعتَ أنّ عمر يحظى برعاية ممتازة، تضمن حمايته وسلامته.

- لكن...

- لكن ماذا؟ لا تنسَ أنّه ما زال مراهقًا، وأنّ ما مرّ به صعبٌ جدًّا.

- لهذا كان عليّ الوقوف إلى جانبه يا دلال، وألّا أتركه وحيدًا في عزلته!

- لا تلم نفسك، فأنت قمت بما هو مناسب تمامًا. كما أنّنا سنعجز عن تفهّمه والاعتناء به، وتخفيف مصابه! أنت تقضي معظم الوقت في عملك، وسارة تأخذ كلّ وقتي، إنَّها تحتاج إلى المراقبة دائمًا، أخشى أن تؤذي نفسها، ألم تر كيف وضعت في أذنها عود الثّقاب قبل شهر، في الوقت الّذي كنتُ قد غفلت عنها لدقائق لإعداد زجاجة الحليب، ولولا لطفُ الله لفقدت سمعها. تأكّد يا عامر أنّ عمرَ الآن في المكان المناسب، نحن لن نتخلّى عنه، وعندما نتأكّد أنّه أصبح على ما يرام سيقيم عندنا. هذا بيته الثّاني، لكنّنا نحتاج إلى بعض الوقت ليستعيد نفسه.

نجحتْ دلال ككلّ مرّة، في تشتيت تفكير عامر، وتوجيههِ بعيدًا، لئلّا يلوم نفسه. وهذا ليس غريبًا عليها، فمن المعروف عنها أنّها امرأة ذكيّة متمكّنة ومسيطرة، يترك لها الجميع دور القيادة والتّحكم، دون أن يقرّروا هذا أو يشعروا به! كما أنّها تستطيع أن تميّز نقطة ضعف أيّ شخص، لتحاربه بها، ونقطة ضعف عامر هي ابنته سارة...

قال عامرٌ وقد بدا مقتنعًا بقول دلال:

- أين سارة الآن؟

- في غرفة الألعابِ.

- سأذهبُ لرؤيتها.

اتّجه عامر إلى غرفة الألعاب، فتح الباب بهدوء، في الوقت الّذي كانت فيه سارة غارقة بين ألعابها، وما إن رأته حتّى أسرعتْ إلى حضنه لتحظى بدلال مفرط، حملها بين ذراعيه، وراح بها إلى الصّالة ليريها الدُّمية الجديدة، الّتي ستشارك أخواتها الدُّميات، في عالم الطّفولة، لهذه الأمّ الصّغيرة الرّائعة.

- ستفسدها بهذا الدّلال المفرط، يكفيها دمًى وهدايا يا عامر.

- لن يكفيها عمري كلّه يا دلال، فهي مهجة القلب والرّوح.

- ليتني أحظى بجزء من قلبك الّذي جعلته كاملا لسارة فقط!

- أتغارين من ابنتك؟ أنت الحبّ كلّه، وسارة جاءت مثلك، بهيّة شقيّة ونديّة، ومدلّلة.

- أأصدّق قولك مثلًا؟

- ليس عليك أن تصدّقيه، بل عليك أن تؤمني به تمامًا.

(قاطعت سارة موجة الدّلال والغزل)

- أبي، أين عمّي عمر؟ لماذا لم تحضره معك؟ اشتقت إليه كثيرًا، وأريد أن ألعب معه، وأن يحكي لي قصصًا كثيرة.

تلبّك عامر، وضاع في كلامها، غمغم متأتئًا:

-عمّك، عليه اختبارات كثيرة، وهو مشغول بالدّراسة الآن. أعدك أن آتي به قريبًا.

لم يعجبها كلام أبيها، ولم تقتنع بما فيه، صحيح أنّها ما زالت صغيرة، لكن، من قال إنّ الصّغار لا يشعرون ولا يفهمون؟ نزلت عن حضنه، متذرّعة برغبتها بإكمال دور الأمّ مع بناتها الدّمى، وتركت ابنتها الجديدة ملقاة إلى جانب أبيها، ومضت إلى الغرفة.

***

(4)

عُــمَــر

مَعَ موتِ شخصٍ عزيزٍ عليك، تصغرُ دائرةُ الاحتواءِ من حولكَ، حتَّى تشعرَ أنَّك أنت المركزُ الَّذي يتوسَّط كلَّ دائرة، وأنَّ الأمرَ جلَّهُ يتعلَّقُ فيكَ وحدَك، أنتَ الآنَ تحتاجُ لأنْ تصبحَ أقوى، لكنَّ مصدرَ القوَّةِ من حولكَ، قد بدأ يتلاشى شيئًا فشيئًا.

في كلّ مرّة تفقدُ فيها شخصًا عزيزًا عليك، تضيقُ بك الحالُ، وتتكوَّر على نفسك، لترفعَ رأسَك وأنتَ على مشارف الانتهاءِ والانقياد، إلى طريق الأحزان والقنوط، فيأتي صوتُ ربّك جليًّا مزوّدًا إيَّاك بالطَّاقة والرَّاحة:

(لا تقنطوا من رحمة الله)

فتشعرُ بكلِّ حرفٍ من حروف الآية، قد اتَّخذ مهمّة التَّسلية عنك، والرَّبت عليك، فتراهم بأجنحة بيضاء يرتقون ويرتقون، ويتسامون إلى أن يصلوا طريق

الجنّة، المحفوف بالمكاره والمصاعب والابتلاءات والأوجاع الَّتي مرُّوا فيها بدنياهم، ليستحقُّوا بعد كلِّ تعبٍ أن يصلوا إلى برّ الأمان، حيث الارتقاء والارتياح، ويتوَّجوا بتاج النَّعيم والخلود، فتهدأ أجسادهم، وتستقرّ أرواحهم، بعيدًا عن عالم الأنانيّة والعُنجهيّة والأحقاد.

مخطئٌ من يظنّ أنّ الموت يميت الأموات، إنّه يُميت أرواحنا نحن الأحياء، الموت موجعٌ للفاقدين لا المفقودين، ففكرة أن تمضي حياتك، بعيدًا عن مصدر أنسك واستبشارك -رغمًا عنك- لأمرٌ موجعٌ مريرٌ، وفكرة أن تغدو ضعيفًا مخذولًا من القريب قبل الغريب لطامّة كبرى!

"أمّي...أبي، لقد تركتماني في عهدة من استهانا بي وخذلاني! تركتماني قريرين هانئي البال، تظنّانِ أنّي بين أيد أمينة. أعلمُ أنّه لم يكن ليخطر في ذهن أحدكما للحظة، أن يجري بي ما جرى! لا أعلم إن كانت روحكما المتفحّمة في مرقدها، تشعرُ بي وتحسّ بهمّي! ولكنْ، ما أعلمه أنّي اشتقت إليكما إلى حدّ البكاء!"

كان عمر في هذا الوقت، جالسًا أمام مكتبه، وفي يده قلمٌ راح يرسمُ فيه عيونًا مختلفة، وبأحجامٍ وأشكالٍ

مختلفة، إلى جانب اسمه، فامتلأت الصّفحة بالعيون واسمه!

لعلّه كان – دون أن يدري- يرسم ما يتطلّع إليه، ويتأمّله، في قرارة نفسه؛ كان يرغب في أن يخرج من هذه المصحّة، وألّا يمضي عمره فيها، وكأنّ هذه العيون ترمز إلى رغبته وتطلّعه بالتّحرّر القريب، وكأنّ اسمه، يرمز إلى عمره الّذي يريد أن يعيشه بالطّريقة الّتي تحلو له!

أمنياته البسيطة هذه، وتطلّعاته الواقعيّة، هي حقّ لكلّ واحدٍ فينا، لكن، يحدثُ في هذه الحياة، أن تؤكل أبسط حقوقنا، فنمضي محاربين من أجل استردادها واستعادتها، فإمّا أن نفوز أو لا نفوز، وعمر اختار أن يفوز!

قطع الدّكتور سامر السّفاريني على عمر خلوته، بعد أن كان في جولته، لمتابعة أحوال النّزلاء، والغضب ظاهرٌ عليه، تقرأ في وجهه علامات الاشمئزاز والتّقزّز، من غرف المرضى المساكين وأحوالهم، ممّن وضعتهم الظّروف هنا، رغمًا عنهم، ليعانوا من الجوع، وقلّة التّغذية وسوء الخدمات، واكتظاظ الغرف، وافتقارها لأدنى مستويات النّظافة، فضلًا عن قلّة الأسرّة،

وافتراشهم الأرض الّتي تشاركهم فيها الحشرات والأوساخ، دون أن تكون لهم القدرة على أن يعترضوا، أو أن يطالبوا بأبسط حقوقهم، ليس هذا فقط، بل إنّ الأمر يتعدّى إلى ضربهم، من الممرّضين والممرّضات، والعاملين هنا، في كثير من الأحيان، لأكثر من مرّة، هم يتسلّطون عليهم، لأنّهم لا يملكون القدرة على الدّفاع عن أنفسهم، أو درء المظالم، إلى جانب تعرّضهم للسّخرية والاستهزاء والضّحك على الكثير من تصرّفاتهم وأقوالهم، الفساد هنا تفشّى وانتشر، فكثير من المرضى المساكين هنا، يتشاركون الغرفة مع نزلاء خطيرين، قد يفقدون السّيطرة ويهيجون عليهم، ويؤذونهم، وحده عمر المحظوظ هنا، فلو لم يكن من أسرة غنيّة، لما حظي بحجرة مناسبة له وحده، دون أن يشاركه فيها أحد، رغم أنّه لم يسلم ممّا لم يسلم منه باقي النّزلاء، من تعرّض للسّخرية، والإيذاء النّفسيّ والجسديّ، في كثيرٍ من الأحيان.

نادى الدّكتور سامر بصوته الرّخيم:

- سيّدة كفاح، ناوليني استمارة المريض (عمر رشيد)!

لستُ أدري كيف كظمتُ غيظي! ينعتني بالمريض، وأنا أعقل منه ومن الجميع هنا!

جلس الدّكتور سامر مقابلي! أمامه استبيان، وبيده قلمٌ، راح يملؤه بالتّرّهات، وقال:

- صباح الخير عمر...

لم يجدْ ردًّا منّي...

- عمر، هل تسمعني؟

رددتُ ببرود:

- نعم، أسمعك!

- دعني أعرّفك عن نفسي، أنا الدّكتور....

وقبل أن يكملَ تعريفه، قاطعتُه قائلًا:

-سامر السّفاريني، أعلم تمامًا، وفّر عنك عناء التّمهيد.

تشكّلت علامات التّعجّب في محيّاه، وقبل أن ينطق ببنت شفة، تابعْتُ قولي:

- لا تقلق، أنت لست أمام ساحر أو مشعوذ، فاسمك ظاهرٌ واضحٌ لي، في بطاقتك التّعريفيّة، على صدرك، وأنا أجيد القراءة، وأتقنها، ولم تفقدوني بهذا المكان هذه المهارة بعد يا دكتور.

- عظيم، ولكن، حتّى لا تختلط الأمور، أريد أن أوضّح لك يا عمر، أنّني هنا لأساعدك، وأسهم في تخفيف مدّة إقامتك هنا أو إنهائها، وهذا يعتمد عليك أنت فقط، إن ساعدتني.

- وما المطلوب منّي، إن افترضت صدق ادّعائك؟

- هل يمكنك أن تحدّثني بما تشعر الآن بالضّبط، يا عمر؟

- لماذا أخبرك؟ ألأشبع فضولك؟ أم لأرضي رغبتك في الظّهور أمامي كطبيب متمرّس خبير، لا شبيه له؟ أم لتجعلني أصدّق أفكاركم البلهاء بأنّي مريض حقًّا؟

لم يتأثّر الطّبيب أو ينفعلْ! بل حافظ على هدوئه المستفزّ، حتّى معالم وجهه لم تتبدّل، ونبرة صوته بقيت ثابتة، محافظة على طبيعتها الهادئة الخادعة والمستفزّة، وقال بهدوء:

- لنفترضْ أنّ كلّ هذه الأسباب الّتي أشرْتَ إليها يا عمر صحيحة، هل لك أن تتنازل عن غرورك الآن، وتحدّثني بما تشعر؟ صدّقني، لن يكون هنالك خاسر، سنكون كلانا الرّابحينِ؛ فأنا أشبع فضولي، وأحقّق ذاتي، كما قلت أنت الآن، مع تحفّظي على آخر ما قلته، بوصفك نفسك بأنّك مريض، وأنت ستربح راحتك، فلك أن تتخيّل هذا الكمّ

الهائل من الضّغط الّذي حمّلته لنفسك، وقد أصبح يخرج منك واحدًا تلو الآخر. كما أنّك في الحقيقة، إن تحدّثت فستختصر على نفسك نصف الطّريق! وستختصر من مدّة إقامتك هنا، فأنا أعلم ومتيقّن تمامًا بأنك تعدّ الأيّام للخروج من هنا. فكّر جيّدًا قبل أن ترفض، فتكسب غرورك وتخسر راحتك.

أطرق عمر لأفكار عقله:

"ماذا أخسر من فضفضة لمدّة ساعة، أتخلّص فيها من الهموم والأفكار السّود، المتربّصة بي في كلّ مكان؟ ثمّ إنّي ألقي بها في جوف جبٍّ عميق، وسينتهي بي الحال، بمجرّد خروجي من هذا المكان البائس. كما أنّ ما يريد الدكتور سامر أن أتحدّث به لا يمثّل الممنوعات أو الأسرار. فلمَ لا أفضفض؟ وعلامَ أعاند؟"

- ماذا تريد أن تعرف بالضّبط؟

- أريد أن تخبرني، ماذا تريدُ أن تخرج من عقلك الآن؟

تذكّرت في هذه اللحظة بالذّات، كلمات إيلاف الممرّضة البارحة، حينما ودّعتني قائلة:

"عدْني أن تحافظ على اتّزانك!"

يبدو أنّها تعمّدت أن تقول هذا، فهي تعلم تمامًا أنّني سألتقي بهذا الطّبيب المستفزّ اليوم.

- أفضّل أن تسألني وأنا أجيب، ألستُ هنا من أجل راحتي؟ وهذا أبسط مطلب بالنّسبة لي، هل لي بنيله إن تفضّلتم؟

- بالتّأكيد، تستطيع، إذًا، سنبدأ معًا لعبة السّؤال والجواب. وسأبدأ سؤالي الأوّل: كيف كانت علاقتك بأمّك وأبيك؟

- أعتقد كعلاقتك أنت بأمّك وأبيك.

- لا أريد اعتقادات، أريد حقائق، قلت لك إنّ أمر بقائك هنا ومدّته يعتمدان عليك أنت فقط.

- أمّي كانت تحبّني كثيرًا، وتخاف عليّ أكثر، لا أذكرُ أنّي طلبْتُ شيئًا منها إلّا وكان عندي في اليوم الثّاني، كأقصى حدّ.

- ماذا عن أبيك؟

- أبي كان رجلًا بمعنى الكلمة، يهبّ لنصرة الضّعيف، ونجدة الملهوف، حنونًا محبًّا لنا جميعًا، ودائمًا ما كان

يزرع فينا حبّ الحياة، يزيل من طريقنا حجارتها فيمنع من تعثّرنا، لكنّه الآن رحلَ، وتركني في هذه الطّريق المليئة بالحجارة، فتعثّرت وتأذّيت.

- حزينٌ أنت لفقدهما؟

- حزينٌ وفرحٌ لأجلهما.

- كيف ذلك؟

- حزينٌ على نفسي أوّلًا، فأنا الفاقد المنكسر، الفارغ من أيّ حبّ صادق في هذه الحياة، من بعدهما، وفرحٌ لأجلهما؛ فقد ارتاحا من هذه الحياة، وأصبحا ينعمان برحمة الله، فلم أر في حياتي أعذب من قلبهما، وأنقى من حبّهما، لم أسمعهما في حياتي، يتحدثان بشرّ عن أحدهم، لم يؤذيا مخلوقًا بكلمة أو بفعل أو حتّى بنظرة.

- قلت أنّك حزين على نفسك، لأنّك فارغ الآن من أيّ حبّ صادق. أليس هذا صحيحًا؟

- بلى.

- ماذا عن أخوتك؟ ألا تجد الحبّ معهم؟

- ليس لي أخوة.

- عامرٌ وفؤاد، من يكونان؟

- لا شيء، وهما من وضعا نفسيهما في هذا المكان الفارغ من أيّ شيء.

- لماذا تراهما على أنّهما "لا شيء"؟

- وهل اللّاشيء أيّها الطّبيب يُرى؟

- لا

- إذًا، لماذا تقول لي "لماذا تراهم"؟ أنا حقًّا لا أراهم.

- هل لي أن أعرف، كيف يرونك هم؟

- مممم، ربّما يروننني فأرًا، أو مجرّد قملة راحت تدمي رأسهم الفارغ، من أيّ شيء، فأرادوا التّخلص منها، لكن هيهات لهم ذلك.

- هل تتمنّى موتهم؟ أو قتلهم مثلًا؟

- وهل أحلم بما يجعلني أصطلي بسعير، وأخلد في سقر؟

- إذًا ماذا تتمنّى؟

- أتمنّى فقط أن يحافظا على عدم وجودهما هذا، أتمنّى أن يحافظا على كونهما لا شيء في حياتي، أتمنّى أن أعيش حياتي بعيدًا عنهما وعن وجودهما، هذا هو جلّ ما أتمنّاه.

- بالمناسبة، أخوك عامر كلّمني اليوم، ليطمئنّ عليك، ويسأل عن أحوالك، أبدى اهتمامًا بالغًا بك.

- هه

- لماذا تعتقد أنّ أخاك عامرًا يكرهك؟

- إنّه يغار منّي. ويريد أنْ يحقّق مصالحه الشّخصيّة، ويبعدني عن طريقه، خاصّة بعد وفاة والديّ، كما أنّ زوجته المصون دلال، أفسدت عقله تمامًا، وجعلتهُ كالخاتم في أصبعها. هي بالتّأكيد، لن ترضى بفردٍ جديدٍ في بيتها، يشاركها وابنتها حبّ أخي.

- وفؤاد؟

- فؤاد أنانيٌّ، لا يفكّر إلّا بنفسه، ولا يريد إلا أن يحقّق مصالحه فقط، لم يبدِ أيّ حزن لموت أمّي وأبي عندما حضر العزاء، كلّ همّه كان منصبًّا على عودته لأمريكا، وعلى كمّ الدّراسات والواجبات التي عليه، فهو متفوّقٌ،

ويدرس الطّبّ في جامعة هارفارد، حتّى أنّه لم يجامل ولم يقترح أن يصحبني معه، أعلم أنّه يقيم عند أسرة أمريكيّة، ولا يستطيع أن يتكفّل براعيتي، لكن، كان عليه فقط أن يحاول، وألّا يوافق على وجودي هنا.

- لماذا تعتقد أنّك هنا؟ ما السّبب الذي ادّعاه أخواك لإدخالك هنا؟

- بسبب حالتي النّفسيّة، وحزني الشّديد، بعد وفاة والديّ. ببساطة لأنّ لديّ قلبًا يشعر وينبض، وهما يفتقدان نعمة الإحساس.

- هذا غير مقنع.

- لكنّها الحقيقة.

- هل وضعاك هنا لمجرّد أنّك حزين؟ هل فعلت أمرًا يعبّر عن حزنك واستهجناه؟

- انعزلْتُ في غرفتي، وانقطعتُ عن الطّعام والشّراب، وهذا طبيعيّ، فرؤية أمّي وأبي رمادًا وفحمًا، أمرٌ صعبٌ جدًّا.

- هل تعتقد أنَّ هنالك سببًا آخرَ، دفعهما إلى المجيء بك هنا؟

- لا، أنا متأكّدٌ أنّ أسبابهم الواهية تكمن فقط في هذا.

- هل حدث أن تناولت الكحول، أو تعاطيتَ أيًّا من المخدّرات التّرفيهيّة؟

- بالتّأكيد لا، فتربية أهلي لي، وقناعاتي الشّخصيّة تمنعاني عن هذا تمامًا!

- سمعتُ أنّك حاولت الانتحارَ، وأن تؤذي نفسك أكثر من مرّة!

- هذا كذبٌ وتلفيقٌ كبير، كلُّ ما في الأمرِ أنّي حاولتُ أن أدخلَ على والداي الحجرة، لأنقذهما من النّيران المستعرة، لكنّني عجزْتُ؛ فقد أمسكني الجيران وأبعدوني عن المكان.

- أهناك أمرٌ آخرُ تسبّب فيه أخواك بإيذائك؟

- وجودي الآن هنا، بين يديك، هذا أعظم إيذاء!

- لماذا أنت ساخطٌ عليّ أيضًا؟

- لست ساخطًا عليك، بقدر ما أنا مستنكرٌ فعلك وفعل الأطباء أمثالك، فأنت تعلم تمامًا أنّ مكاني ليس هنا، وأنّ راحتي خارج هذه القضبان، لكنّك مصرٌّ على أن أبقى نزيلًا عندكم، تتسلّى معي بأسئلتك، وتفرح بأجرك لقاء هذا!

- أنت مخطئ تمامًا يا عمر، وإنكارك وسخطك هذا على كلّ من يريد مساعدتك، سيزيد الأمر سوءًا، عليك أن ترضى بما أنت فيه الآن، لتتخطّاه بمساعدتنا، وتتجاوزه بكلّ نجاح! عليك أن تعرف أنّ الصّحّة النّفسيّة، لا تقلّ أهمّيّة عن الصّحّة الجسديّة.

شرد عمرُ في عالمٍ آخر، أخذته الأفكار هنا وهناك، أنصتَ إلى أصوات عقله، من جديد، تاركًا الطّبيب يحدّث نفسه.

" في هذه الحياة، يحدث أن تكون بطل فيلم من إخراج بعض المنشغلين بصناعة الأفلام والدّوبلاج، بينما أنت بعيد كلّ البعد عن عالم التّمثيل والممثّلين. يحدثُ أن تكون حياتك كحلًا أسود، أصرّ أؤلئك المنشغلون بالقيل والقال على تلوين صفحتك به، متغافلين عن سواد قلوبهم. يحدث أن تكون شوكة في حلق كلّ حاقد مشوّه، ما إن يروك حتى يقفلوا أفواههم صاغرين خائفين،

يحدث أن يصدّق أولئك أكاذيبهم الّتي اختلقوها، فيخافون منها ومنك. يحدث أيضًا أن يصنع أولئك المنشغلون منك قصّة يريدون أن يصدّقوها، ويريدون منك أنت أيضًا أن تصدّقها! لكن، ليس لهم ذلك!"

صوتُ الدّكتور سامر أعادَ عمر إلى واقعه:

"عمر، هل أنت معي؟"

احتدّ عمر في وجه الطّبيب:

- لن تقنعوني بمساعيكم اللّئيمة هذه، فيكفيني أنّي الأدرى بسلامة عقلي! تريدون أن تغسلوا دماغي بأفكاركم اللّعينة، ولكن، لن أمكّنكم منّي! وسأثبت لكم أنّكم جميعًا مخطئون!

- لقائي بك اليوم انتهى، وسيكون لنا لقاء آخر.

- متّى سأغادر المصحّة؟

- قريبًا إن شاء الله، عليك المحافظة على تناول أدويتك في وقتها، والاعتناء بصحّتك وتغذيتك.

***

بينما يُتقنُ البعضُ فنَّ أكل رأسك، واختراق خلايا ذهنك، ونهش ما تبقّى من بقايا طاقتك الإيجابيَّة، عليك أن تكون يقظًا، وأنْ تفوّت عليهم غرضهم! هذه الأسئلة الّتي يحاولون أن يجعلوها تعشّش في عقلك، وتلك المحاولات الّتي لا تنقطع بدحض أيّ مساعٍ منك لتثبت رأيك، عليك أن توقفها، عليك أن تمنع الغرابيب السُّود الّتي يطلقونها لتحلّق فوق هامتك، فعندما تلوح لك ثرثراتهم، وتتراءى لك ترّهاتهم، ارسم على وجهك تلك الابتسامة الصَّفراء، وضع رجلًا فوق الأخرى، وقل بهدوء: طيّب"! ودعهم يفرحون بانتصارهم، وانعم أنت بانتصارك!

ربّاه، لسْتُ أدري، كيف يتجرّأ الإنسانُ، على تنصيب نفسه كمسؤولٍ، عن تغيير أفكار غيره، وفق أهوائه وقناعاته؟

أيُعاقَبُ الإنسانُ على اختلافه؟

أيُجبر المرء على تقلّد أفكار غيره؟

أيستطيعُ امرؤ الكشف عن وجدان غيره، والحكمَ عليه؟

احتدَّ عمرُ أكثر، وانتفض في مكانه، بعد أن تذكّر لقاءه بالدّكتور سامر، أخذ يردّد بصوتٍ مسموع:

لا والله! لن ينال منّي ذلك الطّبيب المستفزّ بأسئلته الّتي لا تقلّ عنه استفزازًا، ولن ينال منّي كلّ من في هذه المصحّة، من أطبّاء وممرّضين وعاملين، بعيونهم المحدّقة، وأفكارهم البلهاء، وأحكامهم المطلقة حولي، وعلى أفكاري، بإدراجي ضمن أولئك الّذين يحتاجون الرّاحة! دون أن يعلموا ما هي الرّاحة بالضّبط.

لا أعلمُ كيف استطعْتُ أن أحافظ على هدوئي، وألّا أصفع وجه ذلك الطّبيب المستفزّ والجميع بكلماتي هذه، ليتني استطعتُ وقتها الصّراخ في وجههم جميعًا: كفى، لن تستطيعوا أن تضعوني في قالبكم، لن تستطيعوا أن تقنعوني بأفكاركم البلهاء، لن تتمكنوا من الوصول إلى غاياتكم الّدنيئة. لقد خلقكم الله أناسًا، بينما تصرّون على أن تكونوا ضفادع! تتقافزون هنا وهناك، وتنشرون سمّكم في كلّ مكان، تتباهون بملاسة جلودكم، وقدرتكم دومًا على الاختراق! فإن كان ولا بدّ من هذا كلّه، فإنّي أدعوكم أعزائي (المُتضفدِعين) أن تنغمسوا في سبخة أفكاركم، وأن تغترفوا من كدرها، بدلًا من أن تعيشوا على الغوص في عُباب فكر النّاجحين لتلوّثوها، وتعكّروا جوهرها. اقتحموا عوالم فكركم الخفيّة، المليئة بالفجوات والثّغرات، حاولوا بكلّ ما أوتيتم من طاقة أن تسدّوها،

بدلًا من أن تقحموا أنفسكم في حياة غيركم، باحثين عن ثغراتهم، متصيّدين لهفواتهم!

أخذ عمر يروح ويجيء في هذا الممرّ الضّيّق في غرفته، وكانت أفكاره كما هو، تسير معه، والظّنون تأخذه هنا وهناك.

- تُرى، هل اتّصلت إيلاف كما وعدتني بأستاذ نزيه؟ أم أنّها كانت تجاريني فقط؟ لا، لا يمكن لمثل هذا الوجه الملائكيّ أن يخفي وراءه وجهَ إنسان كاذب، مُخلف للوعد، مُداهن! أنا متأكّد أنّها اقتنعت بكلامي وستساعدني.

هاجمتْه أصوات عقله من جديد...

- "ههه، قلت لك، لا تعط ثقتك لغريب!"

- "هذا ليس جديدًا، فدائمًا ما تتعرّض للخذلان والخيبة، فلا تنتظر!

- "يا مسكين، عليك أن تواصل استسلامك من جديد"

- "اصبرْ يا عمر، قد تصدق وعدها"

- " وقد لا تصدق أبدًا...."

قاطعها بغضبٍ:

- انصرفي عنّي أيّتها الأفكار الملعونة...

- "فلتحاصريه"!

***

(5)

إيـــلاف

في داخل كلّ منّا غيمة، إذا أظلمتْ في وجهنا الدُّنيا، استحالت رماديّةً معتمةً، وإذا زادتْ فيها لياليا حلكةً، مضت تسحُّ دموعًا ثقالًا، علّها تبرّد بها حرّة قلوبنا المقفرة، الّتي زادها جفافًا كثرةُ ما عوّدناها من سكوت وكتمان. وفي كلّ مرّة كنّا نمنع عنها ماء غيمنا، تشكَّلت في كلّ غيمة فينا غيمة، وبكلّ غيمة جديدة غيمة، تبكي على أختها، فاستحالت قلوبنا غيومًا سودًا محمّلة بما فيها من حفظ وكتمان، إلى أن يجيء اليوم الّذي تعجز فيه غيومنا المحمّلة عن الثّبات، فتسحّ كلّ ما فيها فجأة، ولسببٍ غير متوقّع، كأنْ يرتطم أصبعك الصّغير بطرف الباب، أو يقع من يدك كوب الشّاي!

في داخل كلّ منّا غيومٌ لا يشعر بها غيرنا، غيومٌ تلازمنا أينما ذهبنا وأينما حللنا، فلْنلتمسِ الأعذار لبعضنا، ولْنسهم في أن نزيلَ من غيوم غيرنا؛ فكم من

شخصٍ فينا يُجابه وحده غيوم فكره، بأمطارها الغزيرة، دون أن يظهر عليه! وكم من شخصٍ يدفع بيديه المتعبتين سيول همّه الجارفة، ومظهرُه ثابتٌ غير متزعزع! وكم من شخصٍ يُعرف من النّظرة الأولى من ابتسامته، وهو أكثر النّاس حاجة لها! كم من باسطٍ يدهُ للنّاس، وهو أكثر حاجةً لمن يبسِط يده له! وكم من رؤوف يتلهّف لمن يرأف به! وحده الله الأعلم بانعكاسات وجوهنا، وبما تضمره قلوبنا، فلنشعر ببعضنا، ونجابهْ غيوم غيرنا.

من أصعب المشاعر التي قد تتملّكنا هي الشّعور بالذّنب، وأيّ شعور بالذّنب! الشّعور بالذّنب في الوقت الخطأ، في الوقت الّذي لا ينفع فيه النّدم، يتملّكنا الألم والتّحسّر والشّعور بالعجز، ذلك الشّعور الّذي يسرق من حياتك لحظات الأنس والبشر والاستبشار، ذلك الشّعور الّذي قد يلازم صاحبه إلى أبد الآبدين، أو قد يطول أمر تجاوزه، وتبقى إرهاصاته تلاحقك في أيّ لحظة، تجد فيها نفسك وحيدًا، فيعود لك شريط حياتك كاملًا، مشيرًا ببنانه إليك، يسخر من عجزك ومن ذاكرتك العدوّة، الّتي قد تخونك في استرجاع لحظات الفرح والفخر، وتعود لك بأوج قوّتها، لتذكّرك بلحظات قسوتك وعنادك، نتيجة اختياراتك الخاطئة، أو تعنُّتكَ في الوقت الّذي كان عليك

أن تترك الأمر بسلاسة، وتفوّته لتسلم ويسلم من تحبّ، إلّا أنّك آثرت أن تحافظ على قساوة قلبك، وأن تتخلّى عن إنسانيّتك، وأن تتناسى ساعات العمر الجميلة، الّتي عشتها مع أناس تحبّهم ويحبّونك، فتبقى تلوم نفسك على ضياع ما لا يمكن ردّه، ولو أمضيت عمرك كلّه تبحث عنه.

لم تستطع (إيلاف) تلافي أمر فقد صديقتها (تيماء)، قبل عامين، الّتي قضت نحبها إثر جلطة قلبيّة حادّة ومفاجئة، والأدهى من ذلك، أنّ الخلافَ كان تافهًا لا يستحقّ، وقد دام لأكثر من شهر، ولم تتنازل فيه (إيلاف) بعد عدّة محاولات مُضنية من صديقتها (تيماء) لإنهائه! شعرت إيلاف منذ الوقت ذاك، أنّها ربّما لو أتاحت لنفسها فرصة الإنصات، ما كان جرى ما جرى.

بقيت إيلاف تحمّل نفسها ذنبًا أكبر منها، ولهذا، اتّخذتْ على نفسها عهدًا، ألّا تردّ سائلًا لها، وأن تنصت للآخرين، أيًّا كانوا، وأن تحسن الظّنّ بالجميع، فربّما تكون هي فرصة النّجاة الوحيدة لكلّ مسكين قرّر أن يفضفض لها، بل وربّما يكون الله قد أرسلها لتساعدَ مهمومًا، لم يعد يرى من الحياة إلّا لون زئبقها الأسود، وظلامها المدجن.

أصغت إيلاف لصوت خواطر قلبها وعقلها جيّدًا، قرأتها وكأنّها ترغب في أن توجّه لنفسها رسالةً ما، كانت تفكّر أيضًا بذلك الفتى، الّذي أقحمها في عالمه، وأجبرها على اختراق حياته. مرّتْ عليها أكثر من حالة غريبة، ولكن، لم تستوقفها إلّا حالة عمر، حذّرتها الممرّضات من الاستماع للمرضى، والأخذ بأقوالهم على محمل الجدّ، لكنّ حالة عمر اخترقتْ تلابيبَ قلبِها، شعرتْ أنّ في كلامه صدقًا. صحيحٌ أنّهُ بدا مضطربًا، لكنّه أيضًا بدا مقنعًا، منظّمًا في عرض أفكاره، ربّما يكون اضطرابه هذا طبيعيًّا جدًّا، وهو ليس بالأمر الغريب على كلّ من يواجهُ أمرًا كهذا.

رغبةٌ ملحّةٌ كانت تدفعها لتساعدَ ذلك الفتى المسكين. فكّرت في نفسها:

" لن أخسر شيئًا، يكفيني أنّي أحاولُ أن أنقذ أحدهم، وإن كنت مخطئة بشعوري هذا، فلن أخسرَ أيضًا، بل سأكونُ مرتاحة، فيكفيني أنّي حاولتُ."

***

(6)

نزيــه خيــر

أمام مكتبه الخشبيّ، الّذي بدا بالكاد متحمّلًا ما عليه من كراريس وملازم، كان يجلس الأستاذ "نزيه خير"، وهو يرتدي نظّارته ذات العدستين المحدّبتين اللّتين تخفيان معالم وجهه، المحافظ على هيبته. عيناه صغيرتان تضجَّان بالحكمة، تجاعيد وجهه، تروي قصص كفاحه وخبرته، أمّا شفتاه النّحيلتان الرّقيقتان، فكانتا مخفيّتين تمامًا، وكأنّ فمه قد ابتلعها.

ظهر الأستاذ نزيه قابعًا أمام كراريسه، يصحّحُ ما جاء فيها بانهماك واهتمامٍ، محاطًا بأبيات الشِّعر والحكمة، الّتي زيّنت الجدران. فمن خلفه، ظهرت لوحةٌ مكتوبٌ فيها بخطّه الأنيق، قول حافظ إبراهيم:

أَنا البَحرُ في أَحشائِهِ الدُرُّ كامِنٌ

فَهَل سَأَلوا الغَوّاصَ عَن صَدَفاتي

أيّ شخص ينظرُ إليه كان يرى وكأنّ حروف اللُّغة العربيّة قد تشكّلت في قسماته. كان غارقًا في عالمه هذا، يصحّح أحد الدّفاتر، بانهماك، ويسجّل ملاحظاته فيه، لولا رنّة هذا الهاتف المحمول الصّغير القابع على مكتبه، فوق إحدى الكراريس. ألحّت الرّنات عليه لأن يستجيب حالًا، خاصّة أنّ المكالمةَ كانتْ من رقمٍ خاصٍّ

- السَّلام عليكم.

- طاب صباحك... أستاذ نزيه؟

إنّها الممرّضة إيلاف! كانت تنتظر أن يُقال لها: لستُ الأستاذ نزيه الّذي تريدين التّحدّث معه. لتتأكّد من أنّ عمر في مكانه الصّحيح تمامًا الآن. لكنّ الرّدّ جاء على عكس ما تتوقَّعه تمامًا!

- أهلًا بك، كيف يمكنني مساعدتك؟

تلعثمت إيلاف، ونسيتْ للحظة ماذا كانت تريد أن تقول...

- في الحقيقة، أرغب في مقابلتك لأمرٍ هامٍّ، بعد الدّوام، إن كان وقتكم يسمح بذلك.

شعر الأستاذ نزيه، أنّ هنالك أمرًا ضروريًّا، ثمّ أنّه لم يكن معتادًا على أن يكسر بخاطر أحد، خاصّة إن كانت فتاة، فقد تكون بأمسّ الحاجة إلى المساعدة...

- متى يناسبك يا ابنتي؟

- هل يناسبك اليوم، السّاعة الخامسة؟

- نعم يا ابنتي بالتّأكيد، بإمكانك أن تمرّي عليّ اليوم في محلّي "رِواق، للخطّ العربيّ" الواقع في صويلح، المنطقة الصّناعيّة.

انتهت المكالمة، وأخذ الأستاذ نزيه ينظّم الكراريس من حوله، حمل بعضها، ومضى في طريقه للحصّة الخامسة، وجد طالبين ينتظرانه في الخارج.

-يعطيك العافية أستاذ، دعنا نساعدك.

تنافس الطالبان على حمل الكراريس الّتي كان يحمل بعضها، والأخرى الكائنة على المكتب، ومضيا خلفه.

دخل الأستاذ نزيه الصّفّ، بينما كان الطّلاب في هرج ومرج، بدوا كحبَّات (البوشار) الّتي راحت تتناثر من

ذلك القدر، القابعِ فوق عين الغاز، من فعل تلك الحرارة المنبعثة من تحته.

كان عددهم كبيرًا، يزيد عن ثلاثين طالبًا. وما إن رأوا طيف الأستاذ، حتى أخذ كلّ واحد فيهم يأمر الآخر بالسّكوت والانتظام، حتّى صاروا صفّا متّسقًا متآلفًا، وكأنّهم جنود راحوا ينتظمون، في مواقعهم المحدّدة.

ألقى السّلام عليهم، ورتّب السّبّورة، كتب عليها بخطّه الجميل البسملة والعنوان والتّاريخ واليوم، وعلى يسارها كان قد كتب رقم الصّفحة، أمّا على يمينها فراح يكتب أهداف الحصّة، كان منظمًا لأبعد حدّ، وكلّ شيء عنده يجري بحكمة، لعلّ هذا هو السّبب الّذي جعل الطّلاب ينضبطون في حصصه، لم يكن انضباطهم خوفًا، بل على العكس تمامًا، كان هدوؤهم منبعثًا من حنكته وأسلوبه الرّائع في التّدريس، وطريقته الفضلى في التعامل مع كلّ واحد فيهم، حيثُ كان يُشعر كلّ طالب على أنّه الأهمّ، يعطيهم الثّقة، يطمئنهم، ويستوعبهم.

وعلى الرّغم من فارق العمر الكبير بينه وبينهم، إلّا أنّه كان يفهمهم، ويحنّ عليهم، كان يظهر بمثابة الأب الحنون لكلّ واحد في الصّفّ، إلّا أنّ حنانه لم يكن لاغيًا لحزمه الّذي لا بدّ منه بين الحين والآخر، لقد كان وسطيّا

في كلّ شيء، حتى صوته كان مبعثًا للانتباه، إذ كان يأسر بلا مبالغة جميع الطّلّاب، بفضل قدرته وتمكّنه من التّلوين الصّوتيّ، فمرّة تراه يرفع صوته، لينتشلهم من معمعة السّرحان أو الشّرود، ثمّ يخفض من صوته، فيجذبهم أكثر، كمغناطيس راح يجذب كلّ ما حوله.

كان الأستاذ نزيه مربّيًا وأستاذا وأبًا وأخًا وصديقًا لكلّ طالبٍ من طلّابه، الجميع يرى فيه القدوة والمثل الأعلى، وأجمل ما كان يميّزه، أنّه ممثّل بارع، في شرحه، وأسلوبه، والطّلاب من حوله كالمشاهدين المستمتعين، لقد كان قادرًا على تحويل كلّ الدّروس إلى متعة بالغة، فتارّةً تراه ينشد بصوته البهيّ، وننشد نحن من خلفه، فتنطبع القاعدة في أذهاننا، وتارّةً تراه يخترع مشهدًا من خياله، ويؤدّيه أمامنا، لنكتشف في النّهاية، أنّ المشهد هذا كان درس اليوم، فينطبع أيضًا في أذهاننا، ولا ننساه، وتارّة تجده يقصّ علينا قصصًا من وحيِ خياله، قصصًا متنوّعة، منها المحزن ومنها المفرح ومنها المشوّق، ثمّ تراه ببراعة يربط بين هذه القصّة، وبين الدّرس الّذي كان يُريد أن يشرحه، فننفجر ضاحكين، ولسان حالنا يقول: "أستاذ لقد خدعتنا"، أمّا حصص التّعبير فقد كانت متعةً أخرى، فقد كان في كلّ حصّة تعبير، يأتينا بمواضيع يطول النّقاش فيها، مواضيع تحاكي اهتماماتنا،

وتجعلنا في حالة نهمٍ لأن نفضي بكلّ ما بجوفنا، كما كان في كلّ حصّة، يجيد الاستماع لنا، إلى شكوانا، إلى اقتراحاتنا وأمانينا وعبثنا. كنّا نشعر أنّ حصّته تمرّ كمرور البرق، ولولا ذلك الجرس، لما شعرنا بانتهاء وقت الحصّة.

***

(7)

إيـــلاف

ركنتْ إيلاف سيّارتها في هذه الزّقاق، أمام المحلّ الصّغير، ذي اللّافتة الّتي كُتب فيها بخطّ جميل ومزيّن: "متجر رواق- للخطّ العربيّ".

شعرت وهي تنزل من مركبتها بارتباكٍ! صوت الباعة والمتجوّلين في الشّارع يبعث الحياة، والحافلاتُ تتنافسُ على حمل الرّاكبين. تذكّرت إيلاف أيّامها غير البعيدة، حينما كانت تستقلّ هذه الحافلات، للذّهاب إلى جامعتها.

اشتاقت لكلّ لحظات البساطة والرّاحة، لم يكن لديها كسائر زميلاتها وصديقاتها في ذلك الوقت، أيّ همّ غير ماذا ستلبس غدًا، أو عند أيّ (دكتور) ستنزل المادّة، أو كيف ستنتهي من كمّ الاختبارات المتتابعة وضغط الدّراسة! كانت همومًا بسيطة جدًّا، بالمقارنة مع ما أصبحت تسمع فيه الآن، وتراه كلّ يوم في بيئة عملها،

من فقر وعوز وقلّة حيلة، ففي الوقت الّذي أصبحت تشعر فيه بالمسؤوليّة، وتتقاضى أجرًا خاصًّا بها كلّ شهر، كان هنالك العديد من زملائها وزميلاتها في العمل، ممّن ينتظرون أجرهم الزّهيد آخر كلّ شهر لتتشارك به عائلة كاملة.

رأت في طريقها مشرّدين، يفترشون الأرض، ويتّخذون من التّسوّل مهنةً لهم! أشفقت على حال أطفالٍ جار عليهم الزّمن وأهلهم، لتكون أماكنهم الأرصفة والطّرقات، يسألون النّاس بإلحاحٍ وعوزٍ كبير، بدلًا من أن يقضوا وقتهم باللّعب مرحين فرحين!

دنتْ أكثر نحو المحلّ، دلجت بحياء ورهبة. كان الأستاذ نزيه جالسًا أمام مكتبه، والمصحف بين يديه، يقرأ بتجويدٍ آسرٍ، يملأ المكان من حوله روحانيّة عظيمة، لم ترغب إيلاف في أن تقطع سيل هذه الأجواء الإيمانيّة، شعرت وهي مقبلة أنّ الملائكة محتشدة مقبلة معها. لم يتنبّه لقدومها، ولم يسمع وقع قدميها الهادئ، لشدّة ما كان في استغراقه، ممّا جعله ينسى للحظة أنّه جالس في محلّه، ينتظر قدوم فتاة بدت بحاجة ملحّة لأن تراه.

تنحنحت قليلًا، كي يلحظ وجودها، رفع رأسه، فوجدها شاخصة على استحياء أمامه، وقبل أن يرحّب بها، أو يسألها عن حاجتها، سبقته قائلة:

- أستاذي الفاضل، لم أحدّثك عنّي في الهاتف، فضّلت ذلك عند الالتقاء.

ظنّ الأستاذ نزيه أنّ هذه الفتاة قدمت من إحدى الجمعيّات المعنيّة لمساعدة الأيتام والفقراء، ولمّ التّبرّعات، الّتي كان مسؤولًا بدوره عن جمعها من النّاس بشكلٍ دوريٍّ، بغية توزيعها على الفقراء واليتامى والمساكين، ومن غرقوا في بحر الدّيون لعوزهم وقلّة حيلتهم.

- تفضّلي يا ابنتي، أنا أسمعك.

- أنا إيلاف، ممرّضة حديثة في مستشفى روح للصّحّة النّفسيّة، أقام في مصحّتنا، منذ شهرين، فتًى في السّادسة عشرة من عمره، أخبرني أنّك أستاذه، وتعرفه جيّدًا، ومُلِمٌّ بسلوكيّاته...

(عدّل الأستاذ من جلسته، بينما واصلت إيلاف حديثها)

- حرْتُ في أمره، إذ يبدو كلامه مقنعًا، شعرتُ أنّه مظلوم، فأردت التّأكّد منك، لم أشأ أن أخوض في أمره بين زملائي، كوني حديثة التّعيين، ولا أريد أن يعتقدوا بأنّي مشغولة بالقيل والقال، فأخسر عملي.

كان الأستاذ نزيه مطرقًا مصغيًا لها، لم يشأ أن يقاطعها، ولشدّة هدوئه واتّزانه، خُيّل لها أنّه سارحٌ في ملكوت الله، غير مكترث بروايتها. فتوقّفت عن الكلام لبرهةٍ، ثمّ تابعت بارتباك:

- حتّى لا أطيل عليك أكثر، أختصر قولي بأنّني أرغب بالتّأكّد إن كنتم على معرفة بالفتى عمر رشيد.

وقف الأستاذ نزيه مشدوهًا، اتّسعت حدقتا عينيه تعجّبًا!

- أتقصدين ذلك الفتى النّحيل صاحب البشرة السّمراء، والعينين النّاعستين؟ الّذي تتوسط عنقه وحمةٌ كبيرة؟

- نعم، إنّه هو! هذا يعني أنّك على معرفة به تمامًا مثلما أخبرني!

- بالتّأكيد أعرفه.

- هل يمكنك أن تخبرني كيفَ كانتْ طبيعتُه؟

- إنّه حسن الخلق والسّيرة، جميلُ المنطق، فصيحٌ!

قالت إيلاف في عقلها:

" هذا ما رأيتُه فيه أيضًا، لا بدّ أنّهُ صادقٌ في قوله"

- ألم تكنْ تلحظُ عليه أستاذي أيّ تصرّفاتٍ غريبة، أو ميلٍ للعدوانيّة أو الاكتئاب؟

- أبدًا، فهو من خيرة الطّلّاب، الّذين حفروا في القلب حفرةً لطيبته، وجمال خصاله! لكنّي متعجّبٌ يا ابنتي، فكلّ ما أعرفه أنّه انتقل حيث يُكمل أخوه فؤاد دراسته الجامعيّة في أمريكا، ويقيمان عند عمّهما، بعد وفاة والديه، في حادث حريق مؤسف!

- أخبرني أنّ أخويه عامرًا وفؤادًا أجبراه على الإقامة في المصحّة، تهرّبًا وتنصُّلًا من مسؤوليّته.

- يجبُ أن أتأكّد يا ابنتي من هذا الأمر بنفسي. وسأتّصل بك إن علمْتُ شيئًا. انتظري فقط يومين، وأوصلي سلامي لعمر، قولي له: إنّ الله لن يتركك، أعطيه هذا القرآن، وليلزم قراءته، وليكثر من الدّعاء، أخبريه أنّ في انتظاره معلّقة النّابغة الذّبياني، ليعربها كلمةً كلمةً، فقد كان مولعًا بالإعراب، ومهتمًّا بالشّعر والقراءة.

وبحركة سريعة خاطفة، وزّع الأستاذ نزيه نظره في أنحاء مكتبه، أخذ يجمع الكتب المرصوفة فوقه، وضعها في حقيبة جلديّة، عسليّة اللون، إلى جانب القرآن، الّذي وضعه في المقدّمة.

-خذي يا ابنتي هذه الحقيبة، سلّميها لعمر، يجب أن يشغل وقته بالقراءة، فالقراءة غذاء الرّوح، وراحة الضّائق المهموم.

- "لكن..... ".

- أعلم جيّدًا أنّكم تمنعون إعطاء المرضى أيّ أمر، كيلا يعرّضوا أنفسهم لأيّ أذًى، لكنّها مجرّد كتب وقرآن، والقارئ والمرتّل لن يؤذي نفسه، والحياة تجري داخله.

- ليس هذا فقط أستاذي، فأنا أخشى أن يُظَنَّ بي أنّي أُخرجُ أخبارَ النّزلاء في المصحّة.

- من جهتي، فلن أخبر أحدًا بهذا الأمر، كما أنّ عمر ليس من مصلحته أن يشي بك، فيطول مكوثه! أنتِ بدأت بعمل الخير، ويجب أن تستمرّي به.

شعرت إيلاف وهي تهمّ للخروج، بطيف يغمرها بالاطمئنان والسّكينة، وكأنَّ الله قد وضعها لتساعد ذلك

المسكين، المنعزل في همّه. اعتلتْ المركبة، وهي مدركة أنّها أدّتْ أمرًا مهمًّا، تستحقّ أن تكافئ نفسها عليه الآن، بشراء بعض الشوكولاتة. أمّا الأستاذ نزيه، فقد وجد أنّه من الصّعب أن يبقى اليوم في محلّه، ومضى إلى المسجد، ليصلّي المغرب كعادته جماعةً، ثمّ يعود إلى البيت الّذي كان يعتبره فقط مكانًا للنّوم، فقد كان يعيش وحده، بعد موت زوجته، الّتي رفض أن يستبدل بها زوجةً أخرى، كان دائمًا ما يقول، في كلّ مرّة يحاول البعض أن يقنعه بفكرة الزّواج من امرأة تسنده في كبره، خاصّة أنّه لم يكن لديه أبناء، فزوجته كانت عقيم:

"لم أتزوّج على زوجتي في حياتها، فكيف أتزوّج عليها بعد وفاتها؟

***

(8)

فـــؤاد

على تلك الأرض الخضراء، كان فؤاد مستلقيًا، واضعًا يديه تحت رأسه، مستبشرًا يناظر السّماء، وانعكاس الشَّمس يرسمُ في وجهه خيوطًا ذهبيّةً وضّاءة، يُخيّل إلى كلّ من يراه أنّه الابن لهذه الأرض الواسعة الخضراء، كانت ابتسامته الهويّة التي يُعرّف بها عن نفسه، أمام الأشخاص والجمادات وكلّ الكائنات والموجودات.

ظهر في هذه الأرض، كمعدنٍ نفيسٍ، وسط منجمٍ مليءٍ بالفحم الأسود، بدا كدرّة بمظهرها اللافت المختلف، فكلّ من يراها مجبرٌ على التّمعّن فيها، وملاحظة اختلافها وتفرّدها. ظهر فؤاد، كعادته البهيّة، وكأنّه على معزل عن كلّ هموم الدّنيا، ومصاعبها ومشقّاتها، كلّ شيء من حوله جاء بالألوان، الجوّ من حوله صفوٌ غير معكّر، والشّمس قد تعهّدت أن تبقى مشرقة داخله وخارجه، وعيناه توحيان بالسّلام.

باختصار، كان يظهر وكأنّه يحمل الحياة بين يديه، ويتنشَّق الفرح والسّرور، مظهره كان مختلفًا عن بقيّة زملائه الأطبّاء، الّذين يتشابهون في جدّيتهم ومظهرهم الثّابت نوعًا ما، كان يبدو أقرب إلى الفنّان، الّذي راح يرسم بريشته أجمل اللّوحات، الزّاخرة بالألوان والحياة.

فؤاد ذلك الشّابّ الطّموح الذّكيّ المتفائل، والّذي يحظى إلى جانب جمال فكره وعقله بجمال ملامحه، استطاع في فترة وجيزة جدًّا، وفي بلدٍ غير بلده، ومع أناسٍ ليسوا ناسه، وبين أهل ليسوا بأهله، أن يكوّن علاقاتٍ وصداقاتٍ صحّيّة، كان قادرًا على أن يفرض احترامه على الجميع، العرب وغير العرب، في هذه الجامعة الّتي تضمّ طلّابا من كلّ مكان. حتّى العائلة الّتي كان يقيم عندها، استطاع بفترة قصيرة جدًّا أن يكسب ودّها، فقد كانت الجدّة (ليلي) في كلّ صباحٍ، تنتظره بكأس حليب طازجٍ، وإفطارٍ إنجليزيّ معتبر، قبل أن يخرج إلى دوامه، لعلّه كان محظوظًا بذلك أيضًا، كانت تدخل عليه حجرته، وهو قابع بين أوراقه وأبحاثه، أمام جهازه الّذي ملّت أزراره لكثرة ما كانت أصابعه تطرق عليها. فتتفقّده بكوب قهوة أو كأس ماء أو شطيرة، كان فؤاد يشفق عليها، فظهرها المقوّس الحاني كان يروي قصص كدّها وتعبها، فيفزُّ من مقعده، قائلا:

-لا تتعبي نفسك يا جدّة، إذا احتجت أمرًا، سأخرج من غرفتي وأقوم به، والله إنّك والجدّ (جونسان) قد أخجلتماني بلطفكما واحتوائكما لي.

-بقدومك يا دكتور فؤاد، حلّ الرّبيع في بيتنا الصّغير، بعد أن كان مقفرًا خاليًا من الحياة. وأنا وزوجي نستردّ عافيتنا برعايتك.

***

(9)

إيـــلاف

طوَّقني السَّحَرُ بنسماته العذبة، وأحاطني ببركاته المتواصلة، أوفد لي شُهب ضياه، لأودّع نومي الهانئ، وأستيقظ معلنة بداية يوم جديد جميل، مليء بالتَّفاؤل والأمل والتّجديد. يمسك بيدي على عادته في كلّ صباح، يشعر بأنفاسي اللاهثة شوقًا، ويرى لمعة عينيّ ابتهاجًا وحماسًا. يأخذني إلى فضاءات رحبة شاسعة من الأحلام والرّجاءات بالتبريك والتّوفيق. أصلّي الفجر وأقرأ وردي، أعدّ فطوري وقهوتي بكلّ حبّ، أوزّع الابتسامات بيني وبين الموجودات من حولي، وأشرع في الغوص في مخطّطاتي لهذا اليوم الجديد، أغمض عينيّ وأدعو أن يسير على ما أبتغي وأريد، أستمتع بكلّ رشفة قهوة، أشعر بها تسري في كلّ شريان في جسمي، لتبثّ فيه النّشاط والحبّ والامتنان. أنتقي لباسي بكلّ

عناية، أضع الكحل في عيني وأتجمّل، فشعاري على الدّوم: اذهب إلى عملك كأنّك في عيد.

اخترقتني نظرات أمّي، وأنا في لحظة ابتسام خفيّ، لم تستطع أن تخفي فضولها اللّذيذ...

- تبدين بحالٍ أفضلَ اليوم يا إيلاف، ما القصّة؟

كنْتُ أعلم أنّ سبب هذا الفرح يعود إلى أنّني وفيتُ بعهدي، وأمّا الآن، فسأترك القدر يتصرّف.

- فيم أنت شاردة، يا إيلاف؟ ألم تسمعي سؤالي؟

- عذرًا أمّي، لا يوجد شيءٌ جديد، سأتأخّر عن عملي، يجب أن أخرج الآن، أراك مساءً يا أجمل أمّ.

- مهلًا، لم تخبريني شيئًا، وما هذه الحقيبة القديمة الّتي في يدك؟ من أين أتيت بها؟ حتّى ذوقك تبدّل!

- هذه فقط للكتب يا أمّي، حتّى أقرأ في وقت فراغي. سأزوّدك بتقريري اليوميّ المفصّل مساءً، إلى اللِّقاء....

غادرت إيلاف البيت، وتبعتها عينا أمّها بفضولٍ، إلى حيث ولّت.

"ليتني أعرفُ بم تفكّر هذه المحتالة!" قالت في نفسها. بينما كان الأب "عليّ" يرقب الوضع، من خلف الجريدة الّتي تغطّي وجهه، متظاهرًا بعدم الانتباه والاهتمام.

بدت إيلاف متحمّسة جدًّا، ترغب في أن تسابق الرّيح، لتصل إلى عملها، تفكّر في عمر المسكين، الّذي لابدّ أنّه قلقٌ لتغيّبها ليومين إضافيّين، فقد كان ينتظر بالتّأكيد دخولها عليه الأحد أو الاثنين، لكنّها كانت بحاجة لأن تأخذ قرارها، خاصّة أنّ الجميع كان معارضًا لها، حتّى خطيبها خالد، نصحها بعدم التّدخّل، وكان رأيه من رأي أمّها أيضًا.

كلّ هذا لا يهمّ الآن، فما كنت أريد أن أقنع نفسي بعدم جدواه كان صحيحًا، فهذا الأستاذ لا يمكنه الكذب، وجهه الوقور، وصوته العذب في التّرتيل، وثقته ورأيه بعمر، كلّها أمور لا يمكنها أن تلغي قول عمر وصدقه. عليّ فقط أن أصل سريعًا، وأبشّر عمر بأنّ الأستاذ (نزيه) سيقف إلى جانبه، خاصّة بعد أن اكتشف أنّ عامرًا غير صادق في ادّعائه، بأنّ عمر سافر مع أخيه فؤاد ليقيم عند عمّه. كما أنّ عمر أخبرني أنّ فؤادًا يقيم عند عائلة أمريكيّة، وليس له عمّ في أمريكا، بل في فلسطين!

ركنت إيلاف سيّارتها، ترجّلت منها، وراحت تجري بخطوات سريعة، ومضتْ لتضع حقيبتها، وترتدي مريولها الأبيض، التقت بزميلتها "منى" الّتي أخذت تتفحّصها بنظراتها.

- يبدو أنّك وخطيبك قد اتّفقتما أخيرًا على تحديد موعد الزّفاف! تبدين بحال أفضل، بشّري! هل نحن مدعوّون؟

- لا شيء من هذا أبدًا، بالتّأكيد سأبلغكم بموعد زفافي، في حينه.

- إذًا، ما سرّ فرحك هذا، وانبساط وجهك؟

- لا شيء يا منى، إنّ الجوّ جميل اليوم، وكفيل أن يحسّن من مزاجنا، دعيني الآن أبدأ عملي، وأتابع أحوال المرضى وإفطارهم.

- حماسك هذا سيتبدّل، كلّنا كنّا نبدي حماسًا بالغًا، في بداية مشوار عملنا، لكنّ الوضع الآن قد تبدّل؛ فالأيّام في هذه المصحّة تشابهت، ولا شيء يدعو للحماس أو التّفاؤل. (ضحكت ساخرة)

- هذا شأنك، ليس من الضّروريّ أن تكوني مثلي، أمّا أنا فقد تأخّرت، اعذريني، عليّ المضيّ الآن، أراك لاحقًا.

خرجتْ إيلاف وهي تصارع الأفكار السّلبية، وتحاول قدر الإمكان الإغلاق في وجهها.

"يجب أن أحافظ على إيجابيّتي، لن أسمح لأيّ مخلوق أن يعكّر مزاجي؛ فهنالك من ينتظر كلّ صباح أن أقابله بابتسامة تجلو همّه."

بدت إيلاف كنحلة تطير من غرفة لغرفة، تنشر رحيقها في كلّ مكان تحلّ فيه، وكفراشة ترفرف بألوانها البهيّة، تنشر فرحًا وأملًا، على قسمات أولئك البريئين، الّذين حاربتهم الحياة كثيرًا، فجيءَ بهم هنا إلى هذا المكان الّذي يجمعهم ويجمع آهاتهم وهمومهم، فمنهم من تخلّى عنهم ذووهم، لأعوامٍ كثيرةٍ، ومنهم من فقدوا عزيزًا عليهم، فسيطرت الأحزان على قلوبهم، حتّى فقدوها حزنًا وكمدًا، ومنهم من جاؤوا إلى الحياة هكذا، بمرض عقليّ، ومنهم من وقعوا ضحيّة رفاق سوء، كانوا السّبب في إدمانهم على المخدّرات، الّتي أتلفت عقلهم. مضتْ إيلاف في طريقها بين المرضى، تمنحهم من حبّها واهتمامها، حتّى وصل بها المطاف أخيرًا، إلى حيث تلك الغرفة، الّتي تقع في آخر الممرّ.

كان عمر في هذا الوقت، مستلقيًا في سريره على ظهره، واضعًا ذراعيه تحتَ رأسِه، عازمًا على تغيير

واقعه بسرعة، يفكّر بطريقة يخرج فيها من هذا المكان، قبل أن يفقدوه عقله! فأمر عدم التزامه بأخذ الدّواء، وإخفائه في جيب بنطاله، ثمّ إلقائه في المرحاض كلّ يوم، لا بدّ أن يكشف، وحينها، سيجبرونه على تناول الدّواء بطريقتهم، بل وربّما يجبرونه على الجلسات الكهربائيّة، أو الحقن المؤذية!

دخلتْ إيلاف على عمر، وهو غارقٌ في أفكاره.

- صباح الخير عمر، لقد حان وقت الإفطار، أحضرت لك إفطارًا شهيًّا، وهديّة!

- انتظرتك كثيرًا، خشيتُ أن تخذليني، لا تقولي أنّك لم تحدّثي الأستاذ نزيه!

- أخفض من صوتك، أمرك يجب أن يبقى مخفيًّا، هذا إن كنت تريد الخروج.

- حسنًا.

- التقيت البارحة بالأستاذ نزيه، حدّثني عنك كثيرًا، وعن حسن طباعك وأخلاقك.

عدّل عمر من جلسته، وهتف باهتمام:

- حسنًا! وماذا بعد؟

- وعدني أنّه سيساعدك، وأعطاني هذه الحقيبة، دعاني إلى أن أوصيك بالقراءة والالتزام بالصّلاة والدّعاء، إلى حين إيجاد طريقة لمساعدتك.

بزغت عينا عمر فرحًا، ولم يعدْ قلبه قادرًا على تهدئة دقّاته.

- شكرا لك، لن أنسى صنيعك هذا ما حييت.

- أخبرني الآن، كيف كان لقاؤك مع الدّكتور المعالج سامر أمس؟

- في الحقيقة، إنّ هذا الطّبيب كاد يفقدني صوابي! إنّه فنّان في استفزازه!

- اصبر يا عمر، ولا تكن سهل الاستفزاز. نحتاج أن تكون هادئًا، حتّى تخرج من هنا.

- لا تقلقي، سأحافظ على هدوئي...

- عظيم! والآن، تناول إفطارك يا عمر، وخذ حبّة الدّواء، لا تقلق، هذه الحبّة فقط من شأنها الحفاظ على هدوئك، وأنا متأكّدة أنّك على ما يرام.

طأطأ عمر رأسه مبديًا موافقته.

- والآن عليّ الخروج، لديّ عمل كثير، سآتي وأراك اليوم، كن بخير.

خرجت إيلاف من الغرفة وابتسامتها على وجهها، كانت فرِحة جدًّا، لأنّها استطاعت أن تفي بالعهد، وتساعد هذا المسكين قليلًا. أمّا عمر فقد تناول إفطاره بشراهة غير معتادة، شعر أنّه لم يأكل منذ دهر! أمّا بشأن وعده الصّغير، فقد آثر عدم الالتزام به، فهو يرفض حتى أن يتقبّل فكرة الرّاحة المزعومة الّتي يريدون إيصالها إليه.

أمسك حبّة الدّواء ودسَّها من جديد في جيب بنطاله، وشرب كوب الماء بالكامل، وهو يوجّه رسالته لإيلاف:
- سامحيني، لم أبادلك الوفاء بالوعد.

***

(10)

نـزيــه خيــر

الله أكبر الله أكبر

أشهد أنَّ لا إله إلا الله

أشهد أنَّ محمدًا رسول الله

حيّ على الصّلاة حيّ على الصّلاة

حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله

وقْعُ آذان الفجر هذا اليوم غيرُ عاديّ، استطاع أن يجمع كلًّا من الأستاذ نزيه وإيلاف وعامر وعمر وفؤاد! اتّحدت الألسن على أن تلهج بترداده، فاجتمعت القلوب، وإن كان اجتماعُ بعضِها على غير اتّفاق! فها هو الأستاذ

نزيه، والمسبحة بيده، بعد أن انتهى من أداء صلاة الفجر جماعة في المسجد، وعقله ما زال مشغولًا بعمر الّذي لا يدري كيف يقضّي وقته الآن، في تلك المصحَّة الّتي أجبر على الإقامة فيها، وبعد أن مضى على وفاة والديه أقلّ من شهر! لقد اجتمع عليه من يفترض أن يكونا الأقرب إليه، وفي عزّ محنته!

قال الأستاذ نزيه في نفسه:

"كيف هان عليهما كلّ هذا؟ صحيح أنّ العلاج النّفسيّ ليس عيبًا، لكن، أنا متأكّد أنّ عمر فقط كان يحتاج الوقت ليخرج من حزنه أو يعتاد عليه. لا يمكن لمثل هذا الفتى الحاذق النّبيه المتفوّق، حلو الحجّة والمنطق، أن يكون مريضًا نفسيًّا، أو أن يكون مكانه في مصحَّةٍ نفسيّة، وإجبارًا! حتّى لو أنّه بالفعل يحتاج إلى علاج نفسيّ، فقد كان من الأولى أن يتابع مع معالج نفسيّ، لا أن يقيم في مشفى، فتسوء حالته أكثر، وهو بعيد عن أخوته وحياته الطّبيعيّة ودراسته وأصدقائه!"

وها هي إيلاف، ما زالت في ملابس الصّلاة، بعد أن انتهت من صلاة الفجر، وجلستْ تفكّر في عمر المسكين، الّذي يواجه الآن ما هو أكبر من عمره، بعد أن

فقد مصدر الأمان والحبّ، وتكالبت عليه آلام الفقد والظّلم والقهر، من أقرب النّاس إليه.

وها هو عامر بعد أن جافاه النّوم تمامًا، قد قام على صوت آذان الفجر قلقًا مرتابًا، تحاصره أشباح أخيه عمر، من كلّ مكان، وتقحم أصابع الاتّهام واللّوم في وجهه، ولسان حالها يقول:

"أهكذا هي الأخوّة يا أخي؟ أهذا هو الحلّ المناسب في نظرك أنت وفؤاد؟ أستطاعت دلال أن تؤثّر فيكما كلّ هذا التّأثير، لتجبراني على الإقامة في هذا المكان؟ كيف هنتُ عليكما يا أخي؟" فيُقاطع هذهِ الأشباحَ وجهُ دلال بعينيها النّاعستين، وقد أفاقت من نومها، فغمرت زوجَها وهي تحاول أن تطرد أشباح الهمّ عنه وتنسيه فعله...

حتّى فؤاد، اجتمع في ذات الوقت، على اختلاف التّوقيت بين أمريكا والأردنّ، إلّا أنّه كان في نفس هذا الوقت، من السّاعة التاسعة والنّصف ليلًا، يفكّر في حال أخيه عمر، بعد أن اتّفق وأخاه عامرًا على أن يضعاه في مصحّة نفسيّة، بدل أن يأتي به إلى هنا، أو يقنع أخاه عامرًا على أن يقيم عنده..

واسى فؤاد نفسه قليلًا، ليبعد اللّوم عنه:

"لكنّ، الأمور كانت صعبةً، وهذا هو الحلّ الوحيد والأنسب! لا أريد أن ألوم نفسي وأجلدها، إنّه بالمكان الأنسب، علّه يتعافى وينسى ألم الفقد، خاصّة أنّه شهد وفاة أمّي وأبي أمام عينيه، وهو الأصغر والأكثر تعلّقًا، سأحدّث عامرًا في ما بعد، وأطمئنّ على حاله، فالوقت ما زال غير مناسب الآن للاتّصال"

وها هو عمرُ قابعٌ بكلّ ما فيه، يفكّر في حلٍّ يُخرجُه من ظلماتِ هذا المكان، وقد ضاقت به الأحوال، لولا بصيص الأمل ذاك الّذي تراءى له بفضل الممرّضة إيلاف الّتي أخبرت أستاذه عنه، وبدوره تعهّد بإيجاد حلّ له لإخراجه.

***

شاءت إرادة الله أن يتنفّس الصّبح، وينبلج ضوؤه، بعد أنْ مرّ اليومان الماضيان بثقل شديد، فقد كان الأستاذ نزيه في صراعٍ شديدٍ مع نفسه، مضطربًا غاضبًا، مملوءًا عقلُه بصورة عمر، صحيح أنّه لم يرزق بطفل، ولم يجرّب عاطفة الأبوّة الحقيقيّة، إلّا أنّه كان يرى نفسه دائمًا كما كان يراه كلّ شخصٍ يتعامل معه، أبًا حنونًا مسؤولًا عن كلّ طالبٍ، وكيف لو كان هذا الطَّالب هو عمر، الفتى المهذّب النّبيه، الّذي لطالما شاركه أفكاره

وأحلامه؟.هل يبقى بعيدًا عن الموضوع؟ هل ينأى بنفسه عن عمرَ وحياته؟ هل يتخلّى عن إنسانيّته وأبوّته لهذا الفتى المقهور؟

"إنْ تخلّيتُ عن عمرَ الآنَ، فسأكون ناقضًا لذلك العهد، الّذي كان بيني وبين والديهِ المرحومينِ، وإن لم يصرّحا به بشكلٍ مباشرٍ، ولكن، لا أحدَ ينكرُ أنّ كلّ معلّم يستطيعُ أن يرى بقلبه، حرصَ كلّ والد ووالدة على ذلك الابن، الّذي أصبح بعهدة معلّميه، وبيته الثّاني المدرسة."

لم تكن علاقة الأستاذ نزيه بعمر عاديّة، فقد كانت الزيارة بينه وبين والد عمر متبادلة، والعلاقة قويّة؛ فأبو عمر كان من أكثر المتبرّعين للجمعيّات الخيريّة الّتي كان مسؤولا عنها.

"لكن، ماذا لو رفض عامر التّدخّل؟ ماذا لو ردّني خائبًا؟ ماذا لو استنكر سؤالي عن عمر؟ كلّ هذا لن يهمّني، فكلّ ما يهمّني هو أن أساعد هذا الفتى المسكين".

***

(11)

عُــمَــر

أيَّامٌ ثقيلةٌ، وأوقاتٌ عصيبةٌ، قضاها عمرُ وحدَهُ، بين أربعةِ جدرانٍ، داخل مصحّة نفسيّة، كلّ من فيها يتّهمه بالجنون، ويتعامل معه على أنّه مريضٌ نفسيٌّ! لا شيء معه غيرَ الذّكرياتِ الموجعة، منفردٌ في عزلته هنا وغريب! كلّ شيء من حوله تآمرَ عليه، حتّى عقارب السّاعة سخرتْ منه ومن عجزه! سمع صوتها:

- أيّها المسكين، أنت الآن تمضي وقتك وحيدًا غريبًا، لا أنيس لك ولا صديق، تشكو جرحًا لن يندمل، تشكو ألم الفقد والحنين، تبكي أمّك وأباك، بعد أن أصبحا جثّة محترقة متفحّمة، في ذلك الحادث اللّعين.

قال عمر بلهجة هائة، كمن يريد أن يثبت أنّه غير آبهٍ، وقال مخاطبًا نفسه:

- إنّهما الآن بسلام، لقد ارتاحا من زيف هذه الحياة وخداعها، فهنيئًا لهما.

واصلتْ أفكاره دورَها في استفزازه:

- هنيئًا لهما؟! علام؟! لقد غادرا الدّنيا رمادًا أسود، وتركا من خلفهما أبناءهم الثّلاثة مشتّتين متفرّقين.

وقف محتدًّا، وقال في غضبٍ:

- لعنة الله على عامر وفؤاد، هما السّبب، ولن أرتاح إلّا عندما أراهما صاغرينِ ذليلينِ منكسرينِ أمامي، على كلّ ما فعلاه بي من سوءٍ وجحودٍ ونكرانٍ، لكّنها الأيّام دولٌ، لن تبقى على حالٍ، وسيلقى الظّالمونَ حسابهم، عاجلًا غير آجلٍ، وحينها فقط، ستزقزق العصافير داخلي بأعذب الألحان، وستغدو أيّامي كلّها ربوعًا ورياحين، وستصبح أيّامهم، بإذن الله جحيمًا بجحيم!

- لكنّهما أخواك!

- لا إخوة لي.

- لن تستطيع أن تلغي رابطة الدّم الواحد.

- كفاكِ هراءً أيَّتُها الأفكار المجنونة، ابتعدي عنّي، غادري رأسي سريعًا، لا أريد أن أسمع عبارة " هما أخواك" مرّة أخرى... كفى!

فُتِحَ البابُ على مصراعيه، بينما كان عمر منهمكًا في صراعه ونفسه، أطلّ وجه "مرزوق" المستخدم المناوب، الّذي جاء ليبدّل فراش السّرير، ويتأكَّد من نظافة الغرفة؛ اربدّ وجه عمر عن كلّه، واستشاط غضبًا.

- اسمع ياهذا، أبلغ من في الخارج أنّ المكوثَ قد طال بعمرَ، في هذا المكان اللّعين، فليخرجوني حالًا، وإلّا سأقلبُ هذه المصحّة رأسًا على عقب، وسينال غضبي الجميع، أفاعيلكم هذه الّتي تدّعون أنّها سبيل الشّفاء، ستوصلني إلى الجنون، وعندها فقط ستنالكم لعنة هذا الجنون... هيّا، اخرج وأبلغ من هم معنيُّون بالأمر، وإلّا، سأريكم والله من أكون!

صراخُ عمر، في هذا الوقت، كان كفيلًا بأن يجعل الممرّضين والممرّضات المتجمهرينَ في الممرّ، يتجمّعون حوله، فما كان منهم إلّا أن أمسكوه، في محاولة سريعة لتثبيته، أرغموه على الجلوس، على السّرير، وقاموا بحقنه، ثمّ مضَوْا في طريقهم، موصدين البابَ من خلفهم، تاركين فيه جراحًا لا تندمل، وأوجاعًا لا تُحتمل. بينما أسرع الدّكتور سامر المشرف على حالته بالاتّصال بعامر، ليحضر حالًا، ويلمَّ بتطوّر حالة أخيه.

كان عامر في هذه الأثناء، في مكتبه، يحاولُ بكلّ ما أوتيَ من قوّة، أن يطردَ شبحَ عمر من عقله، دون أن يدري، أنّ شبح عمرَ قد جاءه يبحث عنه، في مكان عمله! بدا عامرٌ قلقًا مضطّربًا، وهو يمسك بيديه المرتجفتين جهازه المحمول، الّذي راح ينعق بصوته اللّامرغوب، ويلحّ عليه ليستجيب، كان عامر خائفًا من الكلام الّذي سيسمعه، من الطّبيب المشرف على حالة أخيه، تمنّى للحظة لو أنّه معزولٌ عن العالم، وعن وسائل التّواصل والاتّصال والنّاس أجمعين، تمنّى لو كان مجرّد صخرةٍ صمّاء. واصل الرّنين نعيقه، حتّى استسلم عامرٌ، وردّ متأتئًا:

- أهلا دكتور سامر.

- السّيّد عامر، طاب مساؤك، أحدّثك الآن، لأعلمك عن حالة أخيك عمر.

- كيف أصبح الآن؟

- أفضّل حضورك الآن، لمناقشة حالته بشكلٍ أفضل.

هاجمه القلق، علا صوت دقّات قلبه المضطّربة، أخذ يبحث عن الأجوبة، عن تلك الأسئلة اللّاهثة اللّاهبة: ترى ما الّذي جرى مع عمر؟ وما الّذي يريد أن يخبرني

به الطّبيب؟ أيًّا كان الأمر، فأنا لن أسمح بمجيئه إلى بيتي، أرفضُ أن يقيم معنا، أخاف أن يؤذي ابنتي سارة، أن يجعل منها وسيلة لقهري وإدماء قلبي. حتّى لو طلبوا تجديد فترة الإقامة لعمر، فلن أمانع، حتّى لو دفعْتُ لهم كلّ ما لديّ من مالٍ.

وصلَ عامرٌ المستشفى، توجّه إلى حيث مكتب الدّكتور سامر السّفارينيّ، قابله الطّبيب بابتسامة يشوبها التَّوتُّر. أشار إليه بالجلوس، جلس عامرٌ وهو قلقٌ أشدَّ القلق ممّا سيُقال له الآن.

- كيف أصبحت حال عمر؟ هل حان وقت خروجه؟

- سيّد عامر، اعذرني، إنّ حال أخيك عمر أصبحت تسوء أكثر.

- كيف ذلك؟ ماذا تفعلون معه في هذا المشفى؟ ألا تكفيكم المبالغ الكبيرة الّتي أدفعها لكم من أجل عمر؟! أليس هنا حتّى يتحسّن بدلًا من أن يسوء؟

- يبدو أنّ عمرَ لا يلتزم بما نعطيه من دواء، أو أنّ جسمه لا يستجيب للعلاج، أو أنّه غير قادر على تجاوز محنته، لقد مرّ بصدمة صعبة جدًّا، لا تتوقّع أن يخرج من هذه الأزمة بهذه السّهولة والبساطة.

- وما الحلّ الآن؟ هل تريدون فقط تمديد فترة إقامته؟

- في الواقع، ليس هذا كافيًا. لقد استدعيتك حتّى أخبرك أنّ عمرَ يمرّ بانتكاسة، فهو يعيش الآن في هلاوس، وضلالات سمعيّة وبصريّة، وقد ازدادت عدوانيّته بشكل كبير، سلوكه صار مضطربًا، وبات يعتدي بالضّرب والتّكسير لأيّ شيء من حوله، دون هدفٍ واضحٍ، حاولَ اليوم التّهجّم على أحد المراسلين، ولولا لطف الله لقضى عليه.

- أنا متفاجئ جدًّا من كلامك، لم أعهد عمر بهذه العدوانيّة، فهو هادئٌ جدًّا بالعادة!

- سيّدي، يجب أن تعلمَ أنّ هذا كلّه -من النّاحية العلميّة- يعود إلى التّغيّرات في الموصلات الكيميائيّة في الدّماغ، والنّاجمة عن تغيّرات في ظروف حياته الاجتماعيّة، بعد أن فقد والديه، وأصبح يقيم هنا في المصحَّة.

- وما الحلّ الآن؟ هل لمثل حالته هذه شفاء؟

- إنّ حبوب (الكلوزابين) وحدها لن تفي بالغرض، فأنا أنصح بأن نتعامل معه في هذه الفترة بحقن (الرّيسبردال كونستا) طويلة المفعول، كأن يُعطى كلّ أسبوعين في

البداية، وبجرعات مختلفة، خاصّة أنّ عمر غير مقتنع بحاجته للعلاج، ورافض لهذا تمامًا.

- ماذا تنتظرون؟ أنتم الأطبّاء، عليكم المباشرة بعملكم.

- أردت فقط أن أُطلعك على خطّة العلاج، وأن تعلم أنّ لهذه الحقن بعض الأعراض الجانبيّة غير المرغوب فيها، من تهيّج وصداع قد يصل في المريض إلى الإغماء، والهذيان، بالإضافة إلى اضطرابات في العين، وزيادة في الوزن....

قاطعه عامر قائلًا:

- لا بأس، المهمّ أن يبقى هنا، فأنا لستُ مستعدًّا لأن يقيم معنا في البيت.

- لا تقلق سيّدي، فعمرُ سيبقى هنا، تحت عنايتنا وحفظنا، فهذا بيته الثّاني.

خرج عامرٌ، وهو يشعر أنّ حملًا ثقيلًا على قلبه، قد ألقى به جانبًا، وراح يتنفّس بشكلٍ أفضل، سار وهو يكلّم نفسه، ويردّد قائلا:

"الحمدلله على كلّ حال، اللّهمّ احفظ لي عائلتي، اللّهمّ لا تفجعني بابنتي، ولا تجعل بلائي فيها، فهي قرّة عيني، وملاذي ومسرّتي."

***

القســـم الثَّانـــي

"لقدْ أمضيتُ حياتي كلَّها في الدّفاع عن أشياء لن أحظى بها أبدًا، أجلسُ الآن وحيدًا، أمشّط شعر الخيبة، وأغنّي لها"

- فيودور دوستويفسكي

(12)

عُــمَــر

أبعثُ من روحي طاقاتٍ وطاقاتٍ، لتحرّك قافلتي الشَّاردة، وتمضي بي حيثُ تقيم الأحلام، عثراتٌ فوقوفٌ فسقوطٌ فألمٌ! في كلّ مرّة، ألملمُ بقايا روحي المتناثرة، لأعودَ أدراجي مرّة أخرى، وبيديّ المتهالكتين، أزيلُ بقايا رمالٍ، خالطتْ ثوبي، لتجعل منه رماديًّا.

لا شيء يدعو للتَّفاؤل إلى الآن. لا بأس، لا بدّ أنَّني سأصل يومًا، إلى ذاك الطَّريق الملتفّ بأشجار خضراء وارفة الظّلال، الَّذي يفوح عبقًا وطيبًا، ذاك الطَّريق المليء بالألوان.

ها أنا أنهي ممرًّا طويلًا، لأدخل في ممرٍّ أطول وأطول، وكأنَّ الطَّريق يُشير لي من بعيد، فاتحًا ذراعيه ليحتضنني، فأركض وأركض، حتّى أدخلَ في سرابٍ، وأغرقَ في سرابٍ. لا بدّ أنَّ خطواتي كانت حمقاء! لا باس، لا بأس، فلا شيءَ إلى الآن جديد، ولعلّ الفرج قريب.

أكاد ألمحُ من بعيد بريق ضوءٍ يسير، لا بدّ أنَّه الأمل، تاهت أفكاري، أخذتُ ألملمها، وأجعلها قريبة من صدري. عدْتُ إلى رشدي، أو ربما ظننت ذلك. ها أنا أمشي نحو ذاك البريق، أشعر بالتَّعب لكنّ الوصول أهمّ، وسأصل يومًا.

تمضي أيّامٌ وشهورٌ، وتخبو أحلامٌ وتزولُ، قد أصل يومًا، ما زلت أمشي نحو ذلك البريق. نعم أراه جيّدًا، لكنَّه بعيد بعيد. ربّما أصل يومًا، أو ربَّما أصل طريقًا آخر، لستُ أدري.

أشعرُ أنّ خطوط الشَّارع من تحتي، باتت تبهت شيئا فشيئا. حتّى تلك الخطوات السّابقة لأناس قبلي بدأت تختفي! من سيرشدني إلى الطّريق؟ لا بأس، قد أصل أو لا أصل، ويكفيني شرف المحاولة.

أشعر بنسمات تداعب جبهتي. تزداد أكثر فأكثر، لتصبح ريحًا تعيق من سيري! تثير الغبار من حولي، فتملأ عينيّ الذّابلتين، فأسارع لحجبهما، لأصعق فجأة بتصاريف الزّمان على جلدي! أنظر إليهما جيّدًا، أحدّق أكثر! أنفضُ الغبار عن عينيّ، علّي أغيّر من تلك الحقيقة الصّعبة! أستسلم قليلًا، أخضع على ما يحملني، فأجد عظام رجلي قد تأذّت، لا بدّ أنّ لعبة الزّمان هي السّبب.

أقوم جاهدًا، لأكمل الطَّريق، وأنا أنظر من حولي، ألمح جثَّثا وعظامًا. تخنقني الرّائحة، أعتاد عليها، والطّريق ما زالَ في أوّله. لكنّي ما زلتُ أدعو أن أصل.

ها أنا أقتربُ أخيرًا. بضع خطوات للوصول. نعم، الآن صدقت يا درويش! "على هذه الأرض ما يستحقّ الحياة" لا بدَّ أنَّي قادم للحياة. ها قد وصلت! يا لفرحتي، وشغفي لما هو موجود. أدخل بخطًى واثقة، مودِّعًا طريقًا صعبًا طويلًا ومهلكًا، لأدخل عالمًا جديدًا.

أثرُ الضّوء بدا لي مفاجئًا، انخفضْتُ متكئًا على عصاي، فضحكْتُ وضحكْتُ حتّى دمعتْ عيناي! إنّه ضوءٌ منعكسٌ من مرآة مجهول، أضاع طريقه، فسقطت مرآته، وعكست من أحلامه الورديّة وهمًا لي، ووهمًا لكثيرين أعادوا قصّته، لكن، بنهاية مفتوحة خادعة.

خلعتُ ساعتي، ووضعْتُها إلى جانبي، ورقدْتُ بسلام. أيّام قليلة على تحلّل جسدي، الّذي كنت أعتدّ به كثيرًا، وبقاء عظامي سمادًا لتراب تذروه الرّياح، ولا شيء يبقى إلّا ساعة الزمان. فهل أنت صادق يا من قلت يومًا: على هذه الأرض ما يستحقُّ الحياة؟

أيقظني صريرُ البابِ، أغلق السّتار عن أحلامي. لمحْتُ خيال شبحينِ شاخصينِ أمامي، بردائهما الأبيض! إنّهما ملاكا الرّحمة، جاءا ليقضيا عليّ، ويخنقا الحياة داخلي! اقتربا منّي أكثر، أمسكا بي، لم يكترثا لحركتي الشّديدة، ثبّتاني على هذا السّرير اللّعين، وصوّبا هذه الحقنة في جسدي المسكين المتهالك، سرى ذلك السّائل داخلي، شلّ حركتي شيئًا فشيئًا، شعرْتُ بقواي تخور أكثر، صوتي بالكاد صار يُسمع، الرّؤية أمامي باتت تخفتُ أكثر فأكثر، وجسمي ساكنٌ لا يتحرّك.

تركاني جثّة هامدة، بكفنٍ أبيض، خرجا، وتركاني أنازع حتّى الرّمق الأخير، تحشرجتْ روحي، شعرتُ بالأرض تدورُ من حولي، أشعرُ بالغثيان، أريد أن أصرخ، حتّى صوتي خانني، عقلي وقلبي يسألان: لماذا أنا؟ وإلى متى؟ لماذا يتآمر الجميع عليّ؟ يريدون أن يفقدوني عقلي، وأخشى أن يكون لهم ذلك، أخاف على نفسي، ليتني أستطيع إخفاء عقلي عن الجميع، ليتني أحميه من عبثهم وأذاهم، ليتني أملك من القوّة ما يجعلني أستغني عن الجميع، أحمي نفسي بنفسي، ليتني أستطيع أن أصرخ في وجه كلّ من يقترب منّي:

إنَّه عقلي، وهيهات أن ترى فيه أفكارك! فكما أنّ الكون لا يرحّب بالنّسخ والأشباه، عقلي يرفض أيضًا أن يكون له ندٌّ يحاكيه، فلا ترَ فيه نفسك. هذا المزيج من المشاعر المتناقضة يمثّلني، ولا يمثّلك، السّكينة والكمَد، الجَلبة والهمود، الهدوء والثَّرثرة، الخوف والاطمئنان، اللَّهو والجدّ، الرّضا والسُّخط، الرَّجاء والنُّفور، الحلم والغضب، الإصرار والانسحاب، كلُّها أنا ولا تعنيك في أيّ حال من الأحوال! فلا ترَ فيها نفسك، ولا تسعَ لأن تكونَ نسخةً عن غيرك، فلا حاجة لنا بالأشباه والمقلّدين.

أتعجّب حقًّا من كفاح البعض لأن يصيّروا عقول الآخرين كعقولهم، غافلين عن أنّ لكلٍّ منّا اسمًا يميّزه، وعقلًا يمثّله، وجسمًا يُؤويه، فإلى متى سيستمرّ المكافحون في كفاحهم هذا؟ وإلى متى سيتوقّعون أن نكون كما هم، نسخًا بأردية مختلفة!

خنقتني العَبرات، شرقْتُ بها، واستسلمتُ لنومٍ عميق، أعادني من جديدٍ لعذابٍ شديدٍ. ألقى بي في مهاوي قعرٍ أسود، فصلني تمامًا عن الواقع والوجود، جعلني في عالمٍ آخر، ألجمني، وشلَّ حركتي بالكامل، لم أعد أشعر بشيء، صرتُ خارج حدود الزّمان والمكان، فصلني عن العالم بأسره، وجدْتُ نفسي وحيدًا، في حيّزٍ من الفراغ،

وأنا أمدُّ يدي لأراها، فلا أرى غير الظّلام، محاطٌ أنا بظلمات وسواد، لا أرى ولا أسمع ولا أتكلَّم، تخنقني رائحة الموت من حولي، أتلمّس من حولي جثثًا، وجماجم فارغة، اجتثّوا منها أدمغةً، جعلوها في عالم اللّا إدراك. أطلقوا على أصحابها الّذين باتوا أجسادًا برؤوس فارغة مجانين، تلذّذوا برؤيتهم وهم يفقدون عقلهم، يتجرّدون ممّا ميّزهم الله عن سائر المخلوقات، وخدعوا الجميع بترّهاتهم، مدّعين أنّهم يريدون لمثل هؤلاء المساكين ومثلي الشّفاء!

ها أنا أفقد كينونتي شيئًا فشيئًا، أصبحتُ أرى الحياة خيطًا رفيعًا جدًّا، والموت أمامي فاغرًا فاه منتظرًا قرع الطّبول؛ ليؤذن له بالهجوم. وفجأة، من حيّزي المظلم هذا، أبصرتُ بصيصًا من النّور، بقيتُ مكاني، رفضتُ المحاولة، خشيتُ على نفسي من الوقوع بشراك حيلة جديدة، فأرى مرآة تعكس نور مجهول جديد.

إنّه النّور يتّسع من حولي شيئًا فشيئًا، أغمضتُ عينيّ أكثر، أرفضُ الوقوع بعذابِ وهمٍ جديدٍ، وزّع النّور خيوطه الضّوئيّة في كلّ مكان، ربّاه، لقد عاد بصري من جديد! تطرب أذني بصوت آسرٍ مريح، ربّاه، وها أنا أسمع من جديد! أصرخ بملء فيّ وأقول: ماذا يجري؟

ربّاه، ها أنا أتكلّم! تصفعني الحقيقة، أستسلمُ لهذا النّور، يملؤني الفضول، أفتح عينيّ، وأوسّع من محجريهما، أرى أمامي طيف ملاك آسر على هيئة بشر، يتحسّس بيده على رأسي، ويجوّد بصوته الرّائع، يقرأ عليّ ما تيسّر من آيات الذّكر الحكيم:

(لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

أستفيقُ من سباتي، أتفرّسُ في ملامحه، أنفجرُ استعبارًا، أرمي نفسي بين ذراعيه، إنّه أستاذي، ملاكي الرّوحيّ، أبي الثّاني، أستاذ نزيه! لا أصدّق ما أرى، لقد صدق وعده! وصدقت إيلاف وعدها، كم أنا ممتنٌّ لك يالله! أرجو ألّا أكون في حلمٍ من جديد، واللهِ إنّي لن أتحمّل، تعبْتُ وأريد أن أرتاح.

- ابني عمر، حمدًا لله على سلامتك!

- خذلني عامرٌ وفؤاد يا أستاذي، تركاني هنا أعاني الأمرّين، غدرا بي، وبوالديّ...

- لا تحزن يا بنيّ، سأقف إلى جانبك، ولن أدع روحَي والديك تتعذّبان..

- كيف هنْتُ عليهما إلى هذا الحدّ؟ ألسْتُ أخاهما؟ ألسْتُ من دمهما؟

- لا تؤذِ نفسك بالحزن والكمد، فالحزن من الشّيطان، ولا تيأس من رحمة الله، فلا ييأس من روح الله إلّا الكافرون.

- ليتني متُّ قبل أن أعيش هذه الأيّام.

- ثق يا بنيّ، أنّ الله ما ابتلاك إلّا ليزيدك قوّة، وما اجتباك إلا ليمتحن صبرك.

- لكنّي لا أستحقّ الحياة، فأنا عجزت عن حماية أمّي وأبي.

- هوّن عليك، ولا تحمّل نفسك همًّا على همّ، هذا قضاء مقدّر، والقضاء إذا نزل لا يمكن دفعه، ويجبُ أن نرضى به.

- كم أحنّ إلى الماضي، حينما كنت سعيدًا مبتهجًا آمنًا مستقرًّا مع أمّي وأبي، لقد اشتقت لهما كثيرًا!

- إنّ الحنين للماضي سنّة كلّ إنسان حسّاس، يشعر بقيمة التّفاصيل. وأن نشتاق يعني أنّنا نسير في الطّريق الصّحيح، ويعني أنّ مفتاح اللّقاء ما زال معنا.

- ولكن، كيف يكون اللّقاء لمن فارقت روحهم الحياة؟

- اللّقاء لا يكون بالجسد فقط يا بنيّ، تستطيع في كلّ مرّة تشتاق لهما، أن تذكرهما بدعائك، أو تهديهما سورةً، وتبثّ لهما همًّا، تناجيهما بروحك، فمناجاة الأرواح هي الأصدق. درّبْ نفسك على الشّعور بقيمة الحاضر، فهو سيصبح ماضيًا، وحينها ستفتقده أيضًا، ولتعش اللحظة بحلوها وبكافّة تفاصيلها، وتركل الهموم جانبا، ولتسع لتناسيها.

- أستاذ، أخبرني، هل أنا مريض؟ هل أنا مجنون؟

- إنّك أعقل من أعقل شخصٍ فيهم، وأنا واثقٌ فيك وبإدراكك، فنظرتي بأبنائي لا يمكن أن تخيب.

- هل ستخرجني اليوم من هنا؟

- لا يا بنيّ، دعني في البداية ألتقي بأخيك عامر، وأفهم منه، ما الّذي جعله يأتي بك هنا.

- إذًا أنت تشكّ أيضًا بصحّتي يا أستاذ؟ ما الّذي تريد أن تفهمه أيضًا؟

- لا يا بنيّ، أريد أن أطلب منه أن يخرجك من هنا، أو أن يتركك في عهدتي، فأنا كنتُ عند حسن ظنّ والديك بي، ولن أتركك تقاسي هنا مظلومًا مقهورًا. ثق بي فقط.

- أستاذ، إنّهم لم يكتفوا بإجباري على المكوث هنا، بل أصبحوا يحقنونني قهرًا، يريدون أن يستولوا على عقلي، يريدون لي الجنون. وأخشى حقًّا على نفسي من تحقّق مساعيهم قريبًا.

- لن أسمح لهم بإيذائك، أو قهرك.

- وماذا لو رفض عامر أن يخرجني؟

- لا تفكّر الآن إلّا بوعدي لك، أعدك يا بنيّ أنّك ستخرج قريبًا إن شاء الله.

- ابقَ معي أستاذي، أخاف أن يدخل عليّ أحدهم، ويحقنني، أن يوجعني، ويضربني، أرجوك يا أستاذ لا تتركني أحارب هنا وحدي وحوش البشر والشياطين.

- اجعل إيمانك بالله كبيرًا يا بنيّ، وثق أنّه لن يخذلك، أنا مجرّد عبد فقيرٍ ضعيف، والله هو الحامي، فاتّكل عليه، ولا تخف. ولا تنس أنّ عليّ أن أقابل أخاك غدًا، لنتّفق على إخراجك من هنا سريعًا.

- لا تخذلني، كما خذلني إخوتي، فلم يعد لي ثقة بأحدٍ غيرك.

- لا تخف يا بنيّ، لن أخذلك، إيّاك أن ترهق نفسك، إيّاك أن تستسلم للحزن والأسى، إيّاك أن تملّ من الدّعاء والصّلاة، فإنّهما الآن درعك الحصين، وسلاحك المكين.

***

(13)

إيـــلاف

بينما كنتُ أطلق العنان لناظري، وأجول ببصري بين ثنايا الطّبيعة، أفتّش عن لحظات من الماضي بصفوه، والطّفولة بنقائها، استقرّ بصري حيث يقف ذلك الرّجل، الّذي اتّخذ مكانًا إلى جانب فرسه، ينتظر من يشير إليه، ليعتلي ظهر فرسه، ويمضي معه في جولة حول الحديقة، مقابل دينار! كانت ترمقهما طفلتان وادعتان، تنتظران بشغف هذه الفرصة...

منظرُ الخيل كان ساحرًا، ظهر لونه كلون البنّ الّذي أستمتع كلّ يوم لأكثر من ثلاث مرّات بارتشافه، ابتسمت لبرهة، وواصلتْ عيناي جولتهما، كان المنظر لافتًا جميلًا، يسلب العقل معه، فتراه يجري كجريان هذا الخيل الجامح الوادع، الَّذي وضع الله فيه أجمل آيات خلقه وإعجازه.

وفجأة، وبينما كنتُ أرقبُ الطّفلتين، بعد أن انتهتا من جولتهما، على ظهر هذا الخيل، وبينما كان النّاس يروحون ويجيئون أمامي، وإذ بهذا الفرس يهيج فجأة، ويرفس عجوزًا، كانت تمشي برفقة ابنها الشَّاب، وعلى ما يبدو حفيدتها، فوقعتْ خائرةً واهنةً على الأرض، تئنّ وتتألّم، إثر إصابتها الّتي بدَتْ بليغةً، في قدمها اليسرى.

جرى هذا الأمر أمامي كلمح البصر، شعرتُ بالحزن على هذه العجوز المسكينة، الّتي يبدو أنَّها كانت تنوي أن تقضي وابنها وحفيدتها وقتًا جميلًا في رحاب الطّبيعة، دون أن تتوقّع ما سيجري معها، ومن زاوية أخرى، أخذت أتأمَّل ابنها الشَّاب، وقد ارتبك وبلغ به الأمر أعظم جلل، فقد بدا عاجزًا عن إعانة من كانت مصدر العون له في صغره، وقد بدا لي وقد استعاد شريط حياته كلّه، في أوّل مرّة يقع فيها على الأرض، فتسرع أمّه وهي بقوّتها لتحميه وترفعه، كان الأمر مشابهًا من هذه النَّاحية، ومختلفًا من حيث أنّ أمَّه كانت في قوَّتها وهو في عجزه، بينما الآن تبدَّلتِ الأدوار، فأمّه هي الّتي باتت الآن ضعيفة، وتحتاج منه العون، لكنّه شعر أنّه عاجز حتّى عن إسنادها ورفعها، فكلّما حاول أن يساعدها على المشي، تألَّمت وأصدرت صوتًا يجعله يتوقّف من حيث قرّر أن يبدأ.

ومن النّاحية الأخرى، بدت لي صورة الحفيدة، الّتي أخذت تلملم أكياس الكعك من الأرض، بعد أن سقطت من يد الجدّة، وأشفقْتُ أيضًا عليها، فربّما كانت تخطّط وتنتظر هذا اليوم، الّذي تخرج فيه مع جدّتها وأبيها، وتقضي وقتًا جميلًا، لكنَّها الآن بالتّأكيد ستنتقل إلى المستشفى للاطمئنان على الجدّة، الّتي بدت غير قادرة على مواصلة المشي أبدًا!

ومن الجهة المقابلة، استقرّ نظري نحو ذلك الرّجل، الّذي ظهر بشعره البنيّ المختلط بخصلات بيضاء، تحكي قصص كدّه وشقائه، من أجل توفير لقمة العيش الصّعبة لأبنائه وزوجته، الّذين ينتظرون عودته آخر كلّ يوم، متعبًا إثر جولاته وحصانه الأرعن، الّذي قرّر أن يرفس تلك العجوز المسكينة فجأة، ودون سابق إنذار، هذا الّرجل ظهر لي عاجزًا مهمومًا مخزيًّا قلقًا بسبب ما جرى لهذه العجوز، وما سيجري معه بسبب حصانه! أخذ يتمتم طالبًا الصّفح من العجوز وابنها، ومتعهّدًا بتكفّلِهِ بتكاليف سيَّارة الإسعاف لنقل العجوز، إلى أقرب مستشفى، والاطمئنان على حالها، ظهر لي أنّه محاط بغرابيب سود من الأفكار الّتي يرى فيها نفسه، وقد تعرّض لخيانة صاحبه، فرسه الّذي آل به إلى كلّ هذا الخزيّ والاستياء، ودون أيّ سبب. لكنّ الشّاب، رفض

أيَّ عوض، وكان هذا بمثابة دخول الخنجر إلى أعمق حنايا قلب صاحب الفرس العاجز، لما شعر فيه من خجل مضاعف، وخزيّ أكبر، فما كان منه إلا أن توجّه إلى فرسه، وبكفّه التي رُسمت عليها تصاريف الزّمن، ضربَ جانب الفرس! ثم لحنوّ قلبه، ظهر وكأنّه خشي على إحساس هذا الفرس، وندم على صفعه، فأصبح بذات الكفّ يتحسّس موضع الصّفعة ويبرّد عنها بحنانه. ومن هذه الزّاوية، استقرّ بصري نحو هذا الفرس العاجز النَّادم، الَّذي نافس صاحبه في الشّعور بالخزيّ، على ما قام به من سوء تصرّف، فلم يحرّك ساكنًا، وبقي مطأطئًا رأسه ذليلًا منكسرًا، وكأنّ عينيه نطقتا بكلّ تعابير الأسف والنّدم، بل وكأنّه كان في هذه اللّحظة يتمنّى أن تبلعه الأرض، ويصبح نسيًا منسيًّا!

هذا المشهد كلّه، لم يتجاوز ثلاث دقائق، لكنَّه استطاع أن يتجاوز بعمق أثره كلّ جزء في جسدي، وجرى كمجرى الدّم في شراييني وأوردتي، حار قلبي معي، فمن يساند؟ وعلى من يبكي، ولمن يدقّ؟ أللعجوز الّتي خرجت تقضي وقتًا جميلًا، ولم تكن تتوقَّع أن تتحوّل لحظات الفرح هذه للحظات غدر ووجع وأنين؟ أم يحزن لذاك الشّاب العاجز عن إسناد أمّه، بل ودفع الضّرر عنها، مثلما كانت تفعل معه في صغره؟ أم لتلك الطّفلة

الّتي خرجت وهي تحلم بأوقات جميلة لم تدم؟ أم لذلك الرّجل الّذي تعرّض للغدر من أقرب رفيق له في عمله وكدّه، فتحمّل ذنبًا لا شأن له فيه؟! أم لذلك الفرس الَّذي بات وجع النَّدم يحرقه، إلى جانب حرقة اللَّوم والعذل والاستصغار على سوء فعله؟ حار قلبي وحرْتُ معه، ولم أعرف أيّهم أكثر حقّا في أن نحزن له ومن أجله. لكنّي استطعتُ، من خلال هذا المشهد، أن أرى نفسي أمام مجموعة من الأمراض النّفسيّة، والعقد الّتي قد تودي بصاحبها، وأوّلها، مرض الغضب الّذي يحرق ويؤذي صاحبه أوَّلًا قبل أن يؤذي غيره، فيصل به الأمر إلى النّدم حين لا ينفع النّدم! ورأيت أيضًا مرض جلد الذّات، وأكل النّفس، ولومها على أمر لا دخل لها فيه، فيذوي صاحبه ويضعف كنبتة شحّ عنها الماء. رأيت فيه مرض الاستسلام للعجز والفشل، والتّمسّك بالماضي دون الالتفات إلى فرصة النّجاة بمن نحبّ في المستقبل! رأيت فيه أحلامنا البريئة بالسّعادة والّتي لا تطول. رأيت به الغدر والألم والأنين، وتمنّيت للحظة أن أكون كفيفة عن رؤية كلّ هذه الأمراض والعلل!

قفزَ صوتُ خالدٍ، وقطعَ عن إيلاف شرودها:

- أين أنت شاردة يا إيلاف؟

- تذكّرْتُ عمر...

- ذلك الفتى الّذي أخبرتِني عنه؟

- نعم. هو نفسه.

- كان الله في عونه.

- لسْتُ أدري كيف يستطيع الإنسانُ أن يُلقي بقلبه جانبًا، ويشحن نفسه بالأحقاد والشّرور!

- لا تتعبي نفسك بالتّفكير، بمثل هؤلاء النّاس يا إيلاف، وانئي بنفسك عن هموم الآخرين ومشاكلهم.

- لا أستطيع أن أتخلّى عن إنسانيّتي.

- لكنّك ترهقين نفسك، بتِّ كبلّور تخدشه الهموم، عيشي لنفسك، ولا تلتفتي لباقي الأمور.

ردّت إيلاف مستنكرة:

- لماذا عليّ أن أفقأ عينيّ، وأصبح عمياء عن عالمي، الّذي أشكّل جزءًا منه؟ لماذا عليّ أن أتنفّس، وأشرب وأتلذّذ بالطّعام وألهو، بينما يعيش آخرون بقهر واستياء؟ لماذا علينا ألّا نحسّ ببعضنا؟ بينما نحن قادرون على

ذلك؟ لماذا علينا ألّا نكون جزءًا من الحلّ، بينما نحنُ قادرون على تقديمه؟

- لكنّك تحمّلين نفسك فوق طاقتك، تحملين همًّا ليس بهمّك. الحزنُ والهمّ والفقرُ والأسى أقدارٌ موزّعة بين الجميع، لنشعر بقيمة الفرح، عندما يطرق بابنا. إنّ الحزن والفرح زائران متناوبان، فإذا حلّ الحزن علينا، فاعلمي أنّ الفرح مختبئ من خلفه. إنّ اللهَ يضع في طريقنا الحزن، ليأخذ بيدنا، ليعوّضنا بالّذي أفضل ممّا فقدنا، لا تظنّي أنّك الأرحم بالخلق من الخالق، واعلمي أنّ ما بعد الضّيق دومًا إلَّا الفرجَ.

- ولكن، لماذا علينا الانتظار؟ ماذا يضرّنا إذا حاولنا أن نزيل الشّوك عن طريق غيرنا؟ أن نخفّف عنهم حزنهم؟

- وماذا بوسعك؟ أخبريني. كيف يمكنك أن تعيني البشر كلّهم؟ وأن تخفّفي عنهم حزنهم؟

قالت إيلاف وهي تحاولُ أن تنهي هذا الحديث الّذي لن تجدَ منه حلًّا مع خالد:

- هل يمكننا أن نغادر الآن؟

- ولكن، لم أرك بعد.

- لسْتُ بمزاجٍ جيّد، اعذرني، يجب أن أعود إلى المنزل.

- مثلما تريدين!

***

(14)

عـامــر رشيــد

جالسًا على كرسيّه الجلديّ المتحرّك، أمام مكتبه الخشبيِّ الضَّخم، المليء بالأوراق الَّتي تنتظر توقيعه، والقضايا الّتي تنتظره للاطّلاع عليها، إلى جانب لوحة المكتب الخشبيّة، باسمه المزخرف "المحامي عامر رشيد" وفوق اسمه شعار الميزان، ومن خلفه لوحةٌ كبيرة، كُتبت فيها عبارة (العدلُ أساسُ الملك) بخطّ أنيقٍ مزخرفٍ...

أخذتهُ تكتكة عقرب البندول بين طريقين متنافرين تمامًا من الأفكار والقرارات. حاول أن يخدع نفسه، وأن يُبعدها عن سيل هذه الأفكار المتدفِّقة، وأن يلهي نفسه بمتابعة المعاملات، إلَّا أنّ الكلمات الموجودة في هذه الأوراق، لم تكن تجد السّبيل لأن تلج عقله، وأن تتحوَّل إلى مدخلات، حاول أن يكرّر عبثًا عمليَّة القراءة، إلّا إنّ مخيخه المسؤول عن الإدراك كان متوقّفًا تمامًا، عاجزًا عن التّفكير.

خلع معطفه، وعلّقه على المشجب. أخذ يمشي في ممرّ مكتبه الأنيق، علّه يخفّف من توتّره قليلًا، همّ بالاتصال بسكرتيرته، طالبًا فنجان قهوة، يساعده على الهدوء والتّركيز، إلا أنّ رنين الهاتف سبقه في ذلك، فاستجاب:

- مرحبًا سيّدي، هنالك رجل يُريد مقابلتك، يقول إنّ لديه أمرًا هامًّا، يريد أن يحدّثك به.

- ألم يفصح عن اسمه؟

- بلى، اسمه نزيه خير.

-الأستاذ نزيه خير! دعيه يتفضّل.

"ترى ما الّذي جاء به هنا؟ يفترض أنّ الأمور بيننا قد انقطعت، لا بدّ أنّه جاء لجمع التّبرّعات لإحدى الجمعيّات، كما اعتاد أيَّام والدي رحمه الله."

- السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السّلام أستاذ نزيه، تفضّل تفضّل.

جلسَ الأستاذ نزيه، بينما أمسك عامر سمّاعة الهاتف، وراح يطلبُ رقمَ سكرتيرته:

- أهلا سيّدي...

- آنسة سوزان، من فضلك، أحضري فنجاني قهوة إلى المكتب.

(وبادر سريعًا بالسّؤال: كيف تفضّلها أستاذي؟)

- أشكرك، لن أتأخّر يا بنيّ.

- لا يصحّ هذا أستاذي، أخبرني، كيف هي قهوتك؟

- وسط من فضلك.

- فنجاني قهوة وسط، آنسة سوزان، من فضلك

- على الفور سيّدي.

تنحنح الأستاذ نزيه، قبل أن يبدأ بكلامه:

- في الحقيقة، أتيت هنا، لأتحدّث معك في أمر هامّ، إلّا أنّي لا أعرف من أين أبدأ.

مدّ عامرٌ يدَه، نحو إحدى جرّارات المكتب، ليخرجَ دفتر الشّيكّات، ويكتب شيكًا بمبلغٍ ماليٍّ، لإحدى الجمعيّات الخيريّة، الّتي كان الأستاذ نزيه مسؤولًا عن جمع التّبرّعات لها.

- أنا سعيد لحضورك، فمنذ وفاة والدي، لم أعرف كيف أتواصل معك، للتّبرّع، فقد كان أبي المسؤول عن ذلك.

- لم تفهمني يا بنيّ، لم أحضر هنا لجمع التّبرّعات، بل جئت لأمر آخرَ تمامًا.

عدّل عامر جلسته، وقال باهتمام:

- تفضّل أستاذي، حدّثني، ماذا تريد؟

- جئتك يا بنيّ من أجل أخيك الصّغير عمر، ولأسألك عن حاله.

- عمر! سلمت يا أستاذ، هو بخير، ويقيم مع أخي فؤاد، عند عمّي، في أمريكا، وقد وضعناه في مدرسة إسلاميّة، وأموره بأحسن حال، ألم تخبرك إدارة المدرسة؟

- ما عرفته مؤخّرًا مختلفٌ تمامًا عمّا أسمعه الآن يا بنيّ!

- ماذا تقصد بكلامك؟ وما الأمر الّذي عرفتَهُ مؤخّرًا؟

(احتدّ عامر في كلامه)

- علمتُ أنّ عمر في مصحّة "روح" النّفسيّة، وأنّه لم يسافر قطّ خارج الأردنّ.

- من أين عرفت هذا ؟

- لا يهمّ من أين عرفت، الأهمّ أنّي عرفت.

- وما الّذي تريده منّي الآن؟ هل يمكنك التّفضّل بالحديث سريعًا، ودون أيّ مقدّمات؟

- أريد معرفة سبب إقدامك وفؤاد على مثل هذا الفعل، أريد أن أعرف كيف هان الأمر عليكما بهذه السّهولة؟

- من فضلك أستاذ نزيه، هذه أمور عائليّة وخاصّة جدًّا، أرفض التّدخل بها تمامًا، أريد أن تعلم أنّني وفؤاد الأدرى بمصلحة عمر.

- أيّ مصلحة هذه، وهو بعيدٌ عن أخوته، ومدرسته وناسه، وحياته الّتي اعتاد عليها؟

- أستاذ نزيه، لو سمحت، لن أسمح بمزيد من التّدخّل.

- إنّ هذا المكان سيؤذيه ويؤثّر عليه سلبًا بلا شكّ؛ فمكان عمر بين أهله وفي مدرسته، مع أصدقائه وزملائه، وأساتذته الّذين يحبّونه ويحبّهم، جميعنا سنقف إلى جانبه، وسنجتهد في تعويضه عن فقده والديه.

- لا داعي لأن أقول لك إنّ عمر مرّ بصدمة نفسيّة شديدة، فقد خرج من الموت بأعجوبة، ليس هذا فقط، بل رأى أمّي وأبي أمام عينيه، وهما يموتان حرقًا. لا تنس أنّ عمر يا أستاذي مراهق، وقلبه لا يتحمّل مثل هذه الصّدمة، لقد حاول إيذاء نفسه أكثر من مرّة! لقد قرّرنا هذا الأمر بعد تفكير عميق، ووجدنا أنّه الحلّ الأنسب والأسلم، نريده أن يتعافى، وأن ندفع أيّ ضرر قد يقوم به اتّجاه أحدنا أو اتّجاه نفسه، فهو يشكّل خطرًا الآن، بسبب مزاجه الحادّ، وتقلّباته النّفسيّة.

- ولمَ لا يتابع مع معالج نفسيّ، بدلًا من إقامته في المصحّة؟

- حالته تستوجب أكثر من هذا، فهو يحتاج إلى عناية حثيثة، ومراقبة شديدة، فقد يؤذي نفسه، أو من حوله، كما أنّه رافضٌ للعلاج، ومنكرٌ لما يمرّ به.

- ماذا لو يقيم عندي؟ أنا مستعدٌّ كلّ الاستعداد لرعايته.

- أرفض أن أشركَ الآخرين بمشاكلنا، وأمورنا الخاصّة.

- لكنّي زرته أمس، ووجدت أنّ المكان غير مناسب أبدًا، هم يؤذون عمر كثيرًا، وأخشى عليه منهم، إنّهم يحقنونه،

ويسيؤون التّعامل معه. والله إنّ حاله لا يسرّ صديقًا ولا عدوًّا.

- أستاذ نزيه، ما الّذي تقوله؟ كيف تقوم بزيارته، دون أن تعلمني؟ كيف سمحوا لك بذلك؟

- ولماذا لا أزوره مثلًا؟ عمر بمثابة ابني، ولطالما كان والداك -رحمهما الله - يفرحان بزيارتي، وتعاملي مع عمر، أتريد أن تلغي ذلك أيضًا؟

- من فضلك أستاذ نزيه، لا تحرجني أكثر، عمر الآن في حالة لا تسمح له باستقبال أحد. ثم إنّ هذا العلاج وفي المكان الّذي قمت بانتقاده، لصالح عمر، وهم الأدرى بصحّة المرضى النّفسيّين.

- قلت "المرضى النّفسيّين!" أتريد أن تقنع نفسك بهذه الفكرة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله!

- أستاذ نزيه، من فضلك، لديّ أعمال كثيرة، ولا طاقة لي لسماع مواعظ أكثر.

- لا تقلق، سأغادر الآن، لكنّي أعدك أنّي لن أترك حقّ عمر، وسأبقى إلى جانبه، وسأساعده.

- وأنا أحذّرك أستاذ نزيه، من الاقتراب من أخي عمر، أو معاودة التّدخّل.

- أهذا ما عندك؟

- نعم، هذا كلّ ما عندي الآن، ولن أبخل بما سيكون لاحقًا، إن استمررْت في تدخّلك.

غادر الأستاذ نزيه، وهو يتمتم، بينما صرخ عامر بأعلى صوته:

- آنسة سوزان! إيّاك أن تسمحي له بالدّخول مرّة أخرى إلى مكتبي.

ثمّ أمسك بهاتفه ليفجّر قنبلة أخرى في وجه تلك المصحَّة، الّتي تسمح باستقبال أي زائر لأخيه عمر، ودون علمه.

***

(15)

عُــمَــر

مرّتِ الأيّامُ ثقيلةً على عمر، من بعد زيارة الأستاذ نزيه له، على الرُّغم من شعوره بالتّفاؤل والأمل حينها، إلّا أنّ تأخّر الأستاذ نزيه عليه لشهرٍ، وانقطاع إيلاف عنه، حال دون متابعة آماله هذه، وتحقيق رجاءاته.

تُرى ما الَّذي جرى معك أستاذي؟ أنا على يقين برغبتك بمساعدتي، وأنَّك ذهبت لأخي، لكن، ما الَّذي حدث؟ ما الَّذي منعك عن معاودة زيارتي من جديد؟ أخشى أن يكون هنالك مكروهٌ قد حلّ بك، أو أنْ يكون أخي عامر من منعك عنّي! والله إنّي لا أستبعد هذا، فعامر لا يسعى إلّا إلى الشَّرّ! ليس أنت فقط، حتّى إيلاف انقطعت أخبارها، لم تعد تزورني أو تتابع حالتي. ليتني أجدُ طريقة أطمئنُّ بها، أو أجدُ طريقةً واحدةً أخرجُ فيها من هذا السِّجن الَّذي وضعوني فيه.

أخشى أن يُضعفوني، لقد باتت قواي تخور في كلّ يوم، أخشى أن أرفع لهم راية الاستسلام البيضاء! لكنّني لست مجنونًا.

ثلاثة أشهر مضت، وكأنّها ثلاث سنوات وأكثر، هرمْت فيها كثيرًا، وتحاملتْ عليّ أحزاني! يجب أن أشغل نفسي بأيّ أمر، يجب أن أسلّي عن نفسي، لن أستسلم بهذه السُّهولة، ولن أسمح لهم بأن يُسيطروا على عقلي، مهما بدت لهم من أساليب ملتوية، ونوايا خبيثة، ومهما حاولوا أن يُضعفوا جسدي بحقنهم اللعينة، وأدويتهم المقيتة!

سأبقى عمر، القويّ الصّامد، وسأنثرُ في وجه كلِّ من عاداني من تراب أفعالهم، فأعميهم. نعم، لن أبقى على ما أنا عليه الآن، لن أشكو زماني، فما شكا الزَّمان إلا الكسول، لن أحارب نفسي أو أجلدها، بل سأقفُ إلى جانبها، وأكون جيشًا جرارًا في وجه الظَّالمين، سأقرأ، سأرسم، وسأصنع من وقتي سياطًا، أجلدُ بها كلّ من قرّر أن يقف في طريقي، ليحدّ من أحلامي أو يمنعها. لن يمنعوا صوتي حتّى لو حاولوا، لن يفقدوني القدرة على الطّيران والتّحليق، سأحلِّق إلى أعلى المسافات، لأنظر

من الأعلى إلى كلّ من استهان بي نظرة شموخ وهم صاغرون.

***

أمضيْتُ شهرًا آخرَ، في هذه المصحّة، إلا أنّه كان الشّهر الأهون على قلبي، صحيحٌ أنّي ما زلْتُ رافضًا فكرةَ إقامتي هنا، وما زلْتُ أخطّط لخروجي، إلّا أنّي ارتحْتُ بعض الشَّيء، وأصبح مزاجي أكثر هدوءًا وتسليمًا. فقد استطعْتُ أن أشغل نفسي بالفعل، بقراءة جميع الكتب الَّتي أعطاني إيّاها الأستاذ نزيه، واستسلمْتُ للواقع المرير قليلًا بعين الرّضا، بعد أن كنْتُ ساخطًا حزينًا، أصبحْتُ أرتاد مكتبة المصحّة بكثرة، وأقرأ كتبها كتابًا كتابًا، لأشغلَ نفسي، كما أقبلْتُ بنهمٍ على الرّياضة والتّمارين.

"هذا أفضل تمثيل أقوم به أمامهم، حتّى ينشغلوا عنّي، ويقلّلوا من تلك الحقن بسمِّها اللَّعين، عليّ أن أصبر قليلًا، حتَّى أتذوّق طعم الفرح عن قريب، أنا واثق أنَّي سأخرج من هنا قريبًا، ولكن، عليّ التّفكير لهذا جيّدًا والتّخطيط."

لاحظ تغيّري الممرّضون والأطبّاء وكلّ العاملين، في المصحَّة، وشاهدوا أنّ مزاجي قد استقرّ وسكن، علمْتُ

أنّ الطَّبيب سامر السّفاريني المتابع لحالتي، طلبَ أن يمنعوا عنّي الحقن هذه الفترة، وأن يكتفوا بالأدوية فقط، والَّتي بدأْتُ أقتنع فيها قليلًا، فهي كانت تساعدني على الأقلّ، على النَّوم العميق.

وبينما كنتُ في إحدى المرَّات أقرأ كتابًا، دخلت عليّ ممرّضتان، إحداهما تتولّى متابعتي، هذه الفترة، والأخرى يبدو أنّها لم تشأ أن تفارق صديقتها حتى في هذه اللّحظة، بل ربّما آثرت كلتاهما الاختباء عندي، والتّذرّع بالانشغال في خدمتي، لتتكلّما بما يجول في خاطرهما، دون أن يسمعَهما أحد. ولأنّي في نظرهما ونظر من في المصحّة مجنونٌ، فهما في أمان، تستطيعان التّحدّث بما يحلو لهما، دون أن تتخوّفا من أن يُنقل الحديثُ ويُفتضح! حتّى لو أُريدَ لهذا الحديث أن يُنقل عنّي، من ذا الّذي سيصدّق كلام مجنون؟ أو يأخذ به أصلًا؟

تحدّثت الممرّضتان هانئتين مطمئنتين، وكان الكلام يخرج منهما بسرعة، تكاد تفوق سرعة الضّوء، كانتا تخشيان أن يأتي أحدهم ويقطع عليهما حبل هذه الجلسة المليئة بالقيل والقال، والشّكوى من ذلك المدير، والغيظ من زميلتهم الممرضة الّتي خطبت، وتلك الّتي تتقاضى

راتبًا أعلى دون أن تستحقّه، وذاك الَّذي لا يفهم في عمله شيئا فيُرفّع.

في الحقيقة، كنت متسليًّا بحديثهما، رغم أنّه لا يهمّني، إلا أنّها ثرثرات مضحكة، حقًّا إنّ هؤلاء النّساء محظوظات، يستطعن أن يأتين بكلام من تحت الأرض، هنّ مبدعات في فنون تمحيص الكلام وتحليله، والبناء عليه، من جملة واحدة، يستطعن أن يبنين بناءً عظيمًا من استنتاجاتهنّ وترهاتهنّ في كثير من الأحيان. إلّا إيلاف، لا أعرف إن كانت مثلهنّ دون أن أدري، لكنّي شعرْتُ أنّها مختلفة عنهنّ، مختلفة بكلّ شيء، بتميّزها وهدوئها ورزانتها وعقلها، وخُلقها...

وفجأة، ومن بين كلّ هذه الأحاديث المسترسلة، وفي أقلّ من عشر دقائق، أفصحت إحداهنّ، دون أن تدري، عمّا أحتاجُ سماعهُ...

- الأسبوع القادم سأنتقل لمتابعة مريضٍ آخرَ، لا أرغب في هذا، سأعاني في كلّ مرّة من أجل ترويض مريضٍ جديدٍ.

- معك حقّ، كنت أتمنّى أن أكون مكانك. لكن، يبدو أنّ إيلاف دائمًا هي المحظوظة، في كلّ أمر؛ فدائما ما يُشاد

بعملها وإخلاصها، وكأنّه لا يوجد غيرها في هذه المصحَّة، وحين وقع الاختيار لتبادل المرضى، جاء حظّها بمتابعة المريض الأكثر استقرارًا وهدوءًا والتزامًا. من أين أتت بحظّها لا ندري؟!

كان هذا آخر ما تحدَّثت به تلك النّاقمتان، قبل أن تقومَ إحداهنَّ، بتسكيت الأخرى.

- نواصل الكلام لاحقًا، يجب أن نخرج قبل أن يفتقدنا أحد، ويرانا هنا معًا، دون عمل.

****

في الرَّابع عشر من آذار، صباح يوم الأحد، استيقظْتُ نشيطًا، سرّحتُ شعري، وارتديْتُ قميصًا قطنيًّا أبيض، وبنطالًا أزرق، بدوْتُ بصحّةٍ أفضل، خاصّة بعد أن اكتسبْتُ بعض الكيلوات، بسب تلك الحقن الّتي كانوا يحقنوني بها، رغمًا عنّي، بين الحين والآخر، فقد كان لها الأثر في زيادة شهيّتي على الطّعام، وزيادة وزني!

جلسْتُ على الأريكة أفكّر في الكلام الّذي سمعته من الممرّضتين أمس.

"ستأتي إيلاف في أيّ وقت، يجب أن أكون مستعدًّا، وأحافظَ على تفاؤلي، يجب أن أقنعها بمعاودة مساعدتي. حتمًا ستقبل، فقد قرأتُ قلبَها، وفهمتُ فكرَها".

لم تمض أكثر من عشرين دقيقة، حتّى صدقت توقّعاتُ عمر، فتحَتِ البابَ عليه، ودخلتْ.

- كيف حالك يا رجل؟ (قالت بمرح)

- أين كنت؟ لماذا امتنعْت عن زيارتي؟

- حدثت أمورٌ كثيرةٌ، سأخبرك عنها، ولكن، ليس قبل أن تخبرني أنت! كيف حالك؟

- أنا بخير. هل تعرفين شيئًا عن أستاذ نزيه؟ فقد زارني قبل شهرين، ووعدني أن يخرجني، بعد أن يحدّث أخي، إلّا أنّه لم يأت بعدها، أخشى أن يكون أخي عامر قد تسبّب بإيذائه.

- في الواقع، إنّ الأستاذ نزيه، ذهب لرؤية أخيك عامر، وتحدّث معه مطوّلًا، وحاول إقناعه بإخراجك من هنا، إلا إنّ عامرًا أصرّ على موقفه، ورفض أيّ تدخّل.

- لقد توقّعتُ هذا!

- ليس هذا فقط، بل حضر إلى المستشفى، وصبّ علينا جامَ غضبه، وأخذ يتوعّد كثيرًا ويُهدّد، بمقاضاة المشفى والعاملين عليه، إن علم بزيارة أحدهم لك، مرّةً أخرى.

- ماذا تقولين؟!

- لهذا أمرَ المديرُ بتغييرِ طاقمِ الممرّضين، بناءً على طلب عامرٍ، وجعلنا نعملُ بالتّناوب، لمتابعة المرضى، حتّى لا يكون هنالك اتّفاق بينك وبين أيّ منّا، وبهذا يقطع عليك أيّ فرصة للتّواصل مع أيّ أحد قد يساعدك، خاصّة بعد أن استشاط غضبًا، من معرفة الأستاذ نزيه بأمرك.

- وماذا يعني هذا الكلام؟ ألم تعد لديّ أيّ فرصة للنّجاة؟ أنقطعت الأسباب الآن؟

- سأساعدك، لكن هذه المرّة يجب أن نفكّر جيّدًا، قبل أن نخطو أيّ خطوة.

- وكيف ستساعديني؟

- دعْني أتأكَّد من الأمر الّذي في بالي أوّلًا، وحينها سأخبرك.

- لا أعلم كيف أشكرك حقًّا. جئت في حياتي في الوقت، الّذي شعرت فيه أنّ كلّ من حولي، لا يستحقّون ثقتي، جئت لتثبتي لي أنّ هذه الحياة وإن كثُر سوادُها، وازداد ليلها، لابدّ من نور يأتي من قلبها، وأنت هذا النّور يا إيلاف.

ابتسمت إيلاف ابتسامتها العفويّة، ثمّ رسمت على وجهها جدّيَّة مصطنعة، وزمّت شفتيها، فتراءى الرّقم أحد عشر بين حاجبيها، وقالت وهي تخفي ابتسامة، تظهر حزمًا: يجب الآن أن تسمع كلام أختك الكبرى، وأن تلتزم بتناول طعامك ودوائك في وقته، ثق أنّ هذا الدّواء سيساعدك فقط على الهدوء، والنّوم العميق، والتّفكير الموزون بعيدًا عن الانفعال، وهذا ما نحتاجه، حتّى نصل لحلّ سريع وناجح، لإخراجك من هنا.

- حسنًا.

- يجب أن أظهر أمام الجميع بمثابة الحازمة القاسية معك، حتى يستبعدوا فكرة أنّي أقف إلى جانبك تمامًا.

- لا تقلقي.

- لنا عودة قريبًا.

غادرت إيلاف تاركةً عمر في حالة فرحٍ وامتنانٍ خفيّ، استلقى على سريره، مستسلمًا لخواطر عقله:

في هذه الحياة، يحدثُ أن ترعاك يد الله، وتربتُ على كتفيك، في عزّ محنتك، بأن يرسل الله إليك قلبًا نقيًّا، لا يعرف إلا الحبّ، أو أن يرسلَ إليك أحدهم بخبرٍ حلوٍ يجلو عنك همّك، ويمسح عنك شتات فكرك، أو أن يبعث الله إليك شخصًا عزيزًا، ينتشلك من معمعتك، ويسقي بصفاء قلبه ذابل وردك! لتدرك حقًّا أنّ اللهَ يرسلنا لبعضنا رحماتٍ، وقلوبًا صادقةً تدعو لنا، وتحملُ همّنا، وتحفظ ودّنا، وتصنع يومنا. دوموا على الودّ؛ فقلوبُ الكثيرين عطشى، وبودّكم تعودُ الحياةُ على قيد الحياةِ.

****

في صباح ١٦ من آذار، من يوم الثّلاثاء، استيقظ عمر على صوت العمّ بشير، يدخل إلى غرفته، ليبدّل الفراش، ويضع في الكوب ضمّة ياسمين جديدة، ويعمل على تهوية الغرفة.

- سلمت يداك عم بشير.

- سلمت روحك عمر الطّيّب، كيف حالك اليوم؟ تبدو بصحّة أفضل.

- الحمدلله يا عمّي، يبدو أنّي اعتدتُ على المكان، بكلّ ما فيه، وربّما هذا ما انعكس على وجهي، وصحّتي.

- أنت قويّ يا عمر، ستخرج من هنا قريبًا، بإذن الله.

(قال عمر في نفسه..)

"سأخرج من هنا رغم أنف أخي عامر وذلك المتخاذل المدلّل فؤاد"

- أتريد شيئا منّي يا عمر؟

- شكرًا يا عمّي، لا أريد إلّا سلامتك.

"عليّ اليوم أن أتمالك نفسي جيّدًا، وأن أحافظ على هدوئي. أرجو ألّا تتأخَّر إيلاف في خطّتها، فلا طاقة لي للصّبر أكثر من هذا."

تناول عمر فطوره، وأخذ حبّة الدّواء بخنوع، بدّل ملابسه، وسرّح شعره، وجلس يناظر السّاعة، يرقبُ عقاربَها وهي تتحرّك، مستأنسًا بتبدّل مواقعها، مؤذنةً بمضيّ الوقت. دخلتْ عليه إيلاف، بابتسامتها المعهودة، واقتربت منه، وهي تتظاهرُ بأنّها تعدّل من وسادة السّرير، وهمست في أذنه:

- لقد حانَ الوقتُ لأنْ تقولَ لهذا السّرير ولهذه الغرفة، ولهذه المصحَّة بكلّ ما فيها ولي: وداعًا.!

لم أصدّق ما سمعت!

- ماذا تقصدين؟ هل سأخرج اليوم؟

- أخفض صوتك يا فتى، لا تُفشل كلّ ما خطّطت له.

- لكن، كيف؟ ومتى؟

- أليس اليوم موعدك مع الدّكتور المعالج سامر السّفاريني، في عيادته؟.

- بلى

- اسمعْني جيّدًا، عندما تلتقي اليوم بالدكتور سامر، ويطرح عليك بعض أسئلته، ستتظاهر بأنّك تريد استخدام الحمّام، سيأمرُ حينها بأن تذهب إلى الحمّام المقابل لمكتبه، وهنالك، وضعتُ لك ملابس ممرّض، بكيس أسود موضوع على حافّة الشّباك، ستبدّل ملابسك وتخرج. ستجد في جيب البنطال نموذجًا موقّعًا للمغادرة، لكنّه غير مختوم. ادع الله فقط ألّا ينتبه الحارس لعدم

وجود الختم، واخرج بشكل طبيعيّ من باب المستشفى، وكأنّك ممرّض تريد المغادرة.

قلْتُ لنفسي متعجّبًا: حقًّا إنّ كيدهنّ عظيم!

- والآن عليّ أن أغادر، لقد أخذت إذن مغادرة، وسأقابلك في الشّارع الخلفيّ، استأجرتُ سيّارة (مازدا) سوادء، ترميزها ينتهي بالرّقم 15..

غادرت إيلاف قبل أن تدخل الممرّضة كفاح، وتأمرني وهي متجهّمة بالمضيّ معها، إلى مكتب الدكتور سامر، سلّمت لها كطفل وديع، لا يملك القدرة على قول لا. اندهشت كفاح، وانهدش معها كلّ من كان في الممرّ، عندما رأوني أسير مستسلمًا قانعًا غير متجهّم كالعادة، في طريقي لعيادة الدّكتور سامر.

وزّعتُ نظري في كلّ ناحية، قبل أن أغادر هذه المصحّة، كنتُ أريد أنْ أحفظ معالمها لأقول لها وداعًا، ستصبحين بعد هذه اللّحظة مجرّد ذكرى سيّئة، وسأكون حينها قادرًا على رسم مستقبلي بالطّريقة الّتي أريدها، والشّكل الّذي أبتغيه، سيتوقّف العالم كلّه عن التّدخّل بي، وإعطاء نفسه الحقّ في الاختيار عنّي.

دخلت المكتب بثقة، ورحّبت بالطّبيب قبل أن يرحّب بي. اندهش هو الآخر وارتسمت ابتسامة العبط على محيّاه...

- ما شاء الله! أراك مشرقًا يا عمر، وبأحسن حال.

جلست على الكرسيّ، وأتبعته بصاروخ آخر:

- هذا بفضلكم دكتور.

(اتّسع وجه الطّبيب منشكحًا)

- بل بفضلك وبفضل تعاونك يا عمر. يبدو أنّ جلستنا اليوم ستنتهي سريعًا، ويبدو أنّي سآمر بتخفيف جرعة الدّواء لك، ولا تدري، ربّما خلال أسبوع واحد فقط، وإن بقيت متعاونًا هكذا، سآمر بإخراجك من هنا، لتعود إلى بيتك ومدرستك.

"أتظنّ أنّي ما زلتُ صغيرًا؟ أو مجنونًا لأصدّق ترّهاتك هذه، وتجعلها تنجلي عليّ؟" (قلتُ في نفسي)

- بم تفكّر يا عمر؟

- لا شيء، بإذن الله يا دكتور، وكلّي ثقة بكم وبما تفعلونه هنا من أجلي.

بدأ المسكين سبقه الصّحفي، وتجاوبْتُ معَه، حتّى نهايةِ السّؤال الثّالث، وقبل أن يبادر بسؤاله الرّابع، قاطعته:

- هل لي باستخدام الحمّام سريعًا؟

تجهّم قليلًا، لكن، سرعان ما رسم ابتسامة رضا وهميّة:

- بالتأكيد، يمكنك الذّهاب.

نادى بصوته الرّخيم، الّذي بدا كصوت بالون منفوخ، قام أحدهم بالتّسلّي بتنفيسه ببطء، فانبعث صوت مزعج يؤذي الآذان ويصمّها:

- سيدة كفاح، اصحبيه إلى الحمّام المُقابل لمكتبي، وعودي به حالًا.

مضت كفاحُ بي، وهي لا تدري ما سيجري. دخلتُ الحمّامَ، وأغلقتُ من خلفي، وبسرعة خاطفة، بدّلت ملابسي، بتلك التي كانت بكيس أسود، محكم الإغلاق، موضوع على حافّة الشّبّاك، وهممْتُ بالخروج، إلّا أنّي تذكّرت المصيبة المتمّثلة بكفاح، الّتي تنتظرني بالخارج، لتسلّمني من جديد، لذلك الطّبيب المستفزّ!

لمعتِ الفكرةُ سريعًا في ذهني، صرختُ بأعلى صوتي، وأخذت أئنّ وأقول:

- آخ يا بطني، آخ يا معدتي.

ووضعتُ حالًا أصبعي في فمي، لأتقيأ كلّ ما فيّ، وفعلًا نجحتُ في ذلك، وكفاح في الخارج تقول:

- ماذا جرى معك يا بنيّ؟ ما بال معدتك؟ يبدو أنّك أخذت بردًا يا مسكين!

قلت لها بصوت فيه رجّة متعمّدة:

- لقد وسّختُ ملابسي، ولا يمكنني الخروج هكذا أبدًا، هلّا تفضّلت وأحضرت لي ملابس نظيفة من غرفتي؟

- بالطّبع يا بنيّ، لا تقلق.

صدقّتني سريعًا، ومضتْ في عجلٍ، في طريقها إلى غرفتي، بينما خرجْتُ مسرعًا، عندما تأكّدت من اختفاء صوتها، ومشيْتُ بهدوء واتّزان مفتعل، كيلا يُشكّ بي، ويُفتضح أمري. دَسَسْتُ يدي بجيبي، وأمسكْتُ بالورقة الموقّعة بتوقيع مزوّر. اتّجهت بخطًى واثقةٍ نحو البوّابة الرّئيسيّة، كيلا أثيرَ حفيظةَ أحدٍ.

كان العمّ منصور واقفًا أمام البوّابة الرّئيسيّة، والسّيجارة في يده اليسرى، وكأس القهوة الكرتونيّ، في يده اليمنى، مضيْتُ نحوَهُ، وطرحْتُ عليه السّلام، مصوّبًا الورقةَ في وجهه، وكأنّي أسلّم جواز السّفر للموظّف المسؤول في المطار، ليختمَ لي عليه، ويأذن لي بالمضيّ والسّفر.

تأمّل العمّ منصور وجهي، بدا لي أنّ الفئران تلهو وتتراكض في صدره، قرأتُ في وجهه الشّكّ، إلّا أنّه لم يتجرّأ أن يشكّك بي، خوفًا من أن تصدق حجّتي، وأكون ممرّضا حقًّا، وأعرّضه للإحراج بغضبي، إثر شكّه بي وعدم تصديقه لي. كما أنّه كان منشغلًا بكأس القهوة والسّيجارة، فلم يتنبّه لعدم وجود الختم، ووقعتْ عيناه فقط على التّوقيع المزوّر، دون أن ينظر حتّى إلى اسم الموظّف المغادر.

- بأمان الله.

خرجْتُ وأنا أنظرُ بتحدٍّ وانتصارٍ، إلى تلك البوّاباتِ الحديديّة، بأقفالِها الكبيرة، وقلبي يكادُ يخرجُ من مكانه، اتّسعتِ ابتسامتي، حتّى شعرتُ أنّها ستمزّق وجهي، علَتْ أنفاسي، حتّى حجبتْ جميعَ الأصواتِ من حولي، اضطربتْ قدماي، حتّى شعرتُ بأنّها غير قادرة على

حملي. مشيْتُ بهدوءٍ حتّى شعرْتُ أنّي أطيرُ بأجنحة! شعرْتُ برائحة الهواء النّقيّ تجتاحني، طربتُ بصوت الباعة وبكاء الأطفال، وصراخ الرّجال، ووعيد الأمّهات الغاضبات، وصوت زامور سيّارة الغاز، وصوت البائع المطلّ منها: غاااااز.

شعرت أنّي كالطّير الحرّ الطّليق، لا أحدَ يستطيع أن يقصّ أجنحته، أو أن يخفت صوته. وزّعت ابتساماتي وضحكاتي وقهقاتي على كلّ الموجودات من حولي، رأيت عجوزًا أمامي، تهمّ بحمل الكيس، الّذي كانت قد وضعته على الرّصيف؛ لترتاح قليلًا، حملْتُ الكيسَ وناولْتُها إيّاه، وأخذت أردّد بمرح: لقد فعلتها لقد فعلتها. نظرَتْ لي مشدوهةً، وقبل أن تنطقَ، كنتُ قد مضيْتُ كالرّيح من أمامها، ولم يعدْ لي أثرٌ.

أيقظَني أخيرًا من هذياني صوتُ الزّوامير المنبعثة من تلك السّيّارة. نظرْتُ خلفي، وإذ بالممرّضة إيلاف فيها، تُشير لي بيدها لأركبَ بسرعة، ركبت معها ومضت بسرعة جنونيَّة، اختفت السَّيَّارة من الشَّارع، واختفى كلانا، وبقيَتْ ضحكاتي السّاخرةُ المنتصرةُ شاهدةً على نجاحي في الهروب، وتمرّدي.

انطلقتِ السَّيَّارة الحائرة، بخطواتٍ جنونيّةٍ رعناءَ، كانتْ تجري بلا تخطيط وبلا وجهة، إلّا أنّ إيلاف رغم نجاحنا بدت مضطربة جدًّا، وغاضبة بعض الشّيء، شعرتُ بخجل واضطراب، لأنّي أدخلتها في مشاكل هي في غنًى عنها، خفتَ حماسي قليلًا.

- لن أنسى معروفكِ هذا ما حييتُ، سأخرجُ من حياتكِ، ولن أتسبَّبَ لكِ بالمزيد من المتاعب بعد الآن، بإمكانكِ أن تُنزليني هنا، وأعدك أنّي لن آتي بسيرتك أبدًا إن أمسكوا بي، ولن أخبر أيّ أحد أنّك كنت السّبب في معاونتي على الهرب.

- كفّ عن هذا الكلام الّذي بلا فائدة الآن. أنا أفكّر بمكان مناسب أبقيك فيه، دعني أحافظ على تركيزي جيّدًا.

- لا تقلقي، أستطيع أن أتدبَّر أمري وحدي، يمكنني الذّهاب إلى الأستاذ نزيه، والإقامة عنده، أنا متأكّد أنّه سيُرحِّبُ بي.

- إيّاك والتّفكير بهذا! العمّ نزيه هو أوّل شخص سيأتون إليه، ويتوقّعون أنّك تقيم عنده.

حار عمر في أمره، وساوره القلق من جديد، اعتقد أنّه بهروبه من المصحَّة، سيتخلّص من أيّ قلق وحزن، إلا

أنّه الآن عاجز عن التّفكير، وعن إيجاد مكان مناسب يقيم فيه.

- هل أسلّم نفسي من جديد؟

- أجُننْتَ؟ بعد أن نجحنا في هروبك، تريدُ أن تعودَ حيثُ كنتَ من جديد، بكلّ بساطة؟

- كلّ ما أريده هو ألّا أتسبّب لك بالمزيد من المشاكل، يا إيلاف.

- لا عليك، سأتولّى أمري.

ركنت إيلاف السّيّارة، وترجّلت عنها، اشترتْ من البقّالة، أكياس شيبس وشوكولاتة، وعلبًا من المعكرونة سريعة التّحضير، وبعض المعلّبات، سهلة التّحضير، وكيس خبز، وحليب، وزجاجات ماء صغيرة، بالإضافة إلى بعض الشّطائر المغلّفة، وعادت وهي تُحاول إخفاءَ قلقها، واصطناع ابتسامة، تخفي فيها توتّرها.

- عندما أتدبّر أمرك جيّدًا، سأحضِرُ لك أفضل من هذا.

شعرَ عمرُ بالخجل، فاكتفى بالسّكوت، وكأنّ هنالك من ابتلع لسانه، وحجبَ صوتَه. مضتْ إيلاف في الطّريق،

ومضى هو يتأمّل من النّافذة، كلّ شيء تسقط عينه عليه، لاح له وجه أبيه وأمّه، على زجاج السّيّارة، فسقطتْ منه دمعةٌ، فمسحَها سريعًا، قبل أن تراهُ، فهو لا يحتملُ أن ينظر له أحدٌ نظرةَ شفقةٍ أو حزنٍ.

تحمّست إيلاف فجأة، وكأنّها تذكّرت شيئًا مهمًّا.

- هل وجدْتِ لي مكانًا؟

- انتظرْ انتظرْ، لا يوجدُ عندي أفضلُ من حارسِ عمارتِنا!

أمسكتْ جوَّالها، وراحت تبحثُ فيه عن الاسم رياض.

- مرحبًا

- مرحبًا عمّي رياض.

- أهلًا بك يا ابنتي.؟

- عمّي، هل بجانبك أحد؟

انتقل رياض سريعًا من مكانه، وخرج يتحدّث في الشّارع، بصوت منخفض:

- أنا معك يا ابنتي، تحدّثي، هل هنالك خطب ما؟

- عمّي، أحتاج مساعدتك.

- قولي يا ابنتي، كيف يمكنني مساعدتك؟

- عدْني في البداية أنّك لن تخبر أحدًا بما سأقوله لك.

- أعدُكِ.

- أريدُ أن تبحثَ لي عن بيتٍ بسيطٍ للإيجار، لشخصٍ مسكينٍ معي الآن، لا يوجد له أيّ معيل.

- ومن هذا الشّخص يا ابنتي؟

- هل تستطيع أن تساعدني، دون أن تسألني عن أيّ شيء يا عمّي؟

- بالتّأكيد يا ابنتي، لكنّي خائف عليك، أخشى أن يطولك منه أيّ أمر سيّئ.

- لا تقلق يا عمّي.

- حسنًا يا ابنتي، عندي مكانٌ مناسبٌ جدًّا. إلّا أنّه يحتاج بعض التّهوية، والتّأكّد من الإنارة فيه.

- أين هو؟

- بيتي في السّلط، شارع الميدان، مقابل مدرسة ثانويّة البنات...

- مفتاحُه معَك الآن؟

- سأتّصل بالعمّ إبراهيم، صاحب أسواق الميدان للخضار والفواكه، فقد وضعت عنده المفتاح، على أمل تأجير البيت.

- لا أعرف كيف أشكرك يا عمّي، والله إنّك قمت بمعروف عظيم.

- حفظك الله يا ابنتي، سأرسل لك الآن الموقع برسالة، حتّى يسهلَ عليك الذّهاب.

ابتسامةُ إيلاف كانتِ السّببَ في تحطيمِ صخورِ القلقِ، الّتي تشكّلت داخلي، وتفتيتها إلى قطع صغيرة جدًّا.

وصلنا أخيرًا، ركنت السَّيَّارة اللَّاهثة، لكثرة ما جرت فينا.

الشّارع هنا مميّزٌ جدًّا، محاطٌ بأبنية مرصوفة، أكلَ الدّهر عليها وشربَ، ممّا زادها أصالة وعراقة، الأرضُ مفعمةٌ بفيض الرّجولة، النّسوةُ اجتمعن على أبواب

البيوت، وهنّ في أحلى حلّتهنّ، يتزيّنّ بأثوابهنّ المطرّزة بأجمل الألوان، الجوّ لطيفٌ، والشّارع ممتدٌّ فسيحٌ، النّاس هنا بسيطون، تقرأ في وجوههم الرّضا والانسجام، يهبّون للمساعدة سريعًا، وكلّ شخصٍ منهم يعرف الآخر...

استطاع السّكّان بسرعة أن يميّزوا أنّنا ضيوفٌ في السّلط، فاندفعوا يتسابقون لمدّ يد المساعدة لنا، بمشاعرهم الصّادقة، ونخوتهم العربيّة، أرشدونا إلى حيثُ يكونُ متجر العمّ إبراهيم. الّذي استقبلنا بحفاوةٍ كبيرةٍ، وراح يعرّفنا على أبرز المعالم في هذا الشّارع، الّذي كان ميدانًا للخيول في السّابق، قبل أن يوصلنا إلى البيت، المقابل لمسجد عمر بن الخطّاب.

وعندما وصلنا، تولّى العمّ إبراهيم أمر تهوية البيت، والتّأكّد من إنارته، والتّحقّق من إمكانيّة الإقامة فيه بشكلٍ سريعٍ، أحضر مدفأة صغيرة، ووضعها في قلب المجلس، وبدّل أغطية السّرير، في غرفة النّوم، وملأ الثّلّاجة ببعض المأكولات، البيض واللّبنة واللّبن، والجبنة، فضلًا عن الخبز الطازج، وهناك على طاولة المطبخ، كانت زجاجة الزّعتر، وبجانبها زجاجة الزّيت، وكأنّها تنتظر قدوم عمر. وهناك زجاجة الزيتون

الأخضر والأسود، والمخلّل، وكلّ ما يبعثُ الشّهيّة في النّفس، والحماس لأن تقيم في هذا البيت الرّيفيّ الجميل. كلّ هذا كان بمجرّد اتّصالِ رياض به، وتوصيته على إيلاف ومن معها.

رحّب العمّ إبراهيم بنا، وأثنى على فضل رياض صديقه العزيز، قال أنّه يريد أن يردّ له جزءًا من معروفه القديم.

تجوّلنا في المنزل، وتعرّف عمر على كلّ ناحية فيه، وقبل أن أغادر، حذّرتُه من أن يفتح الباب لأيّ شخص، وطلبتُ منه أن يعتنيَ بنفسه جيّدًا، وناولته خمسين دينارًا، يُعين فيها نفسه، إذا احتاج أيّ أمر. ودّعته للخروج، والرّجوع إلى عمّان، قبل أن يتأخّر بي الوقت.

***

(16)

ســامر السَّفارينــي

قامتِ الدّنيا ولم تقعدْ، في مستشفى روح للصِّحّة النّفسيّة، كلّ ما فيه كان يبحثُ عن عمرَ، تكلّمتِ الجدرانُ أيضًا، وشاركتْ كلّ جزء في المشفى بالبحث والسّؤال عنه.

أُعلنتِ الطّوارئُ في المستشفى، اجتمع المديرُ بكلّ الموظَّفين الموجودين، يلعنُ هذا ويشتمُ ذاك، ويتوعّدُ هذا ويهدّدُ ذاك، كلُّ شخص في هذا المشفى نالَ نصيبَهُ من الغضبِ والسّخط، لم ينزلِ الغضبُ فقط على الموظفّين، بل نالَ المرضى المساكينَ أيضًا، نُبِّشت جميعُ الغرفِ والمرافق، بحثُوا عنه في كلّ مكان، وفي الشّوارع والأزقّة والدّكاكين القريبة من المستشفى..

ثار المديرُ مغتاظًا:

- ماذا سنقول لأخيه عامر؟ والله إنّه سيطربق الدّنيا على رأسنا، سيرفع علينا قضيّة، ونقضي في المحاكم

صاغرين. اللعنة حلّت علينا تمامًا، كيف استطاع الهربَ منكم؟ كيف مرّ من أمامكم دون أن تُوقفوه؟ هل كان شفَّافا إلى هذا الحدّ كيلا تَروْه؟

ردّ الدّكتور سامر السّفاريني:

- أقترحُ يا سيّدي ألا نخبرَ أخاه الآن، فلن ينالَنا إلّا الضّرر، وستُفتح طاقةُ جهنّمَ علينا، ونُحرقُ بها أجمعين.

- كيف لا أخبره أيّها الطّبيب الفهيم؟ ماذا لو قام بزيارتنا، للاطمئنان على حال أخيه، خاصّة بعد مشكلة زيارة الأستاذ نزيه لأخيه قبل شهرين! ألم تر كيف أصبحَ كثيرَ المتابعةِ، وزادتْ زياراتُه المفاجئة؟

- من هذه النّاحية، فلا تقلق! لن يستطيع أن يزورَنا هذه الفترة، أنسيتَ الإجراءات الاحترازيّة، الّتي أعلن عنها رئيس الوزراء عمر الرّزاز، في ظلّ ظهور فيروس كورونا المستجدّ؟ لقد شدّد على وقف زيارة المستشفيات والسّجون حتّى إشعارٍ آخرَ!

- صحيح، تذكّرْت! لكن، ماذا لو اتّجه عمرُ إلى بيته، وأخبرهم أنّه استطاع الهرب بهذه السّهولة، كيف سيكونُ موقفُنا حينَها؟ خاصَّة أنَّ هذا الأمرَ واردٌ جدًّا، فأيُّ مكانٍ سيستقبلهُ غيرَ بيتِه، وبيتِ عائلتهِ؟

- لا تقلق سيّدي، فعمرُ، من خلال متابعتي لحالته، لن يفكّر أبدًا في أن يتّجه إلى بيته، أو بيت أخيه، فهو ناقمٌ جدًّا، على أخويه، لأنّهما جاءا به هنا، ولا يُريد أن يلتقي بهم.

- لكن، ماذا لو افتُضحَ أمرُنا بأيّ طريقة أخرى؟ ماذا لو اتّصل بأخيه، ليعلن انتصاره بالهرب؟ ماذا لو لم نجدْه أبدًا؟ ماذا لو قُتلَ أو تعرّض للأذى؟ ماذا لو عرّضَ غيرَه للأذى؟ قل لي أيّها الطَّبيب حينها، ماذا سنجني من سكوتِنا غير الفضيحةِ، وماذا سنستفيدُ؟

- نحن يا سيّدي لن نسكتَ عن هذه المُصيبةِ، دونَ أن نجدَ لها حلًّا، لكن، نحنُ نحاولُ تأجيلَ الحقيقة، ريثما يزولُ ظلامُ هذه الواقعة، الّتي نزلت على رؤوسنا أو يخفّفها. يمكنُنا أن نقولَ لاحقًا إنّ عمرَ مثلًا قام بإحراق غرفته، ممّا تسبّبَ في إحراقِ أجزاءٍ كبيرةٍ من المستشفى، وانشغلنا جميعًا في إطفاء ما راحت النّار تلتهمه، وإنقاذ ما يُمكننا إنقاذُه، وأنّه بفعله هذا تسبّبَ في هربِ العديد من المرضى، إلّا أنّنا استطعْنا اللّحاقَ بأكثرهم، وإرجاعهم، وسنُرجعُ عمرَ عن قريبٍ.

- ما هذا الكلام؟ أيّ حريق تقول عنه، والمشفى أمامَك لا خدشَ فيه أو تخريب؟

- وما المانعُ يا سيّدي من إلقاء عودِ كبريتٍ واحدٍ الآن، في غرفةِ عمرَ، وما حولَها، ثمّ نسيطرُ نحن بخبرتِنا على هذا الحريقِ، ويصبحُ هذا الدّليل؟

- ما بالُ عقلك اليوم قد جنّ تمامًا؟ أتريدني أن أحرقَ المشفى، وأن أخسرَ الكثيرَ؟

- خسارةٌ عن خسارةٍ تفرق يا سيّدي..

- ماذا تقصد بكلامك؟

- أفكّر بما أنت تفكّر به الآن، قليل من الخسارة قد يغني عن خسارة كبرى، فكّر جيّدًا، في حالنا إذا افتُضِح أمرُنا، وظهرْنا صاغرين أمام الجميع، فكّر في هذا الخبر فقط؛ "مستشفى عريق، يهربُ منه مريضٌ نفسيٌّ، في السّادسةَ عشرةَ من عمره، دون أن يوقفه أحدٌ من الموظّفين"

لم يستطعِ المديرُ أن ينطقَ بحرفٍ، وواصلَ الطّبيب سامر كلامَه قائلًا:

- ثمّ إنّ شركة التّأمين يا سيّدي ستتكفّلُ في العناية بالمشفى، وإرجاعه على أجمل حلّة. هذه فرصةٌ لتجديده.

- ألا توجدُ طريقةٌ غيرُ افتعالِ الحريقِ؟!

- هذه أنسبُ طريقة، وأكثرُها إقناعًا، نستطيعُ حينها القولَ أنّه كان ناقمًا، لعدم قدرته على إنقاذ والديه من الحريق، فأراد أن ينتقمَ من نفسه، فهو مريضٌ نفسيٌّ، وكثيرًا ما حاول إيذاءَ نفسه والآخرين!

لم يجدِ المديرُ ردًّا على ما قدّمه الدكتور سامر، ووافق مكرهًا. وفي هذه اللّيلة المشؤومة على الموظّفين، طرد العديد منهم، خاصّةً ممّن كانوا متواجدينَ في الطّابق والسّاحة الخارجيّة، وطرد الحارسَ، وأمرَ بإخفاءِ الأمرِ عن عامرٍ، إلى حين إيجاد عمر، خلال هذين اليومين.

***

(17)

عُــمَــر

مرّتِ الأيّامُ الخمسةُ الأولى هانئة بعض الشّيء على عمر، ومقيتة على المصحَّة ومن فيها. استمتع عمر بمشاهدة التّلفاز، والاستماع إلى صوت العصافير، وحفيف الشّجر المحيط ببيته الجديد، استمتع بالنّظر من النّافذة، ورؤية النّاس البسيطين، البعيدين عن التّكلّف والنّفاق، كلّ أحد في هذا الحيّ يعرف الآخر، ليس مثل الوضع في عمّان، فالجار في نفس العمارة ونفس الطّابق حتّى لا يعرفُ جارَه.

وحدي أنا الغريبُ بينهم هنا، ومع هذا، فإنّي لأوّل مرة أشعر بالألفة، وكأنّي بين أهلي وناسي! هؤلاء النّاس ببساطتهم، وطيبتهم استطاعوا أن يحتضنوني بينهم، دون أن يتعاملوا معي، صحيحٌ أنّني وحيد هنا بين أربعة جدران، إلا أنّي والله لم أشعر قطّ بوحدتي، حتّى هذه الجدران الغريبة لملمتِ انكساراتي، وربتتْ على كتفي، وخفّفت عنّي كثيرًا.

أنا متأكّدٌ أنّي خلال فترةٍ وجيزةٍ، سأستعيد طاقتي، وأُري الجميع وكلَّ من استصغرني، من هو عمر، سأكون جيش نفسي، في كلّ مرّة أخوض فيها معركة من معارك الحياة، في كلّ مرة أكون مضطّرا لمنازلة همومي، وأفكاري، وصراعاتي، سأستجمع جنود قلبي، وأحافظ على اتّزاني، سأتنفَّس بعمق، وأذكّر نفسي دائمًا، أنّي جيش نفسي! وإذا تكاثرت ڤايروسات الهمّ من حولي، وعشّشت داخل قلبي، ونسخت من نفسها ملايين المرّات، سأجعل من فؤادي برتقالًا! وسيبقَى شعاري على الدّوم: سأكون منعشًا، مبهجًا، حلوًا ومشرقًا. سأبدأ من الصّفر، وأعتمد على نفسي بعيدًا عنهم تمامًا، لهذا يجب أن أجدَ طريقة أسافر فيها، وأهرب من هنا، حينها فقط أستطيع أن أقول أنّي بدأت عمري من جديد، وكيفما أريد.

يقتلني الفضول، كم أتمنّى لو أعرف، بل وأرى ردّة فعل أخي عامر، عندما يعلم بهروبي، كم أتمنّى لو أرى وجهه المتفحّم، والنّيران مشتعلة من رأسه، وهو غير قادر على إخمادها، فيلجأ إلى دلاله، الّتي لا تفلح إلا بإشعال النّار أكثر، فتحرقه وتحرق نفسها، بسوء أفعالها، وحدها سارة الملاك بينهما، آخ كم اشتقت لها، كم اشتقت لأن أراها، فتلقي عنّي أحمالًا من الهمّ والأسى، وتصبح

طيّ النّسيان. كم أتمنّى أن أسمع صوتها العذب، وصخبها الحلو، كم أشتاق لبراءتها العفويّة، وكلامها المعسول، كم أتمنّى أن آخذ بيدها، وأذهب بها إلى البقّالة، وأشتري لها كلّ ما تقع عينها عليه، أستمتع بدلالها، وأنتشي بغنجها، وأبتهج بمسكة يدها الصّغيرة، وهي تحاوط يدي.

ألم يكن الحال أفضل، لو كانت عائلتي تستحقّ اسم العائلة؟ ماذا كان يضيرهم لو بقيتُ إلى جانبهم، ألهذا الحدّ وجودي كان غير مرغوب فيه؟ ألهذا الحدّ كنتُ ثقيلًا عليهم، ألستُ من نفس الدّم؟ كيف هان عليهم إلقائي في المصحَّة؟ كيف هانت عليهم دموعي؟ ألم يكفهم ما قاسيته بفقد أمّي وأبي؟ ما الجرم الّذي اقترفته في حقّهم؟ أراضٍ عنهم النّوم الآن أم جافاهم؟ أهانئ بالهم اليوم، أم بأفعالهم تعكّر؟ لن أنسى لكم ما فعلتم بي، والله إنّي سأذيقكم من نفس الكأس الّتي تجرّعتها، والله إنّكم ستندمون على سوء أفعالكم.

ولكن، ماذا لو عرفوا طريقي، وأمسكوا بي؟ ماذا لو أرجعوني إلى ذلك المكان المقيت، ومنعوا حرّيتي؟ ماذا لو وقفوا أمام أحلامي، ومنعوها؟ لن يقف معي أحد حينها، سأموت في حسرتي، حتّى إيلاف لن تساندني،

فيكفيها ما عانته بسببي، فقد عرّضت نفسها للخطر من أجلي، بالتأكيد ستنسحب! ماذا لو نشروا عنّي في التّلفاز، ونشرات الأخبار، والصّحف والجرائد؟ ماذا لو شكا عنّي العم إبراهيم؟ فأنا ما زلت غريبًا بالنّسبة له! ماذا لو ندم الحارسُ رياض على استضافتي، في بيته؟ أو خشي على إيلاف خوفًا من أكون من أصحاب السّوابق! أين أذهب بحالي؟ أيّ الطّرق أسلك، وكلّ الطّرق في وجهي أغلقت؟

يجب أن أتصرّف سريعًا، يجب أن أفكّر بطريقة أضمن فيها حرّيّتي، لن أسمح أبدًا لأيّ كائنٍ أن يتحكّم بي، أو أن يؤذيني، لن أسمح لأيِّ أحدٍ أن يستهين بي وبقوّتي..

***

(18)

عـامر رشيــد

جُنّ جنون عامر، كاد يفقد عقله تمامًا، لم يترك شيئًا في البيت، دون أن يُلقي به، ويراه أمامه وهو يتهشَّم، ويتكسّر إلى قطعٍ صغيرةٍ جدًّا، زمجر في البيت، وزأر بأعلى صوته، لم يستطع أحدٌ في البيت أن يخمدَ بركانَه، حتّى دلال زوجته فشلت في هذا، حملت سارة بين يديها، وهمّت بالخروج هاربة من البيت، بعد أن تحوّل إلى دمار شديد، أرادت أن تهربَ بابنتها إلى بيت أهلها، قبل أن يقضي عليهما؛ فهو بات قنبلة موقوتة، ستنفجرُ قريبًا، وتدمّر كلّ شيء من حولها، شعرت بالأسى لتركها زوجها وحيدًا في المنزل، يصارع نفسه والجدران وكلّ الجمادات من حوله، إلّا إنّ هروبها سيكون الأفضل، فهذا البركان لابدّ أن يُخمد في أيّ لحظة، ويعود إلى سابق عهده، وحينها فقط تستطيع أن تعود وتخفّف عنه. خرجت دلال وتركت شبحَ عمرَ يُصارعُ أخاه.

صرخ عامر بعلو صوته:

- كيف خرجت أيّها المجنون؟!

جاءه الرَّدُ من النَّاحية الأخرى، على هيئة الصَّدى:

- خرجت لأريك، خرجت لأنتقم منك، وأنسيك كلّ لحظة صفو عشتها، وأنا أبكي في سجني الّذي وضعتني فيه، دون أن تأبه لتوسّلاتي ورجاءاتي، خرجت لأريك من هو عمر، خرجتُ لأجتثّ عقلك بين يدي وأمضغه. وأراك أمامي صاغرًا منكسرًا، تتوسَّل إليّ، وترجو منّي رحمة، لكن، هيهات لك ذلك، خرجتُ لأسقيكَ من نفس الكأس الَّتي تجرّعتها، خرجتُ لتتبدّل الأدوارَ، وأحظى هنا بحرّيّتي، وأنت تموت ميتة المتخاذلين، في تلك المصحّة النّفسيّة.

- لكنّي، فعلْتُ كلَّ هذا من أجلك، من أجل أن تتعافى.

- أتعافى؟ ممّ؟ أنت تعلم أنّي بكامل صحّتي، وتعافيّ هذا يكون بالبُعد عنك وعن أخي فؤاد، ذلك الأنانيّ المدلّل، الّذي لا يهتمّ إلّا بنفسه.

- لقد مررْتَ بصدمةٍ صعبةٍ جدًّا، لقد رأيتَ أمّي وأبي يحترقان أمامك، أنت ما زلت تحتاج إلى التّعافي، أين خرجت وكيف خرجت يا أخي؟ من المسؤول عن هذا؟ من الذي تجرّأ وساعدك؟ لا بدّ أنّه الأستاذ نزيه خير،

والله إنّي سأريّنك يا أيّها الأستاذ الفضوليّ، والله إنّي لن أتهاون معك أبدًا، يجب أن أقتصّ منك، على ما سوّلت له نفسك، قلت لك: لا تتدخَّل، حذّرتك ونبّهتك، لكنّك للأسف عاندْتَ، فذق ثمرةَ عنادك أيّها الفظّ الأبله.

خرج عامرٌ وهو يستشيط غضبًا، اعتلى مركبته، وراح يسابق فيها الرّيح، قاصدًا بيت الأستاذ نزيه. كلّ السَّيَّارات من حوله، تجنَّبته، وتركتْ له الطّريق كاملًا، دعس فجأة على فرامل السّيّارة فنبحت بصوتٍ عالٍ جدًّا، وأثارتِ الغبارَ من حولها، قبلَ أن تتوقّفَ.

خرجَ مسرعًا، وبكلّ ما أوتي من قوّة، أخذ يطرق ذلك الباب الخشبيّ، ليخرج الأستاذ نزيه فزعًا، وما أن فتح الباب، حتى باغته عامر بلكمة أدمت وجهه المنير، وأسقطته في الحال على الأرض، صرخَ بعلو صوته: أين أخفيته أيُّها المتآمر؟ أين هو الآن أيُّها العجوز الخرف؟ قل لي وإلَّا أنسيتك من تكون. تجمّع الجيران والمارّة، وأمسكوا بعامر، صارخين فيه: لقد جننت، أتضرب الأستاذ الجليل نزيه خير!

- ذلك الأستاذ هرّب أخي المريض، من المصحّة النّفسيّة، وأخفاه عنده، أنا متأكِّد.

تحامل الأستاذ نزيه لينطق كلماته:

- لم أقم بشيء ممّا تقول، ولم أرَ عمرَ منذ ذلك اليوم، الّذي منعتني عنه تمامًا، فكيف أهرّبه؟

- لا علم لي بأساليبك الملتوية، لكن، والله لن أسكت عن هذا، وسأذيقك جرَّاء ما سوّلت له نفسك شرّ ما أذقتني.

***

(19)

عُمــر

في 20 من آذار. طوَّقتْ سيَّارات الشُّرطة المنطقة، وتدافع رجالُ الأمن كالجراد المنثور، انتشروا في كلّ مكان، فتّشوا العمارات والمباني، والأزقّة والدّكاكين، بحثًا عن عمر، الّذي لم يظهر له أثر، انتشر الخبر في كلّ مكان:

"مريض نفسيٌّ من الدّرجة الخطيرة، يحرق مصحَّة نفسيّة، ويلوذ بالهرب منها".

انتشرت صور عمر على الجدران، بينما كان قابعًا في هذا المنزل، يقلّب قنوات التّلفاز، وإذ به يُفاجأ بهذا التّقرير اللّعين...

ظهر في تقرير الأخبار، تفعيل أوّل حظر تجوّل شامل، بسبب تفشّي فيروس كورونا، ابتداءً من يوم غدٍ، كما ظهر لقاء مع أخيه عامر، الّذي راح يناشد الجميع للمساعدة على العثور على عمر، بوصفه على أنّه

مريضٌ نفسيٌّ، من الدَّرجة الخطيرة، وأنَّه بفراره هذا سيتسبَّب بخطر كبير على نفسه وعلى غيره، رأى صورته، مرفقة مع هذا الخبر اللَّعين.

كما ظهر في التّقرير لقاء مع مدير المصحّة، برفقة الطَّبيب المشرف على حالة عمر (سامر السّفاريني)، اللَّذين ادَّعيا بدورهما إقدام عمر على حرق المصحَّة، والهرب برفقة مجموعة من المرضى النَّفسيّين في هذه المصحّة، غير أنّهم استطاعوا أن يعثروا على المرضى، وأن يرجعوا بهم إلى المصحّة، ولم يبق إلّا عمر.

وظهر في هذا التَّقرير، قيام الشّرطة بمداهمة منزل الأستاذ نزيه واعتقاله بتهمة التّواطؤ في قضيّة هروب عمر!

لم يتمالك عمر نفسه، ولم يُطق أن يسمع أو يرى مزيدًا من التّلفيق والتّدليس في حقّه، وحقّ الأستاذ نزيه، ذلك المسكين، الّذي طاله الظّلم، لمجرّد أنّه كلّم أخاه عنه، وأراد أن يقف إلى جانبه.

"يبدو أنْ لا حقّ لي في أيّ فرح، وأنّ عليّ أنْ أبقى مهمومًا حزينًا"

***

(20)

إيــلَاف

وصل الخبر أيضًا إلى إيلاف! سيطرَ القلقُ، عليها وبلغَ بها أعظم جلل، لم تستطع أن تخفي قلقها، صحيحٌ أنّها في نظر المستشفى والعاملين عليه، كانت في فترة مغادرة، وبالتّالي من المفترض أن تكون بعيدة عن الشّبهات، إلّا أنّها تسمَّرت في مكانها، وازرقّ وجهها، راح التَّوتُّر ينهش في معدتها، حتَّى شعرَتْ بمغص شديد، وجفاف في الحلق، منعها من القدرة على الكلام، غارتْ شفتاها إلى الدَّاخل، وما عادتْ قدماها قادرتين على حملها.

اتّصلت الأمُّ في الحال بخالد، الّذي جاء على الفور ليطمئنّ على حالها.

حبستْ نفسها في الغرفة، وامتنعت عن فتح الباب، ارتعدَ والداها خوفًا عليها، وأشارا إلى كسر الباب، خشيا أن تؤذي نفسها.

طرق خالدٌ على الباب طرقات هستيريّة، واندفع بكلّ ثقله كثور هائج، حتّى كسر الباب، كانت هناك جالسة على الأرض، ترتعد بكلِّ ما فيها، غارقة في دموعها، انفجرت أمُّها بكاء على حالها، وأمسك الأب بكتفها، يستجديها أن تقول أيّ شيء، أن تعبّر عن حالها، وتذكر ما ألمَّ بها، وما الّذي جعلها هكذا.

اقترب منها خالد، وحاول أن يطمئنها:

- إيلاف، ما الّذي أصابك؟ ما الّذي جعلك تنفجرين هكذا؟ لا تقلقينا أكثر، تكلّمي.

بدت إيلاف خائفة جدًّا، ولم تنطق ببنة شفة، نظرت في خالدٍ، وكأنَّها تستجديه بنظراتها، ليبقيا وحدهما، دون أن يسمع والداها ما تريد أن تقول.

خرج الأبوان المسكينان، والخوف يأكل قلبيهما، خرجا كارهينِ، فهما يريدان فقط أن يصلا إلى حلّ مع إيلاف، يجعلها تفضفض وتتحدّث، حتّى لا تنفجر بكلّ ما فيها من آلام.

- ها نحن الآن وحدنا، تحدّثي، ماذا جرى؟ أعدك أنّي سأقف إلى جانبك، وأجد حلًّا معك، حتَّى لو بدا صعبًا.

عادت إيلاف إلى وتيرتها، وحفرت الدُّموع مستنقعات على وجنتيها، بينما واصل خالد استجداءه كي تتكلَّم!

- والله إنّي لا أعرف ماذا أقول لك.

- تحدّثي يا إيلاف...

- فعلْتُ ما حذّرتني منه مرارًا، لم أتوقّع أن يصل الأمر إلى هنا.

- توقّفي يا إيلاف عن المقدّمات، وتحدّثي بسرعة، ماذا فعلت؟

- في آخر يوم التقينا فيه أنا وأنت في الحديقة، كنتُ ما أزال أفكّر في مساعدة عمر، ذلك الفتى الَّذي أخبرتك عنه، ولم أكن مقتنعة بأنَّ عليّ أن ألغي إنسانيّتي، وألَّا أساعده.

- وماذا فعلت؟

- لقد ساعدْتُه على الهرب.

- ماذا؟ كيف قمت بمثل هذا الأمر؟ وأين هو الآن؟

- ساعدني الحارس رياض، واستضافه في منزله الكائن في السّلط.

- مهلًا مهلًا، لا أصدّق، كيف فعلت كلّ هذا؟ كيف لم تفكّري بعواقبِ فعلتك هذه؟

- لا تلمني، هذا هو قلبي، فأنا لا أستيطع أن أرى مظلومًا، وأقعد مكتوفة اليدين، دون أن أساعد.

- لكنّك لم تساعديه، أنت تسبّبت في أكبر مشكلة. ماذا لو عرّض نفسه للخطر، أو آذى غيره؟ إنّه مريض نفسيّ، أيجب أن نعلّمك نحن عملك؟

- لا، ليس مريضًا نفسيًّا، إنّه فتًى عاقلٌ، ذكيٌّ حسَّاسٌ مظلومٌ، تعرّض لظلمٍ شديدٍ بسبب أخويه الحاقدين.

- وما أدراك بسلامته؟ كيف يمكن لمصحّة عريقة، أن تستقبل عندها سليمًا؟

- هذا أمر عاديّ جدًّا، فمن أجل المال يحدث كلُّ شيء.

- دعينا من الحديث هذا الآن، وقولي لي: كيف استطاع رياض أن يخبّئه في منزله في السّلط، وهو لم يغادر؟

- لقد ساعده العمّ إبراهيم.

- ومن هذا الآخر يا إيلاف؟!

- صاحب محلّ الخضروات والفواكه، القريبة من منزل الحارس، رجلٌ طيّبٌ، وضع رياض مفتاح بيته عنده، لتأجيره.

- علينا أن نبحث عن حلّ الآن.

- يوجد مصيبة أخرى يا خالد.

تنهّد خالدٌ، قائلًا:

- حقًّا إنّ المصائبَ لا تأتي فرادى، ماذا أيضًا؟

- لقد احتجزُوا الأستاذ نزيه، الّذي حدّثتك عنه ظلمًا، معتقدين أنّه السّبب في هرب عمر من المصحّة، وأنّه يخفيه.

- هذه مصيبة. أرأيْتِ بما تسبّبتِ؟

- أعلمُ أنّي أخطأت، وأنا من سأتحمّل نتيجةَ خطئي هذا، أريد أن توصلني إلى المغفر، لأعترف بكلّ أمر، لن أسمح بأن يُسجنَ الأستاذ نزيه بسببي.

- لن أقبل بهذا أبدًا. دعينا نفكّر بحلٍّ أنسبَ.

- لا يوجد حلٌّ آخرُ، صدّقني.

- كفّي عن هذا الهراء، ودعيني الآن، أتصرّف.

- وكيف ستتصرّف؟

- يجب أن يعودَ عمر إلى المستشفى.

- لا، لن أقبل بهذا! فبعدَ أن انتصر بهربه أخيرًا، أرجعه أنا مرّة أخرى إلى المصحّة؟! بعد أن ذاق طعم الحرّيّة أخيرًا، وبعد معاناة لأربعة أشهر، وتقول لي الآن: يجب أن يعود إلى المصحّة!

- إيلاف، استخدمي عقلك رجاء، ودعي عاطفتك جانبًا، ألا ترين أنّك بعاطفتك هذه، ورغبتك بالمساعدة، قد تسبّبت في إيذاء أشخاصٍ آخرين؟ تسبّبْتِ في إيذاء الأستاذ نزيه المسكين، والله أعلم أيضًا في ما ستتسبّبين قريبًا، إن لم نتصرّف بسرعة، ونحلّ هذه المشكلة! فكّري في رياض، إذا عرفُوا بأمرِ استضافته هاربًا في منزله، ماذا سيحصل له أيضًا؟ فكّري في العمّ إبراهيم، إذا عُلم بتستّره عن هارب، ومساعدته له؟ ماذا سيجري بأمّك وأبيك، بل ماذا سيجري بي إن اقتادوك إلى السّجن؟ ماذا لو فقدت عملك بسبب فتى مراهق، بدلًا من أن تساعديه، تسبّبت في كوارث أكبر؟! فكّري معي فقط،

ذلك الفتى، يقيم آكلًا شاربًا نائمًا معزّزًا آمنًا في مصحّة نفسيّة، ترعاه وتعتني به، وليس هاربًا في منزل وحده، وهو يعلم أنّه سيبقى مطاردًا، ومن يدري، فقد يعرّض نفسه للخطر؟! فهو ما زال مراهقًا.. فكّري جيّدًا ثم أخبريني، بحلٍّ أفضلَ من عودته إلى المصحَّة، وبذلك يخرج الأستاذ نزيه، ونكفّ الأذى المحتمل عن الجميع.

سكتت إيلاف، وبدتْ عاجزة عن الدّفاع عن فكرتها، بينما واصلَ خالدٌ قوله:

- ثمّ ألم تسمعي بخبر انتشار فيروس (كورونا)، وبقرار حظر التَّجوُّل ابتداء من السّابعة، صباح يوم غد؟!

- بلى سمعتُ، لكنْ، لم أبذل أيّ جهدٍ في التّركيز في الخبر، فقد انشغلْتُ بأمر عمر، عن أيّ أمرٍ آخر. أليس مبكّرًا على قرار الحظر هذا؟

- أبدًا يا إيلاف، فالوضع بات متأزّمًا، بعد أن سجّلت الأردنّ إلى الآن 69 حالة مؤكّدة. فأغلقتْ كلّ المنافذ البحريّة والبرّيّة، وتوقّفت حركة الطّيران! فكّري معي جيّدًا؟ ماذا سيحصل مع عمر؟ سيبقى في المنزل، ولن يصبح قادرًا على أن يتحرّك من مكانه، ليشتري إن نفد الطّعام عنده، كما أنّه لن يتمكّن من الهرب إلى أيّ مكان؟ وستتمكّن الشّرطة من الإمساك به قريبًا، وحينها ستتأزّم المشكلة أكثر!

- حسنًا، اقتنعتُ، لكن، دعْني آتي معك، لأقنع عمر بهذا، أرفضُ أن أظهر أنا وأخوته وكلّ العالم بمثابة الخائنين

له، أريد أن يتفهمّني، ويعرف مقصدي. أريد فقط أن أهيّئه لهذا الخبر الصّعب.

- حسنًا، فلْنذهب الآن. فمثل هذا الأمر لا يحتملُ التّسويف أو التّأجيل.

***

(21)

عُــمَــر

لا تفرحْ يا عمر! فالفرح بأمثالك لا يليق، ليس لك أن تعيش حرًّا، ليس لك أن تبقى سعيدًا، ليس لك أن تكون كما يحلو لك، وكما تريد! ليس لك إلّا أن تكون مثل دُميةٍ، في أيدي الجميع. ستبقى ضعيفًا أسيرًا لرغبات غيرك، لن يكون لك إلَّا النّصف من كلّ شيء، فتعايش على هذا! ستبقى هشّا، فاترك عنك قناع القوّة، ولا تبدّل جلدك، ولا تجعل من زئير الأسد صوتًا لك، لا تحلم بأكثر ممّا تستحقّ، لا تحلم بأنصار وأحباب، الكلّ سيخونك، ولا يد ستمدّ لك، والداك تركاك في أوّل الطّريق، وغادرا هذه الدّنيا، أخواك اختارا لك مكانًا تكون فيه بعيدًا عن آمالهم وأحلامهم، أستاذك انسحب عن دعمك والدّفاع عنك، في أوّل مرّة مُنع عنك، حتّى إيلاف، إيّاك أن تعتقد أنّها ستكمل معك الطّريق، فيكفيها ما قامت به، ولا تستبعد أن تبلغ عنك عمّا قريب، فترجع إلى ذلك السّجن الّذي كنت فيه. من تنتظر أيُّها المسكين؟

وممَّن ترجو الأمل أيّها الغشيم؟ ادفن نفسك في الأرض، أو ابحث وحدك عن الطّريق، لا تنتظر فضلًا من غيرك، ولا تستجد أملًا من أحد، ولا تر الذّئب حملًا، فيكفيك ما أنت فيه.

صوت الطَّرق على الباب أيقظني، وطرد أشباح اللّوم من رأسي..

"تُرى من يكون الطّارق الآن؟ وفي مثل هذا الوقت المتأخّر من الليل؟ من الّذي علم بمكاني، وجاء ليقضي عليّ؟"

حرّضتني أفكاري:

- "عليك أن تهربَ!"

- لكن، أين السّبيل؟

- "عليك أن تنفدَ بجلدك، قبل أن يُرجعوك إلى ذلك المكان الحقير"

الإصرار في الطّرق على الباب شلّ تفكيري، وحجب عنّي كلّ تركيز. اتّجهتُ نحو الباب، وبيدي أمسكُ

السِّكِّين، لأمنع بها كلّ من تسوّل له نفسه بالاقتراب منّي. فتحت الباب، لأجدها...

إنّها إيلاف! ما الّذي أتى بها في مثل هذا الوقت المتأخّر من اللّيل؟! ليتها كانت وحدها، لكنّ وجهًا آخرَ غيرَ مرغوبٍ فيه تمامًا، كان يقف من خلفها، استقبلني بنظرة لم أجد لها تفسيرًا، شعرْتُ أنّه يخفي من خلفها الكثير. بقيت مشدوهًا أمامهما، ولم أنبس بكلمة واحدة، أو أرحّب بهما.

كثيرًا ما كنت أنتظر إيلاف، وأنا في سجني ذاك، إلّا أنّها المرّة الأولى، الّتي لم أنتظر مجيئها حتّى، إذ لم أشعر أنّ مجيئها إلّا بمثابة الطّعنة لي!

- أعرّفك يا خالد، هذا عمر، صديقي الّذي حدّثتك عنه كثيرًا.

- أهلًا يا عمر. كيف حالك؟

بقي عمر متسمّرًا في مكانه، ولم ينطق، بينما تابعت إيلاف حماسها في التّعريف:

- وهذا خطيبي خالد.

قلت كمن استيقظ للتوّ من نومه:

- أهلًا.

- ألا نجلس يا عمر؟ (قالت إيلاف)

- لو كان هذا بيتي لكنت لكما نعم المضيف، ولكنّي هنا مجرّد هارب نزيل.

- في الحقيقة، لا أعلم ماذا أقول لك يا عمر، وأعرف أنّ كلامي سيزعجك.

- لا تقلقي، لقد شاهدت الأخبار، وأعتقد أنّ مشوار الهرب هذا سينتهي الآن.

- لقد سجنوا الأستاذ نزيه، وأنتَ بالتّأكيد لا يرضيك أن يبيت مظلومًا في السّجن.

أومأ عمر برأسه، دون أن ينطق بكلمة أو حرف.

- جئت هنا لأطلب منك أن ترجع معنا إلى عمّان، فالشّرطة قد انتشرت في كلّ مكان، يبحثون عنك، ولا بدّ لهم أن يجدوك. أريد أن تكونَ فتًى مطيعًا، وأن تثقَ بي، فأنا سأبحث عن طريقة أخرجكَ فيها من المصحّة إلى الأبد، ولكن دعنا نستخدم الطّريق الصّحيح.

لأوَّل مرَّة لم يعجبني كلامُها. كنت أتمنّى لو أستطيع أن آمرها بالسُّكوت. ولكن، ما فائدة هذا؟

أنت تعرف أيُّها المسكين، أنَّك الآن مستسلم، وستعود معها تجرّ أذيال الخيبة، وتقعد وحيدًا في تلك الغرفة، وإلى أبد الآبدين. (قلْتُ في نفسي)

وقفتُ كمن يُريد أن يثبت للجميع أنّي غير آبه، وقفتُ لأظهر أنّي مستعدٌّ لهذه الخطوة. وقفتُ ووقفتْ أمامي آلاف الهموم، تشير لي بأيديها ساخرة:

"آن الأوان أيّها المسكين".

ربتَ خالد على كتفي، كمحاولة منه لأداء دور فاشل في التّمثيل. قلتُ:

- وماذا عنك يا إيلاف؟ كيف ستخرجين من هذا المأزق؟ كيف ستواجهين الشّرطة؟ ماذا ستقولين لهم؟ أين وجدْتِني؟ وكيف أتيت بي من جديد؟

قال خالدٌ متدخّلًا، وكأنّه يملك زمام الرّد عنها:

- ما رأيك يا عمر، لو تدخل المغفر وحدك، وتسلّم نفسك، دفاعًا عن الأستاذ نزيه، وأن تخبر الشّرطة

بهربك، وأنّك لم تجد مكانًا تذهب إليه، ولا يُرضيك أن يتضرّر الأستاذ نزيه بسببك، وهو مظلوم؟

- وكيف أذهب إلى المغفر؟

- سأنزلك في الشّارع الخلفيّ، ونمضي نحن، وتكمل أنت مسيرتك، ما رأيك؟

- حسنًا.

- هيّا إذًا، لا وقت لدينا، فلنركب السّيّارة، ونتّجه إلى عمّان.

ودَّعتُ البيت والأشجار والشّارع والجيران، الّذين لم ألتق بهم، كانت الظّلمة سيّدة المكان، وكأنّها أعلنتِ الحداد لرحيلي. صحيح أنّ إقامتي لم تتعدّ خمسة أيّام، إلّا أنّي شعرت بأنّها خمس سنوات، على أقلّ تقدير. بدت لي الأشجار ناكسة حزينة، ركبت السّيّارة، ومضينا ثلاثتنا إلى عمّان، كنت أتمنّى لو أنّ الطريق يكون طويلًا، إلّا أنّ فلسفة الزّمن أيضًا عاندتني؛ فالأشياء الجميلة لا تطول، وما تهرب منه تجده أمامك! لاحت لي لوحة "هنا عمّان" وكأنّها تسخر منّي، وتضحك بملء فيها. ازدردتُ ريقي، وحبست دمعة أوشكت على النّزول. آمنت في قرارة نفسي أنّ طريق الظّلم طويلٌ طويلٌ.

ركن خالد سيّارته في الشّارع الخلفيّ، وأدارت إيلاف ظهرها نحوي، تودّعني بكلمات تخفي من خلالها دموعها:

- أعدك يا عمر أنّي لن أتركك، وأنّي....

- أرجوك لا تعديني أكثر، فيكفيني ما جرى لي من مرّ الوعود!

نزلتُ مسرعًا، لم أعدْ أحتملُ المزيدَ من الشُّعور بالشَّفقة، ولا رغبةَ لي بسماعِ الكلامِ الَّذي لا فائدة منه. مضيْتُ في طريقي، واختفت السّيّارة من الشّارع، وكأنّ ظلام اللّيل قد ابتلعها، ولم يعدْ في الشّارع صوتٌ غيرَ صوتِ خطواتي الكارهة...

***

على المقعدِ الخشبيّ، وسطَ باحةِ المستشفى الخضراء، جلسَ عمرُ يفكّر في حكايته الّتي بدأت، ويبدو أنَّها لن تنتهي قبل أن تقضي عليه!

سرحَ للحظةٍ في هذا العالم، الَّذي يغصُّ بالوجوه الكثيرة، والشَّخصيَّات العديدة، تفكّرَ في ذلك الاختلاف، في مصائر الخلق كلّهم، فهذا سعيدٌ وذاك شقيٌّ، وهذا في حلٍّ من أمره، وآخرُ في أسره مسجون، لا يملك في حياته إلّا قوتَ يومه! وهذا محظوظٌ بأسرة متحابّة، والآخر يعاني من تجبّرٍ وقيود!

"لماذا لا نعيش في عالمٍ واحدٍ، ومنهجٍ واحدٍ؟ لماذا علينا أن نغيّر من أفئدتنا، بينما خُلقنا بقلوبٍ مُتشابهةٍ؟!"

تأمّل عمر في كلّ شي من حوله، وكأنّه يبحثُ في الجمادات عن الأجوبة! لمحَ ذلك الطَّيرَ الّذي راح يغرّد بأعذب الألحان، متّخذًا غصن الشَّجرة مكانًا يقف عليه.

ذلك العصفور الصَّغير، بدا أمامه كائنًا ضخمًا جدًّا، يمدُّ بجناحيه الملوَّنين، في وجهه، ويقهقه ساخرًا من ضعفه وعجزه، في صوت تغريده سمعَ أبشع الكلام، لم يكن قادرًا على إيقاف تلك العبارات الّتي باتت تزعجه، وتزيد من غيظه، إذ إنّ كلّ عبارة كان يسمعها كانت تعبّر عنّه تمامًا. كانت تصف ضعفه وعناءه، وغدر كلّ النّاس من حوله، لم يعدْ يثق حتّى بظلّه، كلّ النَّاس من حوله يتقنونَ فنون الكلام المعسول والتّمثيل، لا يوجدُ من يهتمّ لأمره، لا يوجد من يحسّ بهمّه، يفرحُ الجميع

لرؤيته ضعيفًا، وكأنّ هذا المشهد يزيدُ من قوّتهم وجبروتهم، فيتنافسون على توجيه السّكّين حيثُ قلبه، لطعنه ورؤية دمائه، لا يُعجبُهم من الألوان إلّا الأحمر، لون الدّماء...

- إنّهم يستلذّون بإدمائي، يريدون أن يمضغوا قلبي، بعد أن ينتشلوه من وسط صدري، يطربهم صوت أنيني ووجعي، لكن، إلى متى؟ إلى متى أتجرّع سيول القهر والعذاب، وأراهم يتفنّنون في إيلامي؟ إلى متى سيحجبون نور الشّمس عنّي، ويُلقون بي في مهاوي الرّدى؟ إلى متى سأبقى عمر الضّعيف البسيط، الّذي لا يستطيع أن يعيش كما يريد؟ إلى متى سيحاولون سلبي عقلي، وتشكيله كيفما يريدون كقطعة معجون بائسة؟ وإلى متى سأنخدع بقناع المكر والغدر؟ ولا أحسّ بطعم الفرح، إلى متى؟

خنقتْهُ الكلماتُ، ضجَّت برأسه الأفكار المزدحمة، كاد صوتُها لشدّة علوّه يصمُّ أُذنيه، وضع كلتا يديه على أذنيه، ليمنعهما عن التّوغّل في هامته، وفجأةً، شعرَ بيدٍ تحتلُّ كتفه، ظنّ للحظة أنّها يد الأستاذ نزيه، جاءه ليخلّصه من هذا المكان! التفَتَ إلى يمينه، وليته ما التفت! لم يكن في مزاجٍ لأنْ يلتقيَ بأحدٍ من هذه

المصحّة، فما بالك لو كان هذا الشّخص الدّكتور سامر السّفاريني! وليته كان وحده، فقد كان إلى جانبه مدير المشفى! وأعينهما تقدح شررًا. قلْتُ في عقلي:

" وكأنّ هذا كان ينقصني! ما هذا اليوم السّيّئ من أوّله؟"

بادرَ المديرُ بلهجةٍ ساخرة:

- أهلا بك أيّها الجرو اللَّعوب!

(هتفَ الدّكتور سامر)

- لكنّه الآن أصبح جروًا مطيعًا، إذ إنّ مكره ونجاحه في الهرب من هنا، قبل ثلاثة أشهر، لن يتكرّر أبدًا، لا بدّ أنّهُ أصبح يعدُّ للعشرة، قبل أن يتّخذ قرارًا كهذا، فكلّ محاولاته ستفشل، فمصيره لا بدّ أن يبقى في ضيافتنا.

نظرت في أعينهما بتحدٍّ:

- أعدكما أنّي سأخرج من هنا قريبًا، رغمًا عنكما وعن أنف الجميع..

حام الدّكتور سامر من حولي ساخرًا:

- حاول أن تقلّل من أحلام اليقظة أيّها المجنون، واقنع بحياتك الجديدة هذه وارضَ بها. لا ترفع سقف توقّعاتك، ولا تنظر إلى ما هو أبعد من أفقك. اقنع بما أنت عليه، أنت المسؤول الأوّل والأخير عن بقائك هنا، لا تلعبْ دور الضَّحيّة أبدًا، ولا تُلقِ الملام على إخوتك وغيرك، وتعايشْ على هذا، لو أنّك التزمت بتناول دوائك بدلًا من الامتناع عنه، ورضيْتَ بطوْعكَ أن تكون معنا، حتَّى تتعافى، ويحين الوقت لأن تخرج من هنا سليمًا صحيحًا، لكانت حالُك أفضلَ من هذا.

- لن تقنعاني بما تقولانه، فأنا أعقل منكما، ومن كلّ شخص يعمل في هذا المكان، لكنَّكم تريدون سلبي عقلي، تريدون أن أعيش في عالم ترسموه لي، عالم من الخداع والتّزييف، وأنا سأقاومُ وأقاومُ، لن أسمح لكم برسم طريقي، لن أسمح لكم بإيذائي، لن أسمح لكم بإضعافي وإذلالي، لن أكونَ لكم إلّا كما أريد أن أكونَ! هذه حياتي لا حياتكم أنتم، وأنا المسؤول عن قضائها كما أريد، لن تُميتوا بداخلي طموحاتي، ولن تخمدوا بشروركم عزيمتي!

ردّ المدير بتحدٍّ:

- إذًا، اسمح لنا بتمديد فترة إقامتك عندنا، وتعايشْ على أن تبقى بين هذه الجدران، فأنتَ من ترفضُ التّعاونَ بحقّ نفسك! ولتتذكّر دائمًا: لا أحدَ لك، ولن ينتشلك من هذه المعمعة الّتي وضعْت بها نفسك أحد، فارضَ بهذا، وكفاك تمرُّدًا، واعلم أنَّك مُجبرٌ لا مُخيّرٌ، ولا تملكُ من زمام أمرك إلّا وقتما تريدُ أن تنامَ أو تصحوَ، أمّا ما عدا هذا فننصحُكَ بنسيانهِ.

غصصتُ بالكلام، وازدردتُ ريقي، أردتُ أن أتمالك نفسي، قبل أن أصفع وجهيهما، اربدّ وجهي، وراح قلبي ينبض بسرعة كبيرة، أخذتُ نفسًا عميقًا، شعرْتُ وكأنَّي فأرٌ محاطٌ بقططٍ متآمرة.

لأوّل مرّةٍ أرى هذين الجرذين محقَّينِ، فلا أحدَ لي، ولا أحدَ معي. في مكاني هذا لن يكون لي إلّا الحرمان والذّلّ والتّقييد.

جاءني الصّوتُ من النّاحية الأخرى من عقلي:

"يا عمر، لملمْ شتاتَ نفسك، وانفضْ غبارَ الحزن عنك، في كلِّ يومٍ تجدُ نفسَك وسطَ عواصفِ الاتّهاماتِ والسَّلبيّة! امضِ نحو مكنستك، واكنس بها كلّ ما تجمّع من آثار الكلمات الجارحة. إيّاك أن تقع في فخّ

الفضفضة، فالكلام لا يُنسى، ولا بدّ لمستمعه يومًا أن يُعيده إليك ملوّثًا موبوءًا، ولن تنالَ حينها سوى الشَّنَف والكراهية لنفسك، على كلّ مرّة قرَّرت فيها ألّا تحفظ ما تشعر به داخلك، وألَّا تشاركه لغير ربّك. درّب نفسك على فنّ التّجاوز، تجاوز المواقف والأشخاص، حتَّى لا تقع في فخّ الكلمات الجارحة! درّب نفسك على الكتمان، ولا تتوقّع من أحد أن يهمّه أمرك، فأكثرهم لا يهمّهم إلّا أن يُشبعوا فضولهم فقط بما يريدون أن يستمعوا إليه، لتصبح كلماتك رهينة استوديوهاتهم التّحليليّة فقط، وليأتوا بها في وقت آخر، ويعايروك ويتلذّذوا فقط بطعنك بها، ويمارسوا عليك فنّ الاستفزاز! تخطَّ كلّ موقف سيّئ، وكلّ كلمة جارحة، وعشْ حياتك على الأمل، وابدأ كلّ يومٍ تعيشه من جديد. أنت محاطٌ بالفرص الكثيرة، انظر لها، واغتنمها، وكفاك لحاقًا بما فاتك وغادرك، هذه المواقف الصّعبة، خلقت منك إنسانًا أخر، بقالبٍ آخر، كلّ طعنة أصابتك، زادتك قوّة، وخلقت في داخلك الرّغبة في الانتقام! الانتقام من كلّ شخص استهان بك، إلى أن حان وقت القصاص، الفرصة أصبحت في يدك، فاقتلهم بنجاحاتك وصمودك، وابدأ من الآن!

نظر عمر في المدير والطّبيب نظرة تحدٍّ وثقة، ومعالم وجهه تظهر شعوره بالشّنف والاشمئزاز، من تصرفاتهما، وتصرّفات الجميع من حوله، وفي حياته! قال في نفسه:

" من اليوم هذا، سأكون لنفسي كلّ شيء، لن أتسوّل ودًّا من أحد، كي ينصرني، لن أشارك غيري همّي، فلن أجدَ معي غير نفسي! النّاسُ جُبلوا على التّبدّل والتّغيير، فاليوم أنا معك، وغدًا الله معك! هذا ديدنهم، وهذه شريعتهم، لا يثبتون على أمرٍ، ولا يتقيّدون بمبدأ! وأنا لن أذلّ نفسي أكثر من هذا، سأنال حرّيّتي بيدي، سأسعى لنفسي وراحتي، سأفكّر وأخطّط ولنفسي أنتصر! وحينها فقط سأنظر من علوي، وأراكم في الأسفل صاغرين ذليلين منكسرين، فمساعيكم الخبيثة، باءت بالفشل، واستعدْتُ حرّيّتي رغمًا عنكم وعن الجميع!

لستُ أدري ما الّذي يدفعُ امرءًا لأن يقحمَ نفسه في حياة الآخرين، يرسم مصائرهم، ويحدّد توجّهاتهم وتطلّعاتهم وأفكارهم، مدّعيًا أنّه يقوم بكلّ هذا من باب الإصلاح والتّحسين!

فيا أصحابَ الأعناق الطّويلة، الممتدّة في كلّ صوب، وكلّ ناحية، ارحموا أعناقكم، وارفقوا بها؛ فيكفيها ما

حمّلتموها من رؤوس كثيرة، بوجوه عديدة! ويا أصحاب الوجوه المتعدّدة، وأصحاب المبادئ المتناقضة، وأصحاب الجلود المتنوّعة، دعوا الأفاعي تمارس دورها الّذي خلقت له، واثبتوا على ما خلقتم أنتم عليه، وكفاكم تشكُّلا وتلوُّنا.

ويا أصحاب القلوب السَّوداء، الَّتي تفوح منها رائحة الغلّ والقذارة، أريحوا أنفسكم قليلًا، وكفُّوا عن الرَّقص مع الشَّياطين، عيشوا لمرَّة واحدة فقط بسلام، أو غادرونا بسلام.

ويا أصحاب المزاجات المتعفّنة، خذوا معكم أمراضكم النّفسيّة، وانصرفوا، اتّخذوا لأنفسكم مكانًا في قعر الأرض، وادفنوا رؤوسكم حيث لا يليق إلّا بها، وأريحوا العالم والدّنيا من ثغاءاتكم، وامضوا في طريقكم إلى الفناء." رغمَ أنَّهما استطاعا رؤية نظراتِي جيّدًا، إلَّا أنَّهما عجزا عن قراءتها!..

***

القسمُ الثَّالث

" لسْنا في حاجةٍ للشّجاعة، في هذا التّوقيت،
بل نحنُ في حاجة إلى الحذر"

هربرت جورج ويلز

(22)

عُــمَــر

ما أجملَ أن يشعرَ المرءُ بقيمة تذوُّق الأشياء! من طعام أو فنٍّ أو شعرٍ أو أدب، وما أجملَ أن يتذوّق المرءُ كلماتِه قبلَ أن يتقيَّأها أمامك! أن يتذوَّق أفعالَه قبل أن يتركَها تعدو أمامك، ملطَّخة بوحل الصّفات! ما أجمل أن يتذوّق المرءُ كلّ شيء، وأيّ شيء، أن يتقنَ هذا الفنّ، كما يتقن الرّسّام بريشته تذوّق لوحته، وكما يتقن الشّاعر رسم مشاعره بفيض الكلمات. وما أقبح ألّا يشعر المرءُ بكلِّ هذا! ألّا يدركُ كيفَ يمكنُ له أن يتذوّق الجمادات، الخيالات، الأفكار، الأفعال وكلّ كلّ شيء! والأكثر قبحًا أن يفقدَ المرءُ نعمةَ الذَّوق والاحترام. فيعيش في هذه الحياة فاقدًا قيمته واحترامه، وحسنَ سمعَتهِ وصيته بين الجميع.

حاد عمرُ نظرَهُ ناحية الباب، الّذي فُتح، على غير انتظار، وسرعان ما أطلّ من خلفه وجهان دميما الخلقة، برداءٍ أبيضَ!

علمتُ حالًا أنّي سأدخلُ الآن في دوّامة جديدة من العذاب والقهر! غاب عنّي التّفكير، تسمّر جسدي في هذه الكرسيّ البائسة، في هذه المرّة لم أقاوم! بينما كان عقلي يُلحُّ عليّ بقوله: قاومْ قاومْ، لا يسلمُ الجسد الضّعيف من المطاعن.

حرْتُ في أمري، فلأيٍّ أسمع؟ وبأيٍّ أعمل؟ ألصرصر عقلي أم حريق قلبي؟ تحاربُني عزيمتي، وتلومني أفكاري، أركضُ وأركضُ في مدارٍ واسعٍ لا ينتهي، ألهثُ وأغرقُ في بحار تعبي، أصرخ بملء فيّ: أين السّبيل؟ وكيف السّبيل؟

تقاتلني ذكرياتي وطفولتي، يأسرني وجه أمّي وأبي، تعاتبني لحظات صفوي، تهزأُ بي قدرتي، وينهشُني فؤادي، يسبحُ في محجر عينيَّ دمعي، ويبوح لي بألمي! أعيتني هذه الحبوب! وهدمتني هذه الحقن! أصبح جسدي مثخنًا بالجراح والنّدوب، والعجيب أنّه ما زالَ للمزيد يتّسع!

تراءتِ الأخيلةُ من حولي، تحاملْتُ قليلًا، محاولًا منعهما من تثبيتي، لكنْ، سرعانَ ما استسلمْتُ وأغلقتُ عينيّ، شعرْتُ بالكهرباء تخترق جسدي الّذي انتفض بقوّة، لهثْتُ كشريدٍ في وسط الصّحراء، حاولْتُ أن آخذ

نفسًا عميقًا، فخانَني نَفَسي! أردْت الصّراخ لأنهي هذا الكابوسَ، فحُجِبَ صوتي! نسيْتُ حروفَ اللّغة ومفرداتها، ضاعت منّي قوانين الكلام، بتُّ كطفلٍ لا يقدر على القول! تذبذبتْ عيناي، وترأرأتا للأعلى والأسفل، حرّكتُ رأسي في محاولة بائسة منّي للثّبات، سمعت لغوًا من حولي، لم أفهم مبتغاه! نمتُ نومتي الأبديّة، وسقطتُّ في حيّزٍ من الفراغ.

حلّ يومُ البعثِ، رأيْتُ نفسي في ساحةِ منزلنا، واللّيل أطبق أجفانه، سمعْت صوتًا خفيًّا، ارتعدْتُ في مكاني:

(والنّجم والشّجر يسجدان (6) والسّماء رفعها ووضع الميزان (7) ألّا تطغوا في الميزان (8) وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان (9))

اشتدّت حلكة اللّيل من حولي، نظرتُ في كلّ مكان، فلم أرَ غير ظلّي، هائمًا بهذا الفراغ! ضائعًا في دياجيري، مددتُ يدي لأبصرها، فابتلعها الظّلام، وجدتُ نفسي أودّع عالمي المظلم، لأدخل في عالم أشدّ ظلمة، ما عدْتُ أبصر شيئًا فيّ وفي ما حولي، تنافستِ الأصواتُ من حولي، في بثّ الرّعب فيما تبقى من مجسّم قلبي! رفعْتُ رأسي إلى الأفق، فأبصرْت نجومًا متلألئة، راقني منظرها للحظة، وما لبثْتُ في تأمّلي هذا حتّى رأيْتُ كائنًا

غريبًا، ليس بالطّير ولا بالحيوان ولا الإنسان، لعلّه خليط بينها، يمسك في يده كيسًا بنّيًّا من الجلد، يلتقط كلّ ما تأتي عليه يده من الّنجوم والنّيازك والكواكب، ويضعها فيه! التقط نجمة نجمة، ونيزكًا نيزكًا، وكوكبًا كوكبًا وفجأةً، سقط نيزك من جيبه، ثم غاب في عتمة الليل الدّامس.

خلّف النّيزك من خلفه حريقًا عظيمًا، راح يلتهم كلّ شيء، فهرعتُ لأنقذ أمّي وأبي، كانا خالدين في نومهما العميق في حجرتهما، طرقت الباب كثيرًا، ولم يستيقظا، صرخْتُ بعلو صوتي، وما سمعا! حاولْتُ أن أفتح الباب، إلّا أنّه كان مغلقًا، اندفعْتُ بكلّ ما أوتيت من قوّة، لأكسر الباب، فتحتُ الباب أخيرًا، ودخلت، وليتني ما دخلت! لقد كانا جثّتين متفحّمتين تمامًا، سقط الأمرُ في يدي، وسكت الكلام بداخلي سكتته الأبديّة، وحلّ مكانه الملامُ والضّياع! جمّعتُ رفاتهما بين يديّ، حتّى صارت رفاتًا واحدةً، قرّبتها إلى صدري واحتضنتها طويلًا، علّي أدفئ بها شبم قلبي المرتعد، رأيْتُ الرّماد يتطايرُ منها هنا وهناك، انتفضْتُ:

- لا أريدُ أن أفقدَ رفات أمّي وأبي...

أغمضْتُ عينيّ رافضًا رؤية هذا الواقع المرير! ثمّ فتحتهما، لأجد نفسي مقيّدًا في محكمة، والقاضي يضربُ بمطرقته على الطّاولة:

"محكمة!! بعد الاطّلاع على أوراق القضيّة، حكمتِ المحكمةُ حضوريًّا، بتحويل المتّهم "عمر رشيد" إلى فضيلة المفتي. رُفعت الجلسة"

لا أعلم كيف وجدْتُ نفسي هنا، بعد أن كنت جيفة هامدة، إلى جانب رفات أمّي وأبي، اللّذين لم أستطع دفع يد المنون عنهما! لكنّي الآن ميْتٌ! فكيف لهم أن يحكموا على جثّة! بل وماذا يضير بالشّاة بعد ذبحها؟! أُمشيْتُ وأنا مقيّد، عن يميني منكر وعن شمالي نكير، سمعْت أصوات صرخاتٍ عاليةٍ، منبعثة من الزّنازين عن يميني وعن شمالي، والغريب أنّها لجثث أيضًا!

وفي آخر الممرّ، وصل بي المقام هنا! فُتِح الباب، وأُلقِي بي في هذا المكان الّذي تفوح منه رائحة الموت! الرّائحة هنا قويّة جدًّا، وتزداد أكثر وأكثر، غلبتني الحاجة للتقيّؤ، الرّائحة النّتنة استطاعت أن تخترق كلّ مركز من المراكز الحسّيّة في أنفي، تعجّبْتُ كثيرًا؛ إذ كيف لميْت أن يشعر ويشمّ، ويتقيّأ! أقمْتُ على حالي هذه، حتّى عاد أحدهم يسألني:

- ما أمنيتك الأخيرة قبل أن تموت؟

أفحمني السّؤال! إذ كيف لميْت أن يموت؟ بل وكيف لميتٍ أن يتمنّى!

- لكنّي ميْتٌ!

- صحيح، ومع هذا يجب أن تموت من جديد! ما زال فيك شيءٌ من الحياة!

- وكيف لي أن أتمنّى؟ وأنا مقيّد مسجون!

- فلتتمنّ حرّيتك مثلًا..

- ليتني أصير حرًّا، ولكن، هل لأمنيتي هذه أن تكون؟!

قهقه عاليًا:

- والله إنّك لمجنون! ألا تعرف أنّ (ليت) لما لا يُرجى تحقيقه؟

- إذًا، لماذا تسألني؟

- فلتعتبر سؤالي من باب الواجبِ.

ماتت بداخلي المشاعر أيضًا، لمْ أعدْ أكترثُ لأيّ محاولة استفزاز. أثاره برود أعصابي، اربدّ وجهه حنقًا، حاول أن يقتلَ البرود في داخلي بقوله:

- لكنّك ستُعدم!

- وليكنْ هذا!

- أليْسَتْ للحياة قيمةٌ في عالمكَ؟

- أنا ميْتٌ، ولن تميتوا الموتَ في داخلي، مثلما لن تُضيؤوا الحياة في أرجائي.

- أنت تتكلّم، تتنفّس، تشمّ، وتعبّر، فكيف تكون ميْتًا؟

- قد تكونُ هذه الصّورة الّتي أمامك، والهيئة الّتي أنا عليها، توحي لك بأنّني حيّ، إلّا أنّي مجرّد جسد بلا روح! وما فائدة هذا الجسد بعد أن تغادره روحه، ثمّ أيّ شيء يحكمُ على الإنسان باعتباره ميْتًا أم حيًّا؟ أليست روحه؟ بلى، هو كذلك، وروحي فاضت إلى بارئها، منذ تلك اللّحظة الّتي رأيتُ فيها أمّي وأبي جثّتين متفحّمتين بلا روح.

- ساعات وسنطبّق عليك حكم الإعدام!

- ليتها كانت لحظات!

- إلى متى ستبقى متمرّدًا على نفسك، وعلى من حولك؟

- إلى أبد الآبدين!

- سأطبّق الإعدام عليك الآن!

- فلتحاولْ.

انفجرت العروق داخل عينيه غضبًا، فغدتْ بحرًا من الدّماء، انتقلت هذه الدّماء في وجهه، وانكمش وجهه عن كلّه، صكّ على أسنانه، وأمسك بكتفيّ بغلّ، وأخذ يدفعني بقوّة، غارسًا مخالبه في لحمي، وهو يردّد ويقول:

- والآن؟ ألا تشعر بالألم؟ أما زال ذلك التّخدير في جسدك؟

أثارته ابتسامتي، وألجمه ثبات جسدي! وجّهني إلى هذه المنصَّة، وأوقفني على كرسيّ خشبيّ، أحاط عنقي بحبلٍ طويلٍ، ألقى عليّ آيات من القرآن الكريم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ۖ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ۗ

ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (178) وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (179))

وبحركة سريعة، سحب الكرسيّ، من تحتي، تعلّق جسدي في الفراغ الواقع بين منصّة الإعدام والأرض. تأمّل في وجهي مليًّا، جسّ نبضي، وضع أذنيه على صدري، ليتأكّد من نبضاته، وسّع من محجر عينيه، بكى بكاء هستيريًّا، وصرخ بملء فيه:

"حلّت علينا اللّعنة!!!"

***

(23)

إيـــلاف

اشتدّ الخلافُ بين خالد وإيلاف، علتِ الأصواتُ، على بعدهما، وتقلّدتِ الكلماتُ المكتوبةُ في مراسلاتهما لباس اللّوم والعتَب.

لم تكن إيلاف قادرة على الدّفاع عن نفسها، خاصّة أنّها كانت مدركة تمامًا سوء فعلها الّذي تسبّب بسجن الأستاذ نزيه، بالإضافة إلى الأضرار الأخرى الّتي كانت ستتسبَّب بها، لو لم تطاوع خطيبها خالدًا الّذي أنقذ الموقف، وجازف أيضًا بنفسه بالتّستّر عن هارب، ومُعاون على الهرب.

أدركت إيلاف أنّ على الإنسان أن يُحكِّمَ عقله دائمًا، حتّى بالأمور العاطفيّة، حتّى لا تتفاقم المشاكل أو تتشعّب، فكثيرًا ما تكون العاطفة سببًا في تفاقم المشاكل بدلًا من حلّها، مثلما تكون العقلانيّة البحتة، سببًا في ضياع الألفة والمحبّة.

الأصل أن يكون الإنسان متوازنًا ما بين عواطفه وعقلانيّته، وأن يُمسكَ العصا من النّصف، فلا يُؤذي ولا يتسبّب بالمزيد من المشاكل! أن يكون خبيرًا في التّعامل مع الأمور بحكمة ومنطقيّة.

أخذتها الأفكار هنا وهناك، حارَتْ في أمرها أكثر، ولم تعرف كيف تطرد أشباح الغضب واللّوم من عقل خالد، إلّا أنّها آثرت الصَّبرَ، وتعهّدت أن تثبت لخالد أنّها ستتغيّر، وأنّها لن تقدم على أيّ فعل دون التّفكير بعواقبه.

"لو أنّنا قادران على الالتقاء! لاستطعتُ أن أجعلك تصفح عنّي بسرعة"

"ما أصعب الحظرَ! وما أصعبَ بعدَك!"

" حنيني إليك كبيرٌ، فهلّا كنْتَ بصفحِكَ الكريمَ؟!"

" النّوم جافاني وجافاك، فاعفُ عنّي لأنامَ وتنامَ"

" طعم القهوة اليوم مرٌّ كمرارة بعدك"

" لا شهيّة لي على الطّعام أو الكلام"

" عصفورتك جريحة، والمرهم في يدك!"

" السّاعة الآن الثّانيةَ إلا عمرًا، فبغيابك توقفت الحياة عندي عن الحياة!"

" لا قيمة لوقتي إن لم يكن معك"

"تقول لي أمّي: عيناك جميلتان، فما الّذي أحاطهما بهذا السّواد؟"

" حالي كغريق متعلّق بقشّة، فهلّا مددتَ لي يد النّجاة"

" ليس عليك إلّا أن تسامحني"

"وليس عليّ إلّا أن أحبّك"

"وليس لك غير ذلك!"

انهمرت الرّسائل النّصّيّة، على شاشة هاتفه المحمول، ابتسمَ خالد أخيرًا، وعبثت أصابعه، على لوح الكتابة.

طبع ستّة أحرف، وأعقبها بخمسة...

تأمّلت إيلاف في تلك النّقاط الّتي راحت تلعب بأعصابها، وتشوّقها أكثر، لرؤية ما سيكتب، وصلت الرّسالة إلى قلبها، قبل أن تصل إلى عينيها!

ابتسمت، عبثت بشعرها، قامت من مكانها، لمعت عيناها بقوة، وردّت عليه برسالة أخرى، مؤكّدة على سابقتها:

- "نعم، مجنونة، ولا يغيظني هذا! أمّا بالنّسبة "لأحبّك" فأعرف هذا أيضًا، كما تعرف أنت أيضًا كيف أحبّك"

ضحك بعلو صوته، واختار قلبًا أبيضَ، من وسط مجموعة من القلوب الكثيرة، وأرسله!

- بخيل!

-مجنونة!

- ☹

- وليس على المجنون حرج.

- ماذا يعني هذا؟!

- يعني ببساطة، أنّي سامحتكِ!

- وكأنّ لديك خيارًا آخرَ!

- وما يُدريك؟

- وجودك الآن، وعودتك من جديد.

- مغرورة!

- يحقّ لي!

- ولماذا مثلًا؟

- لأنّك بحياتي، وأيّ فتاة تحظى بمثلك يحقّ لها الغرور!

- ألجمتِني أيّتها اللّصّة!

- لصّة؟!

- نعم، ففي آخر الليل، كعادتك واللّصوص، كنت تجيئين إليّ بكلّ هدوء وترقّب، تخترقين قلبي بتمرّس، وتنبّشين بين خفاياه، تعبثين في كلّ ركن وزاوية، تشرّعين كلّ ما أوتيت من أسلحة بيضاء، وتصيّرينه مأوى لك، تجرِين في قلبي مجرى الدّم في الجسد، تقلّبينه كيفما شئت بين يديك، فتعلنين تمامًا احتلال قلبي؛ فيرضخ لك عمري وروحي وفؤادي، أيُّ لصّة متمرّسة أنت! في كلّ مرّة تتقنين فنّ الاختراق، تستحوذين على كلّ جزء في حياتي، فتصبحين الآمر النّاهي، تنفثين في قلبي عقدًا غلاظًا، لا أرجو النّجاة بعدها، أيّتها اللصّة المحترفة، لا

تحرميني من نفوذك هذا، ومهاجمة عالمي، فوحدك من يتقن فنّ الاختراق. أيّتها المحتلّة، كوني لي استعمارًا وسأكون لك مستعمرة.

- أما اشتقتَ لي؟

- أتريدين الحقيقة؟

- بالتأكيد!

- لا

- لن أصدّق!

- مثلما تريدين!

- وما شغلك عني؟

- ذلك اللّقاء؟

- أيّ لقاء ذاك؟

- لقاء روحينا! ففي كلّ مساء، كانت تدقّ السّاعة معلنة بدء اللقاء. بخفقة تلو خفقة، ولهفة عقب لهفة، نكون أنا وأنت. يأسرني طيفك، ويأخذني كلامك، إلى عوالم من الحبّ والهيام. أتفنّنُ في رسم صورتك، وتأمّل وجهك،

واستحضار صوتك. أعلن أنّني في حضرتك، سيّدتي، من أمهر الشّعراء، أستحضر كلّ مفردات اللّغة الّتي تختصّ بالحبّ، وأجعلها فيك وحدك. أعلن انهزامي أمام عينيك، فأيّ قوّة تستطيع أن تصمد أمام سحرها؟ أدقّ أجراس الحبّ، وأنتشي بجمال مبسمك، يا أيقونة الجمال. أحبّك جدًّا وليتني أقدر على وصف هذا الغرام، أحبّك جدّا، وأرتجي فيك اللقاء. تسألينني يا حلوتي، كيفك حالك؟ فيجيب قلبي على الفور: أنا من دونك حالك! فأنيري ما بداخلي، وأشرقي وزيّني بحضورك كلّ المجالس. تنامين أنت ويوقظ بداخلي الحنين، يأخذني إليك، وأراك بهيّة في حضني، رأسك مركون على صدري، فأخشى أن توقظك دقّاته، أحاول حبسها لئلا تستيقظي، أراقب وجهك وأتسلى في ليلتي معك بعدّ أهدابك، رمشًا رمشًا، أتسلّى ياعمري، بالتّفرّس في ملامحك، أحفظ كلّ شامة، وكلّ تفاصيل وجهك، أمسك بيديك فأحسّ بالحياة تضجّ بي من جديد.

- جبهة هوائيّة دافئة نسبيّا، تلامس قلبي، وتنشر بين حناياه الدّفء اللّذيذ، وأجواء مستقرّة في أرجاء جسدي، من بعد مساء تأثّر فيه قلبي بموجة باردة، إثر منخفض جوّي مفاجئ وعميق، من الدَّرجة الرَّابعة، ضمن مقياس برود قلبك، وجفاء إحساسك. والمؤلَّف من خمس

درجات، الدَّرجة الأولى الأكثر أثرًا في قلبي، وصولًا إلى الدَّرجة الخامسة الأشدّ وقعًا وفتكًا. انخفاض شديد قطبيّ المنشأ، مصحوبٌ بزخّات شديدة من الصّد والهجران. الطّقس في جنوب وشرق وغرب قلبي كان عاصفًا مغبرًّا شديد البرودة. زخّات شديدة من اللّوم والعتاب، كنت إثرها أستجمع ما فيّ، وأتدثّر بما حفظت من دفء قلبك في أوقات الصّفاء، وأنهض وأنا أحاول أن أعرف: إلى متى هذا الانخفاض الحادّ؟ ومتى يحين لقلوبنا أن تنقشع عنها غيوم هذا الشّتاء؟ إلى أن أخذت هذه الغيوم المحمّلة أخيرًا تنحسر تدريجيًّا، وبان من خلفها وجه الشّمس الضّاحك البسّام، فمدّتني بدفء أنساني أيّ برود، ودبّت بي الحياة من جديد، وانقشعت عنّي وعنك تلك الغيوم الرّماديّة، وحلّ من جديد بيننا السّلام، وأيّ شيء أجمل من السّلام؟

- إيلاف، عديني أنّك ستكونين حريصة، من الآن، وأن تحكّمي عقلك قبل أن تشرعي بأيّ أمر.

- أعدك! هذه التّجربة، علّمتني حقًّا أنّ عليّ الموازنة بين عقلي وعاطفتي، لن أسمح بأن أتسبّب بأيّ ضرر أو مكروه، لأيّ أحدٍ بسبب عاطفتي، وتعجّلي.

- وأنا أثق بك كثيرًا! أخبريني، كيف حال عمّي وعمّتي؟

- بأحسن حال. ماذا عنك أنتَ؟ هل تتناول حبوب (الزّنك) و (فايتمين ج) لدعم مناعتك الصّحّيّة!

- لا حاجة لي بها! فلديّ ما هو أقوى!

- وماذا لديك؟

- لديّ فايتمين (إيلاف)!

- هههه فلتحافظ عليه!

***

(24)

عـامـر رشيــد

ظهر عامرٌ كئيبًا، وهو جالسٌ أمام التّلفاز، محاطًا بالأخبار السّيّئة الّتي بدت متدافعة كفرقعة حبّات البوشار، في قدر صغير، وهي ما تزال تتطاير، ولا أحد يعلمُ متى يحين الوقت لصمتها وسكونها! شعر عامرٌ أنّ ذنبه الكبير لوّث الكرةَ الأرضيّة، وأنّه المسؤول الأوّل والأخير عن أعمال العنف في البلاد، ومسيرات التّطبيع في الدّول العربيّة، والانفجارات والزّلازل والحرائق والويلات، شعر وكأنّ كلّ ما حوله يقول له: أنت المسؤول عن كلّ هذا الخراب، فابحث عن المفتاح، إنّه قريب منك! مضت تسعة أشهر على مكوث عمر في المصحّة، من بعد محاولة هروبه، لقد كان عامًا كئيبًا، تبدّلت فيه الوجوه، وسقطت الأقنعة، ازداد الوباء، وفقدْنا معارف وأحبابًا، كثرتْ فيه أعمال القتل والهرج والعنف.

لكن، ماذا لو أخرجته من المصحّة؟ كيف لي أن أطفئ حينها شعلة الانتقام؟! أيُعالِج الماءُ تدافعَ الزّيتِ المغليّ في القدر، إن انسكاب أو سال؟ أم يزيد الاشتعال اشتعالا؟

ثمّ أين سيقيم بعد أن بعْتُ منزل والديّ رحمة الله عليهما؟ من المستحيل أن أقبل بإقامته عندي، لا أدري ماذا سيفعلُ، وما أدراني كيفَ سيتفنّنُ في حرقي بانتقامه؟ بمن سيبدأ؟ بدلال؟ أم بمسرّتي؟ لن أقبل بهذا أبدًا، إن أراد أن ينتقم فلينتقم منّي وحدي!

اشتدّ الصّداعُ في رأسِهِ، ونهشتهُ الحيرةُ، بحثَ كثيرًا عن حلّ يناسبُ الطّرفين، وللأسفِ، كان يعرفُ ما هو الحلّ، إلّا أنّهُ حلٌّ مرفوضٌ، وخيارٌ غيرُ مناسبٍ أبدًا، فكيفَ يَستطيعُ أن يضعَ يده في يد شخصٍ تسبّب هو بإيذائه؟

"لا بدّ أن أفكّر بخيارٍ آخرَ!"

غلبهُ النّعاسُ، استسْلمَ للنّوم، على أريكته، إلّا أنّ وجهَ الأستاذِ نزيه تراءى له في منامه أيضًا، حرمهُ لذَّةَ كلِّ شيْءٍ، حاصرتهُ عباراته السّاخرة:

"من ستجدُ غيري؟ أنت مجبرٌ على طلب المساعدة منّي، وعلى الاعتذار منّي، أنت مجبرٌ على الاعتراف بخطئك، وإعلان انهزامك!

عاد عامرٌ إلى صحوته، تذبذب ما بين واقعٍ مؤلمٍ، ومنامٍ ساخرٍ ساخطٍ. فتّشَ في أرجاء البيت، عن دلال

وسارة، ولم يجدْهما، فقد اعتادت دلال على الهرب بابنتها من المنزل، وترك عامر مع صراعاته، كلّما احتدّ مزاجه!

هبّ من مكانه، قاصدًا المطبخ، أمسك بركوة القهوة، وملأها بالماء البارد، وضعها على النّار، أسقط فيها ملعقة من البنّ المختلط بالهيل، ولأوّل مرّة وضع معها ملعقة صغيرة من السّكّر، لم يكن يتقبّل مذاق القهوة الحلو من قبل، إلّا أنّه في المرّة هذه أراد أن يضيف لنفسه مذاقًا حلوًا، بعد أن أصبحت حياته مرًّا علقمًا، تركها تغلي على مهلها، وتركَ لنفسهِ العَنان ليطلقَ مخيّلتَهُ بعيدًا، حيثُ رأى في ذوبان البنّ همومه، الّتي تمنّى لو أنّه قادرٌ على إذابتها بهذه السّهولة، غلتِ القهوة تمامًا، واندفعت مؤذنة لتفيضَ، قبل أن يقوم بصبّها في فنجانه، والاستمتاع بمنظر اللون الذّهبيّ الّذي يغطّي سطح القهوة، رشف رشفته الأولى، لم يستسِغِ المذاقَ الحلوَ، إلا أنّه أخذَ يقنعُ نفسهُ فيه، تبعها برشفة فرشفة فأخرى، ليجد نفسه بعدها، وقد اتّجه إلى حيث غرفته، بدّل ملابسه، وسرّح شعره بسرعة، رشّ من عطره، وخرج في طريقه، وهو يحاول أن يقنع نفسه أنّه بأحسن حال.

قاد سيّارته، واتّجه إلى بيت الأستاذ نزيه، وحين وصل، ارتجل من مركبته بتردّد، قاصدًا بيته! طرق باب البيت طرقاتٍ متردِّدةً خجولةً، فُتح له الباب، تلعثم كثيرًا قبل أن يبدأ الحديث، فاجأته ردّة فعل الأستاذ نزيه غير المتوقّعة أبدًا، اعتقد أنّه سيغلق الباب في وجهه، بمجرّد رؤيته، بعد أن أساء معاملته في مكتبه، ولكمهُ، أمام بيته، وعلى مرأى جيرانه، وتسبّب بسجنه ظلمًا وبهتانًا.

أن يقومَ بطردِه أقلُّ واجبٍ، كردِّ فعلٍ على ما نالهُ جورًا! إلّا أنّ كلّ هذا لم يحدث، وليس هذا فقط، فقد كان تعاملُ الأستاذ نزيه محترمًا جدًّا، وقبل أن يسمع منه أيّ كلمة، دعاهُ إلى بيته المتواضع، ولعلّ هذا ما كان الأصعب.

"ليته وبّخني، أو حتّى صفعني، ليشفي غليله وغليلي، لكنّه آثر أن يحافظ على حسن خلقه، ورحابة صدره"

دخلتُ البيت بخطًى خجولة، تسمّرتُ في مكاني للحظات، قبل أن يُشير لي بالجلوس، شعرتُ وكأنّي ما زلْتُ طفلًا خجولًا مهذّبا، ينفّذ تعليمات أمّه بعدم الجلوس، إلّا بعد أن يؤذن له.

نسيت للحظة لماذا أنا هنا، على الرّغم من أنّ كلّ ما في البيت بدا مَبعثًا للطّمأنينة والرّاحة، بدءًا بسجّادة الصّلاة المنبسطة على الأرض، وكأنّها تنتظر بشوق أن يُصلّى عليها. وتلك المسبحة المعلّقة على مسمار وسط الحائط، وتلك السّتائر المفتوحة وكأنّها إنسان يمدّ بذراعيه ليحتضنك، وتلك الياسمينة الّتي كانت موضوعة بقارورة زجاجيّة، يغمرها الماء إلى منتصف ساقها، ورائحتها تخدّر عقلك، وتأخذك إلى عالم من النّقاء والصّفاء، وتلك البساطة في أثاث البيت الّذي حافظ على أصالته، وتلك الجدران الملساء المطليّة بطلاء زيتيّ. كلّ هذه الأجواء الباعثة للاطمئنان، شعرت أنّي لا أستحقّها، هذا المكان الهادئ بروحانيّته يرفضني! وبعلو الصّوت يقول في وجهي:

"هذا ليس مكانك، فاخرج من هنا!"

- تفضّل يا بنيّ، كيف يمكنني مساعدتك؟!

- في الحقيقة ... أنا ... جئتُ هنا لأعتذر منك على فظاعة تصرّفي وجهلي، أنت بمقام والدي -رحمه الله- وستبقى بهذا المقام، فاصفح عن ابنك المذنب وأرحني.

هممتُ أن أمسك بيده لأقبّلها، مستجديًا منه الصّفح، ففاجأني بجوابه.

- لقد سامحتك من اللحظة الّتي خرجتُ فيها من مكتبك أوّل مرة، قبل عام، وغفرت لك زلّتك ثاني مرّة، بمجرّد أن مسحتُ عن وجهي آثار الدّماء، وضمّدتها، أمّا بالنسبة لسجني، فلم أكن مسجونًا، بل اسمح لي أن أشكرك لأنّك أتحت لي المجال لأن أبقى وحيدًا مع ربّي، أناجيه وأدعوه.

- والله إنّ كلامك هذا يذبحني! من أين لك كلّ هذه القدرة على التّجاوز والصّفح؟ كيف يسهلُ عليك أن تنسى؟

- ببساطة يا بنيّ، أرفض أن ألوّث داخلي بالكراهيّة والأحقاد، أرفض تمامًا أن أجعلها سببًا في فتور قلبي عن العبادات. يا بنيّ، إنّ العبادات تحتاج قلبًا صافيًا نقيًّا، وبمجرّد أن تلوّث قلبك، ستجد أنّ باب العبادات أغلق في وجهك!

- أنا تائه يا أستاذي! جئتك لتساعدني، لتأخذ بيدي، لتطرد طيور الهمّ المحلّقة فوق رأسي.

- ستعاني أكثر وأكثر، وستنغّص الهمومَ عليك أيّامك، ما دام هنالك مظلومٌ بسببك!

- أشِرْ عليّ أستاذي، ماذا بوسعي أن أفعل؟ أعلمُ أنّ عمر الآن يكرهني، وأنّه امتلأ حزنًا وحنقًا بسببي، لكنّه كان في وضع صعب جدًّا، ووجدنا أنّ ما قمنا به الأنسبُ له ولنا.

- أما زلتَ بأفكارك هذه؟ أين الأنسب في كلّ هذا؟ لماذا لا يقيم عندك؟ ما المانع في ذلك؟

- عرضتُ هذا الأمر على زوجتي دلال، ورفضت تمامًا، خاصّة أنّها لن تكون قادرة على أخذ راحتها في المنزل، وطلبت منّي الطّلاق، إذا فكّرت في هذا!

- جئت لتقنعني إذن ببقائه في المصحّة؟!

- لا، لقد اقتنعتُ بإخراجه، لكن، أريد أن تساعدني في اقتراح المكان المناسب لإقامته. وبالحقيقة، ما زلتُ أفكّر بعرضك الّذي اقترحتَهُ عليّ في المكتب، قبل عام، إن كنت تذكر. هل ما زال جاريًا؟

- هل تريدني أن أستقبلَه في منزلي؟

طأطأ عامرٌ وجهه خجلًا:

- إن كان لا يُزعجكم هذا أستاذي، فعمر يحبّك كثيرًا، ولن أؤمّن عليهِ فِي مكانٍ آخرَ، كما أخبرني الطّبيب المشرف على علاجه، أنّه ما زال ساخطًا جدًّا عليّ وعلى فؤاد.

- بالتّأكيد لن يزعجني هذا، بل على العكس تمامًا، ثق يا بنيّ، أنّي سأعتني به جيّدًا.

- كلّي ثقة أستاذي الفاضل، ولكنْ، اسمح لي أن أعرضَ عليك شقّة أكبر، مكتوبة باسمك، كجزاء بسيط على حسن أفعالك.

- دع عنك هذا يا بنيّ! ومالي أنا والشّقّة الجديدة؟ ثمّ إنّ بيتي هذا يتّسع بفضل من الله لألف وأكثر.

- إذًا لن أقبل إلا بموافقتكم على أن أتكفّل بجميع تكاليفكم المعيشيّة.

- لدينا ما يكفينا من الله، فخير الله كثير يا بنيّ!

- هذا شرطي الوحيد، ولن أقبل بغير هذا!

استسلمَ نزيه لأمره وإلحاحه على مضض

***

(25)

فـــؤاد

"نيّمتك في العلّـيّـــة ** خوفي عليك من الحيّــة

تـعـاليـــله يا بـدريّـة ** بلكن على صوتك ينـــام

نيّمتك في المرجوحة ** خوفي عليك من الشّوحة

تعاليلـــه يا عنـدورة ** بلكن علـى صوتك ينـــام"

لا شيءَ يكونُ معك في محنتك غير أمّ رؤوم، ترى كلّ ما يحدث معك بقلبها، وتشعر بك بروحها، ولا يشترط أن تكون على قيد الحياة لتحميك، أو تؤازرك، بل يكفيك ما تمتلكهُ من إحساس، كلماتها الوحيدة هي الّتي ما زالت تساندني، وقفت معي، وأحاطت بي في وجعي وألمي وغربتي.

وحدي أنا هنا بغربتي، على هذا السّرير، لا سندَ يقف إلى جانبي، ولا صديق، وحدها روحك يا أمّي، تقف إلى جانبي الآن، أرى خوفك عليّ في عينيك، أشعر بدفء

يديك وأنت تمسكين بي، أسمع كلماتك بوضوح، أطربُ لصوتك المختزنِ في عقلي، وأنتِ تنشدينَ لي، قبل أن أنام، وأنا صغير.

كبرْتُ يا أمّي، وذلك الطّفل الصّغير في داخلي لم يكبُر! لكنّي يا أمّي، من بعدك وأبي لوّثتُ نفسي، لطالما كنْتُ مطمئنًا، في كلّ مرّة أجري فيها، وألعب مع أطفال حيّنا، وأمرّغ نفسي بالطّين والرّمل، دون أن أخشى عقابًا، لقد كنتِ مختلفةً عن باقي الأمّهات، اللّاتي يستمتعْن بالضّرب والنّهر والزّجر، في حال وسّخ ابن الواحدة منهنّ لباسه، وهو يلعب! لكنّي الآن يا أمّي لوّثت نفسي، وما عدْتُ قادرًا على أن أعودَ إلى بيتنا البسيط، لتستقبليني ضاحكةً، وتجهّزيني لذلك الحمَّام الدّافئ كدفء قلبك، وتجهّزي لي طبقي المفضّل، وتطعميني بيدك.

كم أشتاق لك يا أمّي، لقد هانت عليّ الغربة هنا، وما هانت عليّ غربتي من دونك، لم أشعر بغربتي أبدًا إلّا بعد أن جاءني ذلك الخبر اللّعين، ورحلت فيه عن هذه الحياة، وما رحلت عن قلوبنا. ليتني كنت إلى جانبك وأبي، لأحميكما بروحي، مدين لكما بروحي، وبرّي

وحبّي يا أمّي، أؤمن بقضاء الله دومًا، ولكنّني ما زلت أفتقدك!

لا أدري كيف وصل بي الحال هنا، لكن، أذكر أنّي كنت خارجًا بسيّارتي، متّجها لأحد المطاعم، لأتناول وجبة عشائي، كنت أقود سيّارتي، وأنا بكامل نشاطي وصحوتي، لكن، فجأة، اصطدمتْ بي سيّارة سوداء، وسرعان ما فقدت السّيطرة تمامًا، فانقلبت بي السّيارة، وبعدها لا أتذكر أيّ شيء جرى لي، ولا أعلم كيف أخرجوني من هذا الحادث حيًّا؟

مللتُ يا أمّي الاستلقاء، وأرغبُ لو أمشي وأحرّك رجليّ، لكنّني كلّما هممتُ بالقيام، وجدْتُ نفسي لا أشعرُ بقدميّ، يبدو أنّ هذا مفعول المخدّر، في جسمي!

أحبّك أمّي وأرجو منك أن تسامحيني، أعلم أنّك كنت حريصة، على أن نبقى أنا وأخوتي معًا كحزمة واحدة، ولكنّ الحزمة يا أمّي برحيلكما تفرّقت، فها هو عمر الآن نزيل في مستشفى "روح" للصّحّة النّفسيّة، حالته صعبة جدّا، ولم يتقبّل خبر وفاتكما، فخشينا أنا وعامر أن يؤذي نفسه بحزنه، فوضعناه في المصحّة، وها هو عامر يعاني وحده، فقد علمت أنّ زوجته دلال تطالبه الآن بالطّلاق، وتريد أن تأخذ ابنتها سارة معها، بحجّة أنّ

عامر لم يعد يحبّهما، لأنّه فكّر في إخراج عمر من المصحَّة، خاصّة بعد أن هرب عمر منها، قبل أن يعيدوه ثانية! جنّ جنونها، وحملت ابنتها، وتركت البيت، ومضت إلى بيت أهلها. وها أنا الآن في وحدتي هذه، أشكو إلى الله ضعفي وقلّة حيلتي، يبدو يا أمّي وكأنّنا أصبنا بلعنة لن تفارقنا قبل أن تقضي علينا، أعلم أنّه ما كان علينا أن نترك عمر وحده، لكن، والله ضاقت بنا الحال، ولم نعد قادرين على التّفكير في حلٍّ أنسبَ من هذا، وها نحن الآن ندفع الثّمن، ندفع ثمن انفصالنا، وتفرّقنا.

يزعجني يا أمّي أن أغرقك بأخبارنا الحزينة، وأتعب قلبك، لكن، ضاقت بي الحال كثيرا، ولا يوجد معي غير ظلّك أشكو إليه وأبكي! لا أعلم إن وصل الخبر للسّيّدة (لِيلي) وزوجها (جونسان)، ولكن ما أعلمه أنّني متأكد أنّهما سيكونان إلى جانبي إن عرفا، وأنّهما الآن قلقان عليّ، إنّهما الوحيدان اللّذان يهوّنان عليّ غربتي هنا.

دخلَ الطّبيب (ريتشارد) على فؤاد، وهو يحاكي طيف أمّه الكلمى. أقبل ناحيته، بوجهه البشوش، وصوته الهادئ الرّزين، قائلًا:

- حمدًا لله على سلامتك فؤاد.

- شكرا لك دكتور (ريتشارد).

- هل تذكر ماذا حدث لك؟

- أعتقدُ أنّي تعرَّضْتُ لحادثٍ، لا أذكر جيّدًا كيفَ حدثَ.

- لحسن الحظّ، ما زلتَ على قيد الحياة، لقد كان حادثًا مروَّعًا، سائق السَّيَّارة الّذي اصطدم بك كان مخمورًا، وهو بخير الآن، لكنّ القانونَ سيُحاسبه.

- متى سأخرج يا دكتور؟

- قريبًا إن شاء الله. لكن، أليس معك أيٌّ من أفراد عائلتك أو أصدقائك هنا؟

- عائلتي في الأردنّ، أعيش هنا مع عائلة طيّبة، لكن، لا أريد أن أقلقهم بشأن ما حدث لي.، هل يمكنني المشي؟ لقد تعبت من الاستلقاء.

- فؤاد، سأكون معك واضحًا، ولكن، يجب أن تكون قويًّا، وتحافظ على ثباتك.

- من فضلك، تحدّث معي دون مقدّمات دكتور.

- بعد الفحص تبيّن أنّ لديك إصاباتٍ في النُّخاع الشَّوكيّ، أدَّت إلى إصابتك بشلل نصفيّ...

سكتَ الكلامُ عن الكلام، حروف الأبجدية جمعاء، ومفردات اللّغة على اتّساعها خانتني، في هذه اللّحظة، عجز عقلي عن تقبّل هذا الأمر، وأضرمت النّيران في قلبي، لطالما أردت أن ألعب دور الطّبيب في المستقبل، لكنّني الآن أؤدّي دورًا لم أفكّر به يومًا، أصبحتُ عاجزًا ضعيفًا، ليس لي أيّ فرصة في الحياة، ليتني متُّ في ذلك الحادث اللّعين، وأصبحت نسيًا منسيًّا. ليتني يا أمّي لحقت بكما، لحظيت بفرصة الالتقاء بكما، ولشعرت بالأمان! ليتك الآن بقربي، أنا موجوع أشدّ وجع، قلبي جريح مذبوح، يا أمي.

بكيتُ في هذه اللّيلة، كما لم أبكِ في حياتي، حتّى غفوتُ.

(26)

إيـــلاف

بدتْ إيلاف هذا الصّباح بحالٍ أفضلَ، فقد ألقت عن كاهلها حملًا ثقيلًا! فأن تحمل سرًّا داخلك، تخفيه عن أعزّ النّاس لديك، وتتجرّع مرارته، وتشعر بقساوته، أمرٌ صعبٌ جدًّا، وأن تسيّرك العاطفة، إلى مهاوي التّعجّل والتّهوّر، أمرٌ في غاية القبح! أنت تتخيّل أنّك بفضل عاطفتك ستكون قادرًا على إخراج من تحبّ، أو من أشفقت عليه، من معمعة أزماته، ومن جبّ حزنه، لكنّك قد تلقي به، في كثير من الأحيان، من علو المكان، دون أن تدري! لأنّ العاطفة وحدها لا تكفي، كما لا تكفي العقلانيّة وحدها! خرجت إيلاف من منزلها، وهي تفكّر في رسم صورة جديدة لها، ليس بتغييرها، بل بتصويبها قدر الإمكان.

وصلت إيلاف إلى المستشفى، ركنت سيّارتها، وارتجلت لتبصم بصمة الصّباح! تأمّلت الممرّ المؤدّي إلى حجرة عمر، لقد مضت تسعة أشهرٍ على آخر زيارة لعمرَ، من بعد استقالتها من عملها، خوفًا على والديها من

انتقال العدوى، والإصابة بفيروس كورونا، خاصّة أنّ طبيعة عملها تحتاج الكثير من التّواصل المباشر مع المرضى، وبعد أن استقرّ الوضع الوبائيّ، وظهرت المطاعيم، وعادت الحياة تقريبًا إلى سابق عهدها، قرّرت إيلاف العودة للعمل، من جديد.

لقد غيّر هذا الوباء في اقتصادنا، ومدارسنا وعلاقاتنا وكلّ شيء، خاصّة من بعد فترة حظر ليست بالقصيرة، عشناها بقلق.

ألحّت عليها الرّغبة لزيارة عمر.

"إنّه فتى مسكين، ما زال يتحمّل ما فوق طاقته. لا أدري كيف سيكون بي الحال لو كنتُ مكانه! ولكن، أخشى أن أزوره فأيقظ فيه روح الحزن والثّورة، وأخشى أن أستجيب لأمر عقلي، فأفقد إنسانيّتي، وأفقد كينونتي، وسبب وجودي، لكنّه واجبي، وزيارتي له جزء أساسيّ من عملي، لا يمكنني التّفلّت منه. وأنا قدّمت له وعدًا بأنّي لن أتركه، لكن، عليّ هذه المرّة أن أغيّر من غاية زيارتي. عليّ أن أزوره كمريض، له حقّ عليّ، وأنا بدوري أخفّف عنه وأساعده على الشّفاء، لن أساعده على الهرب مرّة أخرى."

اتّجهت إيلاف إلى حيث يكون عمر، فتحت الباب، ووجدت أن لا شيء على حاله! الغرفة الآن يقيم فيها مريضٌ آخر! لكن، عمر! أين هو الآن؟

بحثت في غرف الممرّ غرفة غرفة، ولم تجده! لم تشأ أن تثير الشّكوك باهتمامها وسؤالها. هل تراه خرج أخيرًا من المصحّة؟ أم أصابه مكروهٌ ما! رأتِ العم بشير خارجًا من إحدى الغرف..

- صباح الخير عم بشير.

- صباح النّور إيلاف، أهلًا بعودتك...

- يبدو أنّ هناك نزيلًا جديدًا لدينا في الطّابق..

- نعم يا ابنتي، يُدعى عصام، شابّ في الثّانية والعشرين من عمره، أدمن على تناول المخّدرات، في فترة الحظر، فجاء به والداه هنا.

- ماذا عن عمر رشيد؟ أين أصبحت غرفته؟

تنهّد العم بشير، وبدا وكأنّه تذكّر أمرًا يريد نسيانه.

- لقد ساءت حالته كثيرًا، بعد أن أمر الدّكتور سامر السّفاريني والمدير بحقنه أوّلًا.

- أوّلا؟! وماذا بعد؟

- عرّضوه لجلسة كهربائيّة شديدة، دون أن يخدّروه، ما جعل حالته تسوء أكثر، فنقلوه حالًا إلى غرفة الإنعاش.

- ولكن، حالته لا تستدعي كلّ هذا!

- مهلًا! إلى أين أنت ذاهبة يا ابنتي؟

- يجب أن أتصرّف حالًا.

***

(27)

عُــمَــر

حالة من الجلبة والعجيج، حلّتْ في المصحّة، وكأنّ قنبلة موقوتة ستنفجر فيها قريبًا، لتحوّل كلّ شيء هنا إلى أشلاء وخراب. كلّ شيء بدا متحرّكًا من حوله، وهو ساكنٌ في مكانه، دون حركة، دون ذاكرةٍ، أو تفكير، بينما كانت الأخيلة تتراءى من حوله، كخيط يشارف على الانقطاع، لم يدرِ عمرُ من هو، وما الّذي جاء به هنا، أحيٌّ هو أم ميْتٌ، أحقيقةٌ هو أم خيال! لم يعرف حتّى غاية وجوده، كان مشوّش الفكر، مفصولًا تمامًا عن الواقع، دخلت عليه إحدى الممرّضات، ألقت عليه بضع أسئلة روتينيّة، لتتأكّد من حالته!

- ما اسمك؟

- هل تعرف أين أنت الآن، وماذا حلّ بك؟

- هل تشعر بما حولك؟

هل أنت مدرك لما أقولُ؟

حلّت الأسئلة عليه كوابل من الرّصاص، وجم عن الكلام، كان مظهره يبدو ثابتًا في سكونه، إلّا إنّ كلّ ما فيه وما حوله، كان يعجّ بالحركة! تآمرَت عليه آلامُ الصّداعِ والفكّ والعظام، كبر أربعون عامًا في هذا المكان، أصابه الهرمُ وشاخت روحه، ازدادت ضربات قلبه، وسيطر عليه الشّعور بالغثيان، تمنّى لو أنّه قادر على الكلام والصّراخ، لكنّه تذكّر الآن أنّه ميْتٌ!

كتبت الممرّضة تقريرها، وخرجت حالًا إلى الطّبيب المشرف على حالته، إلّا أنّها اصطدمتْ بثورٍ هائجٍ مقبلٍ وهو ينوي على الشَّرّ، كان يصرخ بعلو صوته، وإلى جانبه رجلٌ آخر بملامح ملائكيّة، وروحٍ مُطمئِنَة، إلّا أنّه كان يظهر عليه أيضَا الشّعورُ بعدم الرّضا، حاولتْ أن تمنعهما من الدّخول إلى غرفة الإنعاش، لكنّ محاولاتها باءت بالفشل، كباقي زملائها في المصحّة، علا صراخ عامر:

- لعنة الله عليكم، ماذا فعلتم بأخي؟ والله لن أسكتَ لكم، ولن يرتاح لي بال قبل أن أقاضيكم جميعًا!

أطلّ وجه الدّكتور سامر السّفاريني، كجرذ يحاول أن يخفي جريرته!

- أهلا بك سيّد عامر، دعنا نتحدّث في مكتبي، لأوافيكم بحالة عمر الصّحيّة.

- لن أسمح لكم بخداعي مرّة أخرى، ولن أسمع منكم أيّ تبرير هنا، سيكون بيني وبينكم القضاء!

- سيّد عامر، أقدّر جدًّا غضبك، وخوفك على أخيك، لكن، دعنا نتحدّث بهدوء قليلًا، أنا متأكّد أنّك ستتفهّم الأمر، بعد أن تتّضح لك أبعاده.

- ماذا تريد أن تقول؟ ها هو أخي عمر أمامك جثّة هامدة، بسبب أفعالكم! حتّى أنّه لم يتذكّرني!

- لا تقلق سيّد عامر، فحالة عمر طبيعيّة جدًّا، وستتحسّن، إنّ أيّ مريض، يتعرّض إلى جلسة كهربائيّة، قد يواجه فقدانًا مؤقّتًا للذّاكرة، وتسمّى هذه الحالة بفقدان الذّاكرة الرّجوعيّ، حيث يعاني المريض أحيانًا من مشكلة مؤقّتة بتذكّر الأحداث القريبة أو البعيدة، فضلًا عن كسور في العظام، وتشويشٍ قد يستمرّ لعدّة أيّام أو أكثر، وأعراض متمثّلة بالغثيان والصّداع، إلا إنّ المريض يستطيع أن يتجاوز كلّ هذا بتناول الأدوية والعلاج، وهذا ما نحن حريصون عليه. إنّ عمر ابننا،

ولن نقبل أن يتعرّض للأذى، فسلامته تهمّنا، كسائر المرضى هنا.

- لكنّ حالة عمر لا تستدعي كلّ هذا!

- في الحقيقة، بلى، تستدعي كلّ هذا، ولم نلجأ لهذه الجلسات، إلا بعد أن تطوّرت حالة عمر، ولم تعد الحبوب والحقن تنفع معه، فضلًا عن أنّه أصبح أكثر عدوانيّة، ولو لم نتصرّف بسرعة لعرّض نفسه وغيره للخطر.

- لكن، وصلني أنّكم لم تقوموا بتخديره، ممّا جعل حالته تسوء أكثر، ليدخل في غيبوبة، وكسور، وارتفاع في ضغط الدّم.

- لو ما فعلنا ما فعلناه، لأذى عمر نفسه، ومن حوله، لقد بات عدوانيًّا، ولا يستجيب للحقن والحبوب، كان هذا هو الحلّ الأنسب، كما أنّنا سيّد عامر، شاركناك مسبقًا بطبيعة حالته، وقد أبديْتَ تفهّمًا واقتناعًا بما نقوم به، من أجل أن يتعافى. ثمّ ما هي غايتنا إن تسبّبنا بإيذائه أو إيذاء غيره من المرضى؟ ألن يشوّه هذا سمعتنا كمشفى عريق؟

أُسقط في يد عامر، وبدا وكأنّ الثّور الهائج فيه قد رضخ ولان!

- حسنًا، كم يحتاج من الوقت حتّى يتعافى؟ أفكّر في إخراجه.

- بالنّسبة للتّشويش فيحتاج عادةً عدّة أيّام، حتّى يعود إلى حالته الطّبيعيّة، أمّا بالنّسبة لتحسّن مشاكل الذّاكرة لديه، فغالبًا ما يتعافى معظم المرضى، في غضون شهرين لا أكثر.

- ماذا عن الغثيان والصّداع، وباقي الأعراض الملازمة لهذه الجلسة؟

- سأكتب له مجموعة من الأدويّة والمسكّنات.

- هل أستطيع إذًا إخراجه اليوم؟

- أفضّل أن يبقى تحت رعايتنا، لمدّة يومين على الأقلّ، حتّى يتعافى، ويكون تحتَ إشرافنا.

- ماذا لوْ أحضرتُ له ممرّضة ترعاه، وتقدّم له الأدوية في أوقاتها؟

- في هذه الحالة، يمكنك إخراجه اليوم.

- هل من توصياتٍ أخرى دكتور؟

- عليك أن تعلمَ فقط أنّ عمر يحتاج إلى إحدى عشرة جلسة كهربائيّة أخرى، بحدّ أقصى، نوزّعها خلال أربعة أسابيع، بالإضافة إلى ضرورة الالتزام بأخذ الأدوية، والمراجعة الدّوريّة.

لم يتمالك الأستاذ نزيه نفسه، ولم يستطع منع نفسه من إبداء انزعاجه، والتّدخّل!

- إحدى عشرة جلسة! تريدون أن تقضوا على عمر تمامًا؟ عمر عاقل، ولا يحتاج أبدًا لكلّ هذا! سأقرأ عليه القرآن، وسيتعافى من الأذى النّفسيّ الّذي ألحقتموه فيه بإذن الله.

حاول عامر أن يتلافى أيّ صدام، خاصّة أنّه بدا مقتنعًا بما قاله الطّبيب، لكنّه في نفس الوقت، لم يشأ أن يعارض ما قاله الأستاذ نزيه.

- سنرى الأمرَ لاحقًا دكتور سامر، أريد أن نجري بمعاملة إخراج عمر.

- تفضّل معي سيّدي، سأرافقك.

***

مضى أسبوعانِ على خروج عمرَ من المصحّة، وإقامته في بيت الأستاذ نزيه، رغم أنّه لم يكن يقيم فيه إلّا للنّوم أو تناول الطّعام! كان يشعر أنّه يريد أن يعوّض كلّ لحظة حرمان عاشها بعيدًا عن الطّبيعة وأجوائها! لم يعدْ يرغب بالمكوث في كلّ مكان مغلقٍ، فقد كان يذكّره بالمصحّة وما كان يتعرّض له فيها! وقف عمرُ وهو يناظرُ الأشجارَ من حوله، والنّباتات والطّيور والشّمس والسّماء...

تحدّثتْ عيناه بما فاضت به روحه وقلبه:

لقد وقعتُ في الحبّ أخيرًا، وشُغف الحبُّ بي! رأيت فيه ثباتي على انفعالاتي، صمودي في وجه المصاعب والمحن، رأيت فيه مبادئي الرَّاسخة برسوخها في الأرض، رأيت فيه انتمائي لإنسانيّتي كانتمائها لأرضها، رأيت فيه نضوجي كنضوج ثمارها، رأيت فيه خيباتي الّتي ولّت ورحلت كرحيل أوراقها، رأيت فيه بهائي الّذي يتمثّل أيضا بها، وخضرة قلبي كما خضرة أوراقها.

نعم، لقد وقعت في حبّ شجرة! أنعشني ظلُّها، وأبهرني بهاؤها، احتضنت ساقها، وانتعشت بريحها، شعرتُ بنفسي وكأنّني أُولدُ من جديد، من رحم الحياة،

تلقفتني هذه الطّبيعة، كأمٍّ احتضنت رضيعها، انتشلتني من ظلمة رحم، وجاءت بي إلى الضّياء.

لن يفهم شعوري إلّا من عاشَهُ مثلي، فأن تعيشَ في مصحّة نفسيّة، يعني أنْ تفقدَ شعورك بالأيّام، وتتساوى في حياتكَ الأوقاتُ واللّحظاتُ، لا تعرفُ التّواريخ والسّاعات، أن تقيمَ في مصحّة، يعني أنْ تختلطَ في داخلك مشاعرُ الخوف، والحزن، والخذلان. أن تقيم في مصحّة يعني أن تصيرَ معتادًا على اشتمام رائحة الانكسار، وعلى سماعِ قصص متنوّعة، لنزلاء عاشوا بمشاعر مختلطة، فهذا حزينٌ لأنّه مظلومٌ مثلي، وذاك في غفلته، لا يشعر بما اعتراه، وآخرُ تخلّت عنه عائلته، لأنّه يُشكّل بنظرها ونظر الجميع وصمةَ عار! في المصحّة تلاحقنا النّظرات، وتجرحنا الكلمات! لكنّ الأيّام دولٌ، لا تدومُ على حال، فها أنا الآن أتنفّس هواء الحرّيَّة، وأتوجّه حيثُ أشاء.

ولأنّي على يقين تامّ، أن لا شيء يبقى على حاله، فلن أقف في مكاني منتظرًا تلك الفرصة، الّتي قد تحين، وقد لا تحين، وفي الغالب لن تحين، لن يبقى العالم من حولي محافظًا على روتينه، فالحياة ترحّب بالتّجديد والتّغيير، ولن أبقى أنا على حالي، فالتّغيير سنّة الحياة، لقد صنعتْ

منّي هذه الظّروف الّتي عشتها رغمًا عنّي شخصًا آخر، شخصًا بقالب جديد، يجمع ما بين الأصالة والحداثة، بقيَ اسمي ذاته، وشكلي نفسه، ولكن، بقالبٍ جديد، صنعتْ منّي الحياة شخصًا أقوى، وإنسانًا أوعى، أعادتِ التّجارب من صياغتي، لأنضج ويشتدّ عودي، ويستقرّ مقامي، بالشّكل الصّحيح، لن أتمسّك بالماضي، ولن أفقأَ عينيّ كيلا أرى كلّ ما حولي، كيلا أبصرَ ما لا أريد، سأمضي في حياتي بثقة، ولن أندبَ حظّي، سأمضي في طريقي نحو التّطوير، سأقاتلُ ذكرياتي، ولن أسمح لها بالاستهزاء منّي وإضعافي، فهي ولّت بانتهائها، ولن يفيدني البكاء والعويل، سأسامح ذاتي لأصبح قادرًا على مسامحة كلّ من تسبّب في إيذائي، سأسامح ذاتي لأعيش سعيدًا قريرًا، ولن أملأ قلبي بالغلّ والكره، فأعيش حياتي بشقاء وتنغيص، سأرفع راية الأمل، وأترك من خلفي كلّ يائس قلبه مريض. فها أنا قد خرجت أخيرًا من عزلتي، لأواجه عتمتي، وها هو أستاذي نزيه، قد احتضنني في بيته، وأغدق عليّ من خيره وفضله، أرجعني إلى مدرستي، وثق بي وجعلني إلى جانبه، في محلّه الصّغير! افتخر بي وقدّمني لكلّ ضيفٍ وعزيز. صحيحٌ أنّني ما زلت أحاول أن أتذكّر كلّ ما جرى معي، وأنّي أجد صعوبة في تذكّر الكثير ممّن كنت أتعامل معهم، إلى

جانب تلك الرّعشة التي أصبحت تلازمني، من تأثير تلك الجلسات الكهربائيّة، إلّا أنّني أثق بقول أستاذي، فقد أخبرني أنّ هذه الأعراض كلّها مؤقّتة، وستنتهي قريبًا، بملازمتي للدّواء والمسكّنات...

***

وفي مساءِ اليومِ الخامسِ من كانون الثّاني...

سارَ عمرُ بِلا هُدًى، قادتْهُ قدماهُ إلى حيثُ لا يدري، تملَّكتهُ رغبةٌ ملحّةٌ، وشوقٌ عميقٌ لشيءٍ ما. تنشّقَ الهواءَ العليلَ، ومضى طريقه في هذا الشّارع الفسيح.

كلُّ شيءٍ من حولهِ بدا هادئًا مُريحًا، إلا أنَّ فكرَهُ لم يكن على مثل هذا السّكون! بل كانَ يغصُّ مزدحمًا بالأفكارِ المُختلطةِ، والخواطرِ التّائهةِ، والرّغباتِ الجامحةِ. قطعَ أميالًا ومسافاتٍ، دون أن يشعرَ بأيّ تعبٍ! لكنَّهُ بدا قلقًا منزعجًا. قادتْهُ قدماهُ، دونَ أن يدري، إلى منزل أخيه عامر، ربّما كان مشتاقًا لرؤيةِ ابنة أخيه (سارة).

دلفَ عمرُ بخطًى واثقةٍ، من ذلك الباب الخشبيّ المؤدّي إلى الدّرجِ المقابلِ لباب المنزل الأساسيّ، طرقَ البابَ، ففتحتْ له (دلالُ)، وسرعانَ ما تشكّلتْ علاماتُ الرّيبة والاستهجان على وجهها! ظهرتْ سارة، من خلفها، وهي تمسكُ بطرف ثوبِ أمّها بدلالٍ وبراءةٍ، تُردّد كلماتٍ غير واضحةٍ، بلغتها العذبة، وصوتها النّاعم، ظهر شعرُها المنسدلُ على كتفيها الصَّغيرين كشلّالين نقيّين.

لم أستطع أن أقاوم رغبتي في أن أحملَها بين ذراعيّ، لولا ذلك الصّوت الّذي راحَ يدوّي في أرجاء المنطقة:

"ساعدوني! سيؤذي ابنتي!"

فما كان منّي إلا أن انطلقتُ بسرعةٍ، سابقتُ فيها ارتدادَ الأمواجِ الصّوتيّة، بعد أنْ راحتْ (دلال) تصرخُ وتستنجد! والأفكار وآلام الخذلان ماضيةٌ معي، حيث أركضُ وأركضُ في هذا الشّارع الّذي بدا وكأنّه سرابٌ بسرابٍ، فما إن يخيّل إليّ أنّني نجوتُ أخيرًا، حتّى أرى أقدامًا أخرى راحتْ تشاركُ مثيلاتها الأخريات في مطاردتي! وكأنّ العالم كلّه قد اجتمع على ملاحقتي والنّيل منّي!

أيّ مكان أقصدُه، لستُ أدري! الأرض على اتّساعها ضاقت بي، حتّى أوشكتُ أن أختنق! كغزالٍ شريدٍ حاصرتني الضّباع، لم أعد قادرًا على أن أنوء بنفسي إلى أيّ اتجاه!

لم أدرك سبب إقدام دلال على مثل هذا الفعل! ولم أدرِ سبب كلّ هذه الكراهية! كيف أنكرت حقّي برؤية ابنة أخي، وكأنّي لسْتُ عمّها! كيف منعتني عن سارة، بدلًا من أن تحسن استقبالي؟! لكنّها دلال، لم تتغيّر بشيء سوى أنّها ازدادت حقدًا وضغينةً!

حاصرتْني الأصواتُ الّتي لم أدركْ كنهَها؛ لشدّة ما تملّكني الفزعُ! كنتُ مأخوذًا بأصواتِ عقلي وقلبي المنكسرين، بقيتُ على حالي هذه أركض وأركض متّجهًا إلى المجهول، أشفقتُ على نفسي كثيرًا؛ فما إن خرجت من المصحّة حتّى دخلت في عالم الهروب من جديد! وكأنّي سأمضي حياتي كلّها من هروب إلى هروب!

إنْ توجَّهْتُ إلى بيت أستاذي نزيه، فلنْ يسمعَني! ولا بدّ أنّهم سبقوني إليه. عليّ الهربُ بعيدًا، لن أسمح لأيّ كائن أن يُرجعني إلى حيث كنتُ! لكن، كيف؟ ومن سيساعدني؟

تنبّهتُ فجأة إلى أنّ الأصواتَ من خلفي، ومن حولي قد اختفت، ولم أعد مطاردًا. ربّما أضاعوني! لكنْ، لا بدّ أنّهم سيواصلون البحثَ عنّي!

وبنظرة سريعة من حولي، استطعتُ أن أحدّد أخيرًا وجهتي التي سأستقرّ فيها اللّيلة، أطلّت منها الأشباحُ فاغرةً فاهها، إلّا أنّها ما لبثت أن ولّت ناكسةً منهزمةً! فأشباح الجنّ لا تخيفني كأشباح البشر!

تسلّلْتُ على أطراف أصابعي، إلى إحدى البناياتِ حديثة الإنشاء، كنتُ خائفًا من أن ألتقيَ بحارسِها فيمسكني، إلّا إنّ الهاربَ عليه أن يجازفَ، فالفرصُ الذّهبيّة لن تُقدَّم له على طبق من ذهب! عليه أن يسلبَها من فم التّمساح إن تطلّب الأمرُ.

ومن حسن حظّي، أنّي نجحْتُ في ذلك؛ فالحارسُ على ما يبدو خائنٌ للأمانةِ، الّتي وُضِعتْ في عنقه، يبدو أنّه قد غادرَ مكانَه وهو مطمئنٌّ، فمن سيدخلُ هذه العمارةَ بأشباحها، وفي ظلمةِ هذا اللّيلِ الفاحمِ؟

اتّخذْتُ لنفسي مكانًا في إحدى الغُرف الّتي لم تؤسَّس لها الأبوابُ بعدُ، واختبأتُ خلفَ كومةٍ من الحديدِ، وأكياسِ الإسمنت والمُعدّات. الجوُّ هنا شديدُ البرودةِ، إلّا

أنّ أنفاسي اللّاهثة اللّاهبة، أضرمتِ النّيرانَ داخلي، فأنستْني كيفَ يكونُ الإحساسُ بالبردِ.

لا أحدَ يعلمُ أيّ جرأة تملّكتْ عمرَ حتّى دخل هذا المكان، واختبأ فيه. لم يكنْ، من قبلُ، يرتاحُ للظَّلام! كان يجدُ العتمةَ وحشًا مخيفًا، فيضيقُ بها صدرُه! لابدّ أنّ المواقفَ الّتي يُجبر الإنسانُ عليها، تضعُ المرءَ رغمًا عنه، في الأماكن الّتي لطالما كان يتّقيها ويخشاها، إنّ التّجاربَ خيرُ معلّمٍ، فهي تصنعُ الإنسانَ، وتُلغي أمورًا لتصنعَ أمورًا أخرى، إنّ التّجاربَ تخنقُ الخوفَ، وتقضي عليه، فيصبحُ الإنسانُ في حالة استنفارٍ وقتالٍ، لمواجهةِ المصاعبِ والتّحدّياتِ!

وضعَ عمرُ إحدى الأكياسِ الإسمنتيّةِ تحتَ رأسِه، ومدّ رجليه الرّفيعتين، وراحَ يُخطّطُ لهروبِه فجرًا والنّاس نيام! فكّر للحظةٍ في أن يطلبَ المساعدةَ من إيلاف، إلَّا أنّه حاد سريعًا عن فكرته!

أصبحْتُ الآن قادرًا على حلّ أموري وحدي، ولن ينفعَني غيرُ نفسي، لن أنتظرَ رحمةَ الآخرين، ليمدّوا لي يدَ العون، يجبُ أن أترفّعَ بنفسي عن كلّ إنسان! فكلّ امرئٍ لا يهمّه إلّا نفسُه، لهذا عليّ أن أنهضَ وحدي بنفسي، وأن أقوّمَني وأشدّ من أزري، سيباركُ اللهُ

خطواتي، وسيسهّلُ مقصدي، وسيضعُ أمامي طريقَ النّجاة، ويزيلُ من طريقي عثراتِ الخوفِ والقلقِ واليأسِ والانهزامِ.

الآنَ سأبدأ قُدمًا، الآنَ عهدُ التّغيير، عهدُ التّغيير للأفضلِ للأقوى والأكمل. اخرجي يا قوى النّفس، واجري جريانَ النّهر في العطاء، اهطلي هطولَ المطر للحياة، وامضي قدمًا بخطًى شامخة كفرسٍ عفراءَ وسط الصّحراء.

لا تهابي فأنت الأقوى، أنتِ الأمضى من حدّ السّكّين. أنتِ كاللّيثِ الجسور في العرين. أكاد أعجز عن إيجاد وصفٍ أبلغَ وأشدَّ تعبيرًا لما أستحقّ.

اخرجي يا قوى نفسي بقوّة؛ فقدِ انتهى وقتُ المَنام، انتهى وقتُ المَلام، والآن وقتُ القِيام، اخرجي واهجري أشباهَ الرّجال، أشباهَ الأنام، وأشباهَ البشر.

تعالي معي، هلمّي لنلتقي، بأولئك الرّجال، وأولئك البشر، هلمّي لنلتقي بالشّابّيّ في إرادة الحياة، ببلقيسَ في حكمتها في مواجهة المستجدّات، بماشطةِ فرعونَ في ثباتها على البلاء، وهي ترى فلذاتَ أكبادها الخمسةَ يُحرَّقونَ واحدًا تلوَ الآخرِ، في قدرٍ كبيرٍ من الزّيت

المغليّ! خذي منهم مثلًا للإرادةِ في الوصولِ، في الحزمِ للبلوغِ، وفي الصّبر على الكروبِ! واجعلي من هذا جسرًا متينًا، يمكّنك من بلوغ الضِّفَّة، بلوغ الغاية، وبلوغ الهدف، لتسطري اسمَك الوضَّاح في صفحات التَّاريخ.

لا مكانَ لي هنا، من بعدِ رحيل أمّي وأبي! هذه البلد لم تحتضنّي، ولهذا أنا مصرٌّ على الخروجِ منها، والنّجاةِ بنفسي. سأبني نفسي من الصّفر، وسأبذلُ كلّ جهدٍ حتّى أجعلَ الأرضَ من تحتي ثابتةً مستقرّة، سأقصدُ سوريا، وهناك سأتدبّر أمري! عليّ الانتظارُ حتّى ساعاتِ الفجر الباكر، لأنطلقَ في هدوءٍ، والنّاس نيام، متَّجهًا إلى الحدود الشّماليّة.

***

(28)

نزيــه خيــر

سكتَ صوتُ الحقِّ، ونامَ نومتهُ الأبديَّة، رنَّ هاتفه المحمولُ رنَّات كثيرة، أكثر من عشرٍ منها كانت من عُمر...

بقيَ هاتفه المحمول يصدحُ دون أن يُسمعَ له صوتٌ! كان غارقًا في سباته، ممدَّدًا على هذه الأرضِ الجرداءِ الخاليةِ إلّا منه.

افتقدَهُ الجيرانُ والأصدقاءُ وعمرُ والكثيرون....

نكست أشجارُ حديقتِه رأسَها حدادًا، وتخلّت ممّا عليها من أوراقٍ وألقتْ! اجتمعت دوابُّ الأرض حوله تبكيه، غرَّدت العصافيرالّتي كانت معتادة على أن يُلقي إليها بفتات الخبز ليطعمَها بأحزن التّغاريد، حدَّتِ السَّماءُ من فوق جثّته، وسحّتْ غيومُها دموعًا كثيرةً...

اجتماع الطيور نحو بيته كان مهيبًا، تنبّه له المارّة والجيران، كما تنبّهوا لغيابه، وانقطاعه عن الخروج من

بيته ليومين، شعروا أنّ هناك أمرًا مريبًا، قرّر أحدهم أن يطرق باب بيته، ليطمئنّ عليه، ولكن، لا حياة لمن تنادي! فما كان منه إلّا أن اندفع بكلّ قوته، في وجه هذا الباب الخشبيّ العتيد، وسط تأييد جميع المُتجمهرين والمارّة المهتمّين في الشّارع.

لم يتوقّع أحدٌ منهم أن يرى ما رأى! لطالما عُرف الأستاذ نزيه بورعه وخيره وفضله على الجميع، لم يؤذ أحدًا بكلمة، فكيف تكون مثل هذا نهايته؟!

تدافع النَّاس في ساحة بيته صارخين باكين. بقي أمر موته لغزًا محيّرًا للجميع! لم يعرفْ أحدُهم أماتَ مقتولًا أم في حادثٍ لعينٍ!

***

(29)

عُـمَـــر

هُيّئ لهم قتلُك وما قتلُوك! قتلوا البلبلَ وما قتلوا تغريدَه، شلّوا جسدَك وما شلّوا فيك روحَ المقاومة، أرادُوا أن يقتلوا فكرَك وما درَوْا أنّ الفكرةَ لا تموتُ، وصاحب الفكرةِ لا يموتُ، المبادئُ لا تندثر، وصاحبُ المبادئ لا يزولُ أثرُه، حتّى لو فارقَ الحياة! أرادُوا أن يقتلوا كلامَك وما علموا أنّ الكلمةَ لا تموت، مهما حاول الصّاغرون إخمادها، ومهما حاولَ الأنذالُ تشويهَها، ستبقى ماثلةً وعن دفاتر التّاريخ لن يستطيعوا محوَها. وحدَهم أصحابُ الأثرِ لا يموتون، لا يرحلونَ عنّا، حتّى برحيلهم جسدًا! هم يفارقونَنا في هذه الدّار فقط، ويتركون لنا عبق الذّكريات، يتركون لنا إرثًا لا يغيب، يتركونَ لنا حكاياتِهم وأفعالَهم ومواقفَهم وتطلّعاتِهم، فنأسى على أنفسِنا بمغادرتهم حياتَنا، ولكن، نذكّرُ أنفسَنا أنّها دنيا لا تدوم، ولن ينفعَنا وينفعَهم بكاؤنا وعويلنا، جلّ ما يهمّهم دعاءٌ صادقٌ يخرج منّا، فيصلُهم على هيئة هديّةٍ ثمينةٍ يفرحونَ بها.

إنّ أصحابَ المبادئِ مصيرُهم الخلودُ، هم لا يموتون، حتّى لو حاولَ كلُّ ذي شرّ أن يخمدَ صوتهم! رحمة الله عليك يا أستاذي، أخمدوا صوتَك، لكنّهم لم ولن يخمدوا ذكرَك، لم ولن يخمدوا إرثَكَ وحسنَ أثرك، قد تغيبُ الأحلامُ، قد تغيبُ الأفكارُ، قد يغيبُ الشُّروقُ يومًا، ولكنْ، هنالك وجوهٌ لا يمكن لها أن تغيبَ، كما وجهك لن يغيبَ! سيبقى متجرُك شاهدًا على كلّ ما قمْتَ فيه، من خيرٍ وعطاءٍ. أرادَك اللهُ، فحللتَ دارَ الخلود والبقاء. قتلوك يا أبي الرّوحيّ، وما قتلوا فيك أبوّتَك، ما قتلوا فيك علمَك وعطاءك وثباتَك وخيرَك، أرادوا لك الإيذاءَ، وما درَوا أنّ أمثالَك لا يُؤذون! طبْتَ حيًّا وطبْت ميْتًا يا أستاذي الحبيب، فسلامُ الله على روحِكَ الطاهرةِ، وروحٌ ورياحينُ.

انتشرَ خبرُ موتِ الأستاذ نزيه، كالنَّار في الهشيم، تداول النَّاسُ الخبرَ، ونقلتْهُ وسائلُ التّواصل والأخبار، دارتِ الشُّكوكُ إلى وجودِ شبهةٍ جنائيّةٍ، دونَ أن يتوصّلَ إلى الفاعل! تجمهرَ رجالُ الأمن، في بيت الأستاذ نزيه، بحثًا عن أيّ دليلٍ يوصلهم إلى السّبب! لقد كان موتُه غريبًا غامضًا، وباعثًا للرّيبة والحيرة والقلق؛ فقد ظهر في ساحةِ بيتِهِ، وهو منكبٌّ على وجهه، وعلى رأسِه آثارُ جرحٍ غائرٍ، وعلى كتفيهِ بعضُ الكدمات! وجهُه كان

غارقًا بالدّماء! وقد وُجدتْ على الأرضِ آثارٌ من الصّابون، ظهرَ أنّه قد تعثّر إثرَها، فخرّ على وجهه صريعًا!

وقعُ الخبرِ على عمرَ كانَ قاسيًا جدًّا، حينما شاهدَهُ على وسائل التّواصل، من هاتفه المحمول! تحاملَ كيلا يسقطَ مغشيًّا عليه، ازدردَ ريقَهُ الّذي جفّ كنهرٍ ماؤه نضبَ، تملّكه الغثيانُ، أفرغَ كلَّ ما في جوفهِ دفعةً واحدةً، بكى بكاءً هستيريًّا، لأوّل مرّة يبكي هكذا، لم يبك حتّى على أمّه وأبيه، مثل ما بكى اليوم! لم يبك في وحدته وغربته في المصحّة مثل ما بكى الآن! شعر أنّ روحَه غادرتْهُ.

لقد كان الأستاذ نزيه أبًا روحيًّا لي، ووصيًّا عليّ، صدّقني وآمنَ بي، شكّ الجميعُ في صحّة وسلامة عقلي، ولم يشكّ بي! بقي يحاولُ من أجل إخراجي من المصحّة، وتحمّلَ الأمرّين من أجلي، سُجن وطُرد من مكتب أخي عامرٍ، وضُرب منه لأنّه حاولَ أن يُدافع عنّي! بكيتُ كثيرًا حتّى غفوتُ، فوجدتُ نفسي أمشي في طريقٍ طويلٍ، أحاربُ فيه خوفي وقلقي، برزَ لي ضوءٌ من بعيد، اشتدّ بريقه حتّى أضاءَ المكانَ بما فيه، ثمّ ما لبث أن انطفأ هذا الضّوء، وزال أثره، فحلّتِ العتمةُ والظّلمة،

وقعتُ على قدميّ، وتمرّغتُ في التّراب، سفَفْتُهُ عن كلّه، ناداني صوتٌ رخيمٌ:

"لماذا فعلتَها ياعمر؟ لماذا كنت السّببَ في إطفاءِ هذا الضوءِ وحجبِه؟"

ألقمْتُ حجرًا، وحُجبَ صوتي، حاولتُ الصّراخ لأدافع عن نفسي، حاولتُ القول: إنّي بريء، لا تكن يا أستاذي أنت الآخر عليّ، فيكفيني ما نلته من ظلم الظّالمين، بُحّ صوتي، وخنقني الكلام الّذي لم أقله. استيقظتُ، وأنا على هذه الأرضِ الجرداءِ، فعلمْتُ أنّه كان كابوسًا، أيقظَني على كابوسٍ أكبرَ، كابوسٍ يُدعى الواقعُ. كانتِ الشّمسُ الحارقةُ قدِ اتخذتْ مسارًا عموديًّا باتجاه رأسي، وما إن فتحتُ عينيّ، حتّى وزّعتِ الشّمسُ أشعّتها في وجهي، فغلّقت من عينيّ، محاولًا حجب كلّ هذا الضّياء الشّديد، شعرْتُ بيدٍ حانيةٍ تتلمّسني، وكأنّ الله قد أرسل لي روحًا، تُعينني، وتشدّ من أزري، تذكّرتُ فجأة أنّي هاربٌ، ومصدرُ العون هذا قد يكونُ مصدرَ الهلاك، قاطعَ الغريبُ هواجسي:

- هل أنت بخير؟

تفرّستُ في ملامحه جيّدًا، كان عليّ سبْرُ غوره؛ فهو غريبٌ، ولن أعطيَ ثقتي لغريبٍ أو قريبٍ! نظرْتُ إليه بحدّيّة، فواصلَ محاولاتِه في طمأنتي!

- يبدو أنّك لم تأكل أوتشربْ منذ فترةٍ. ما رأيكَ أن تأتيَ معي إلى بيتي، نفطر معًا، ونشرب الحليب الطّازج، وترتاح قليلًا، ثمّ تحكي لي قصّتك لأساعدك؟

من المجنون الّذي سيرفض مثل هذا العرض؟ عليّ أن أذهبَ معه، وأنتظرَ مساعدته، يبدو أنّه رجلٌ نبيلٌ، كما أنّي لا أملك الخيارَ من أمري، ليس عليّ إلّا المجازفة، فإنْ لم أمتْ من شرّ هذا الرّجل سأموتُ جوعًا وعطشًا!

سرْتُ مع هذا الرّاعي، وخرافهِ البيض المكتنزةِ، شعرْتُ باطمئنانٍ يتغلغلُ داخلي، لم أخشَ سطوةَ شرطيّ، أو اعتداءَ مُداهمٍ! تصبّبَ العرقُ منّي، وتملّك الجوع والعطش منّي شرّ تملّك، عدَدتُ خطواتي للوصولِ إلى بيت هذا الرّاعي، إلى أنْ وصلْنا أخيرًا إلى بيتٍ ريفيٍّ طينيٍّ، مسقوفٍ بالقشّ، تظهرُ فيهِ ملامحُ العوز والبساطة. فَتح البابَ، ونادى:

- فاطمة، أحضرْتُ معي ضيفًا، أعدّي لنا الإفطارَ، من فضلك.

أشار لي بالدّخول، كانَ بيته على بساطته، نظيفًا منظّمًا، شعرْتُ بدفء المنزل ورحابته على ضيقه! شعرْتُ وكأنّي ما زلتُ في وصايةِ الأستاذ نزيه، رحمه الله.

استطاعَ أن يقرأَ في وجهي، علاماتِ الحزن والانكسار، ربت بحنوّ على كتفي. ودعاني إلى الجلوس، على تلك الحصيرة الّتي كانت تتوسّطُ المجلسَ.

- يجب ألا تفكّر الآن في أيّ شيء يا.....؟

حلّ الصّمتُ للحظة، خيّل إليّ أنّها ساعات، أجبتُ متلعثمًا:

- اسمي.... زيدٌ

ابتسم الرّاعي ابتسامةً أخفى من خلفها تسليمًا لقولي:

- وأنا اسمي هزّاع.

كان الإفطارُ مؤلّفًا من الكعك والبيض والجبن والزّيت، إلى جانب كوب حليب كبير. تناولْتُ الطّعامَ بشراهةٍ، ابتلعْتُ اللّقمَ، قبلَ حتّى أن أمضغَها؛ فآخرُ وجبةٍ لي كانتْ قبل ثلاثة أيّام، والغريب أنّي لكثرةِ ما كنْتُ

أعانيهِ من قلقٍ وتوتّر، لم أتذكّر حاجتي الأساسيّة للطّعام والشّراب، أثارتْني عاطفة اللّقم، إلى أن تنبّهتُ فجأةً إلى هزّاعٍ، يُراقبني بإشفاقٍ واهتمامٍ!

كانَ هزّاع يتمنّى لو أنّ له ابنًا تقرّ به عينه، يساعده في رعي الأغنام، إلا أنّه لم يحظ بذلك، فامرأته كانت عاقرًا، لأوّل مرّة يشعرُ فيها هزّاعٌ بعاطفة الأبوّة. فمن قال أنّ هذه العاطفةَ محصورةٌ فقط على الآباء الحقيقيّين؟ هنالك الكثير ممّن لم يهبهم الله الأبناء، إلا أنّ العاطفة لديهم تفوق العاطفة عند الآباء الحقيقيّين، ففاقد الشّيء يُعطي بقوة، فهو الأشعر بقيمة ما يفقد أكثر ممّن يملك.

شعرْتُ بالارتباك والخجل لوهلةٍ، فخرجتْ منّي كلماتُ الشّكر والامتنان، بصوتٍ خافتٍ هادئٍ:

- أشكرك أيّها العمّ الطّيّب.

تبسّم في وجهي، وقال:

- أخبرني الآن: ما الّذي أتى بك هنا؟ ألم تخش أن تقضي تحتَ أنياب ضبع جائع؟ أو أن ينالَ منك كلّ ذي سوء؟ أين والداك عنك؟ يبدو من مظهرك أنَّك ابن عزّ وجاه. هل ضللْتَ طريقك؟ أو تربّص بك أحدهم وأتى بك هنا؟

تلعثم عمر قليلًا...

- توفّي والداي حرقًا، وتركاني مع أخويّ الصّغيرين، لا معيلَ لنا، وأجبرنا على الإقامة في مركز رعاية الأيتام، ومُنعتُ عنهما، فهما في قسم الأطفال، وأنا في قسم الشّباب، ولا أعلم عنهما شيئًا، وهناك ذقت ألوان العذاب والحرمان والإيذاء، قبل أن أتّخذ قراري بالفرار، كنتُ أتعرّض للضّرب والاتّهامات السّيّئة، فتارّة يتهمونني بالسّرقة، وتارة بإيذاء غيري، وافتعال المشاكل، لم أكن وحدي في هذا العذاب، فجميع من كان معي تعرّض لألوان وألوان من الإيذاء.

اربدّ وجهُ هزّاع تأثّرًا، بينما واصلْتُ باندماجٍ حكايتي الخياليّة! كنتُ مضطرًّا لهذا، فأنا الآن بحاجةٍ لأيّ طريقة للحصول على المساعدة، كما أنّي لم أعد أثق بظلّي حتّى أثق بغريب، من بعد أن تآمر عليّ القريب! كما أنّي لو قلّتُ الحقيقة، لربّما يقوم هذا الرّجل الطّيّب بالإبلاغ عنّي، خوفًا عليّ ممّا قد يجري معي في هجرتي، وأنا عليّ أن أغادر بأيّ طريقة.

- أيّها المسكين، كم تحمّلت من أذى وأنت في عمرك هذا، كيف يمكنني مساعدتك؟

- أريد فقط أن تساعدني على دخول الأراضي السّوريّة، ومغادرة الحدود، أريد أن أتدبّر أمري هناك، وأن أعمل حتّى يشتدّ عودي، لأعود وأرجع أخويَّ إلى جانبي.

- ما رأيك بدلًا من هذا كلّه أن تساعدني في عملي ورعي الأغنام، مقابل الأجر والإقامة عندي؟

- أقدّر اهتمامك وعرضك اللّطيف، لكن، أحتاج أن أساعد نفسي بنفسي، والله يا عمِّي إنّي لم تعد لي الرّغبة في أن أقيم هنا أكثر من ساعة، أحتاج إلى أن أخرج وأتغرّب، وأبدأ من الصّفر.

- وماذا ستعمل في سوريا يا بنيّ؟ ألا تدري أنّ الأوضاع سيّئة، والحياة هناك مخيفة جدّا، والعمل غير متوفّر لأبناء البلد، حتّى يتوفر لأبناء غير البلد؟

- أفكّر أن أهاجر من هناك إلى تركيا، كمواطنٍ سوريّ، وهنالك بالتّأكيد سأتدبّر أمري بسهولة كمواطنٍ سوريٍّ مهاجرٍ.

- حسنًا، تريد الآن أن تتسلّل عبر الحدود الشّماليّة إلى الأراضي السّوريّة.. سأساعدك، لكن، يجب عليك الانتباه جيّدًا، كيلا يتمكّن خفر الحدود من الإمساك بك.

- وكيف هذا يا عمّي؟

- ستخرج معي وكأنّك ترعى الأغنام، ولكن، اترك لي الحديث مع من يعترض طريقنا، فأنا ابن المنطقة، وأدرى بشعابها.

- ليتني أستطيع ردّ جميلك هذا يا عمّي... شكرًا لك.

سار عمر خلف العمّ هزّاع وأغنامه، شعر أنّ الأمور تسير وفق ما يريد وأكثر، حتّى وصلا إلى الحدود الشَّماليّة، كانت هنالك شاحنة تقوم بنقل مجموعة من الأشخاص.

- أين تكون وجهتهم يا عمّي؟ ألا أستطيع الخروج معهم، لأوفّر عليك عناء السّير معي؟

- لا يا بنيّ، احذر من التّعامل مع أيّ من المهاجرين، فمنهم من يتاجر بالمخدّارت، ومنهم من ينتمي إلى جماعات إرهابيّة، إياك ومحادثتهم والثّقة بهم!

وبعد مسيرةٍ دامتْ أكثر من عشرينَ دقيقةً، ودّع كلاهما الآخر، وتابع عمر مسيرته، بينما مضى هزَّاع إلى .....

***

(30)

فُـــؤاد

إلى من اسمه لا يليق بشخصه،

لا سلامَ ولا أمانَ عليك،

أبعث إليك أيّها المتنكّرُ لاسمك، المنسلخُ عن دورك، لأقول لك: حمدًا لله على سلامتك، وعسى أن يكون مصابُك تكفيرًا عن جرمك وأخي عامرًا بحقّي! رغم أنّك سلمْت من موت جسديّ، ولم تنج من موت روحيّ!

أيّها الأخ المتنكّر لأخوّتك، يا من رضخْتَ لأمر كبيرنا المُبجَّلِ عامر، حتّى هنتُ عليكما وألقيتما بي في تلك المصحَّة، واتَّهمتماني بشرّ الاتّهامات، وشكّكتما بصحّة عقلي، أهذا هو عهد الأخوّة الّذي اتّخذتماه، في حضرة أمّي وأبي؟ أهذا هو عهد الأخوّة ورباط الدّم بيننا؟

أخي المدلّل، يا من أسرْتَ الجميع بحلو حضورك، وجمال مبسمك، وروعة منطقك، ورجاحة عقلك، أين كنت من هذا كلّه عندما خضعْتَ لقرار إقامتي في تلك

المصحّة؟ يبدو أنّك أبدعْتَ التّمثيل على الجميع، وأخفيت ذلك الشّيطان الصّغير داخلك.

أخي العزيز، الأيّام القاسيات الّتي تعيشها الآن، وشعورك بالعجز والوهن والضّعف، أشعر بها تمامًا؛ فقد عشتُها لأيّام وأشهر متتابعة، ولعلّ العجز الّذي شعرتُ به كان أبلغ ممّا تشعر به أنت الآن، فأن تكون عاجزًا مخذولًا من أقرب النّاس إليك، وممّن يتوجّب عليهم أن يكونوا عونك في محنتك، لهو الأصعب من الشّعور بالعجز الجسديّ؟

إن كنت تظنّ أنّي أرسل لك كلامي هذا لأشمت بك، وأفرح بمصابك، فأنت مخطئ تمامًا، رغمَ أنّي لا أنكر رغبتي بأن تشعر ولو قليلًا بما شعرت به وعشته وحدي، فتعايشْ على هذا، كما جعلتموني أتعايش مع ظلمكم، واعلم أنّ يديك أوكتا وفاك نفخ.

أعلمُ أن عامرًا الآن عندك، لذا، أرجو منك أن توصلَ إليه سلامي أيضًا، وأن تقولَ له: لعلّ الدّورَ دورُك، فتهيّأ له، ولتتذكّرْ دومًا أنّ الظّلمَ مرتعُه وخيمٌ.

-أخوك المجنون، عمر رشيد

انهمرتِ الدّموع سريعًا، تلمَّس فؤادٌ قدميه بغلّ، شدّ عليهما بكلتا يديه الحانقتين، لأوّل مرّة يتمنّى فيها أن يشعرَ بالألم! فبالألم شعورٌ، وبالألم حياةٌ، وبالألم بوحٌ ونطقٌ وإحساسٌ، ومن دونه عجزٌ وموتٌ عن الحياة!

حاولَ عامرٌ أن يمنعَ دموعَه الثّكلى، من مغادرة محجر عينيه، لئلّا يشعر به فؤادٌ، فيزيد دونَ أن يقصدَ من همّه وأساه!

وقفَ من خلف كرسيّه المتحرّك، واحتضنه، شادًّا على ظهره وكتفيه، بينما ظهر فؤاد جثّةً هامدةً.

لطالما كان فؤادٌ معتدًّا بسلامة جسده، وقوّة دعامته، والآن أصبح كقطعة (بسكويت) هشَّة، أذابتها مرارة الأيّام الحارّة وكسرتها. حاولَ عامرٌ بكلّ ما أوتي من حكمة وقوّة أن يتماسك أمام أخيه متجلّدًا، لكنّ قلبَ فؤادٍ الطّافحَ فاضَ وتدفَّقَ بالدّموعِ والعَبر، فاتّحدَ الأخوانِ في بكائهما، وعلا صوتُ نحيبهما...

***

(31)

عُــمَــر

- "لا يُمكنك الذَّهاب وحدَك، فأنتَ لا تُحسن التَّصرُّفَ مع الغرباء"

- "فليذهبْ معكَ أحدُ أخوتك، ليتدبّر أمرَك فكثيرًا ما تتعرَّض للإغماء، عند تواجدك في أماكن الازدحام."

- "لماذا لا تكونُ متفوّقًا مثلَ فؤاد؟"

- "انتظر إلى حين يبرد الحساء، كيلا تحرق نفسك"

- "اذهب يا عامر واشتر لأخيك من البقّالة"

- "عمر مسالمٌ جدًّا، ولا يؤذي أحدًا، أرجو إجلاسه بجانب زميل ملتزم، في مقعد متقدّم"

- "لا يمكنك الخروج وأصدقاءك، فلا ثقةَ لنا فيهم، يمكنك الخروجُ مع إخوتك، أو معنا"

-" إذا تعرَّضَ لكَ أحدُهم، أخبرْ أحدَ المعلّمين أو المدير، أو اتّصل بنا"

- "إيّاك والتَّأخُّر عن المنزل"

- "اعتن بنفسك جيّدًا، وتناول طعامك كاملًا"

- "إيّاك والعبث بالأدوات الحادّة، كيلا تؤذي نفسك"

- "لا تثق بأيّ أحد من الباعة أو الغرباء، ممّن يعرض عليك أمرًا أو مساعدة أو عرض توصيل، مدّعيا معرفته بنا"

- "اعتبره مثل ابنك أستاذي الفاضل، فهو يحبّك كثيرًا"

- "ابتعد عن تناول هذه الأطعمة غير الصّحّيّة"

- "قصَّةُ الشَّعرِ هذه لا تليقُ بك، ابقَ على قصَّتك التّقليديّة"

ظلّتْ هذه التّوجيهات، وغيرها الكثير، تتراكمُ داخلي، مشكِّلةً بنيانًا لا يمكن هدمُه، لم يكن لديّ الخيار في أيّ منها قطّ، ولا أذكر أنّي خُيِّرتُ في أيّ أمر من أمور حياتي، كان هذا يجري معي فقط، فأبي وأمّي كانا يتعاملان مع فؤادٍ وعامرٍ بطريقة مختلفة تمامًا. حتّى اسمي كان على اسم أخي الّذي قضى غرقًا، قبل أن آتي إلى الحياة بعامين، وعندما وُلدتُ كان الاختيار منصبًّا

على تسميتي باسم أخي المرحوم، وبدلًا من أن يتركاني أكبر وحدي، معتمدًا على نفسي، ضيّقا الخناق عليّ أكثر، بحجّة الخوف عليّ! خشية فقد جديد.

تعلّقا بي فنالا مرارة ما أقدما عليه، جعلاني لعبة في أيديهما، وما دريا أنّي من كنت ألعب فيهما! مثّلت عليهما دورَ الحمل الوديع الّذي اختاراه لي، فجاريتهما.

استخفَّا بي وبقدرتي، رأياني إنسانًا عاجزًا ضعيفًا، غير قادر على القيام بأبسط أمور حياتي! كلّ هذا باسم الحبّ، لا أعلم كيف هو الحبّ بمنظورهما! جعلاني أنقل نظرتهما هذه إلى كلّ من حولي، أصبحتُ حملًا وديعًا في نظرهما، ونظر الجميع، دون أن يبصروا داخلي!

حتّى الأستاذ نزيه، استخفّ بي كثيرًا، هو لم يختلف عنهم في شيء، وكثيرًا ما كان يزعجني لثقته العمياء بي، وتسليمه التّامّ لأمري! ولهذا كان عليّ أن أتّخذ معه ولو لمرّة واحدة في الحياة دور المعلّم، وأن يكون لي الطّالب المتعلّم، حتّى لو كان دوره هذا لاغيًا لحياته، فيكفيه ما عاشه من أعوام في الخير والعطاء، لا أنكر أنّي أحببته كثيرًا، كأبي بل وأكثر، لكن، كان عليّ ألّا أرى نظرة خيبة أمله بي، وهو على قيد الحياة، عندما يكتشفُ أمري، لهذا أقدمْت على فعلتي تلك، في ذلك

اليوم الّذي قرّرتُ فيه الهربَ. تحيَّنتُ الفرصة الّتي صعد فيها الدّرج المؤدّي لغرفته، ليرى أمر القطّة الّتي راحت تنوءُ، بعد أن قمتُ بقطع ذيلها، وبعد نداءات عديدة لم تفلح بأيّ ردٍّ منّي، لعلّه ظنّ أنّي نائمٌ، صعد الدّرج أخيرًا، وهناك، وجد القطّة تسبح بدمائها، وما أن حاول أن يسعفَها، حتّى خرجتُ من مخبئي سريعًا، وباغتّه بدفعة قويّة، سقط إثرها درجًا درجًا، حتّى ارتطم رأسه بأحدها فنزف عن كلّه.

وحتّى أتأكّد من موته، قمت بخنقه بمنديل كان في يدي، حاول التّمرّغ كثيرًا، إلّا أنّي شللتُ حركته أخيرًا، فتوقّف نبضه تمامًا، لم أستطع النّظر في عينيه، فقد كانت لنظرته هيبة، لا يمكن لأيّ شخص يراها أن ينساها، لا أنكر أنّي خفت منه كثيرًا، فقد خيّل إليّ أنّه سيقوم في أيّ وقت ويقتلني بكلامه، آثرت الهرب سريعًا، تأكّدت من أنّي لم أترك أيّ أثر يُثير الشّكّ بي، فقد بدا الأمر وكأنّه مجرّد حادث سقط فيه عن الدّرج فمات.

لم تكن هذه المرّة الأولى، الّتي أتسبّب فيها بقتل إنسان، لهذا لم أشعر بما شعرتُ به، عندما تسبّبتُ في حرق أمّي وأبي، في ذلك الحريق العظيم، الّذي التهم معه كلّ أثر قد يتسبّب باكتشافِ أمري، لن أنسى ما حييتُ ذلك اليوم،

كنتُ حينها في حديقة المنزل، مغتاظًا مهمومًا لكثرة ما حمّلاني من ضعف واستصغار، كنت أخطّط كثيرًا لهذا اليوم، إلّا أنّني في تلك الليلة، فكّرت أكثر بكثير، وحزمتُ أمري، بينما كانا هما يغطّان في نومهما العميق، الّذي صار بفضلي نومًا أبديًّا، ألقيتُ الكازَ في كلّ مكان في المنزل، وتسحّبتُ إلى حجرتهما الواسعة، وألقيتُ الكثير منه على السّجادة، والأرضيّة والفراش، وأغلقتُ بابَ الغرفة من الخارج، وعدْتُ إلى الحديقة، سرى الأمر بأسهل ما يكون، فقد كان طرف الشّبّاك لغرفتهما مفتوحًا، أشعلت عود الكبريت، وألقيتُ به من الشّبّاك، ورحتُ أستمتع بمنظر ألسنة اللّهب وهي تأكل كلّ شيء من أمامي، بدا وكأنّه فيلم سينمائيّ مثير، بطله بكلّ تواضع (أنا)! وحتّى يكتملَ المشهدُ، أمسكت هاتفي ورننْتُ على رقم أخي المبجّل عامر، لأخبره بما جرى، وعندما شعرتُ بقدوم الجيران والمسعفين، اندفعتُ إلى الدّاخل في محاولة منّي لإتقان المشهد القائم على براءتي، وخوفي الشّديد على والديّ، ورغبتي الجامحة بالانتقام لنفسي، على عحزي عن دفع يد المنون إذ شبّت، ولكن، كما توقّعت فالسّذّج كثيرون، أمسكوا بي وأبعدوني عن المكان حالًا!

ههه، يا للسخرية، فقد كان والداي يحذّراني من إعطاء الثّقة التّامّة للآخرين، ومنحاها لي! فمن يتوقّع أن يخون الابن أمّه وأباه؟ ولكن، هذا ما جنياه على نفسيهما وعليّ، وعلى كلّ شخص دخل حياتي! استصغرا عقلي كثيرًا، واستخفَّا بي، منحاني كلّ الثّقة العمياء واستأمناني، حتَّى طفحَ بي الكيلُ، لم أعدْ أتحمّل نظرتهما السّاذجة، وتصرّفاتهما الهزليّة، كان عليّ أن أوقفهما وأوقفَ كلّ من تُسوّل له نفسه أن يستصغرني! كان عليهم أن يتركوني أعيشُ كما أريد، ويهتمّوا بأنفسهم، لكنّهم لم يفهموا هذا إلّا بعد أن فاتَ الأوان!

لسْتُ أدري كيف يمكن للمرء أن يغفل عن ذلك التّعقيد والغموض في الشّخصيّة الواحدة، وعن كل التّناقضات القابعة داخلنا؟ أن تصنّف النّاسَ من حولك على أنّهم مثال للخير المطلق أو نقيضه، لأمرٌ دالٌّ على السّذاجة ومحدوديّة الرّؤية.

لا تتعامل مع أيّ شخص على أنّك تعرفه بالمُطلق، فالنّفسُ البشريّةُ خليط ما بين الخير والشر، العطاء والإمساك، البذل والمنع، وجميعنا مجبولون على النّقيضين معًا، ولكن، منّا من يغلبُ خيرُه شرَّهُ، ومنّا من يغلبُ شرُّهُ خيرَهُ، منّا من تقرأ الخيرَ في وجهه، ويبطنُ

الشَّرَّ في قلبه، ومنّا من يظهرُ الشَّرُّ عليه، وفي داخله بحارٌ من الخير.

لا تكن مطلقًا في حكمك، ففي هذه الحياة يحدثُ أن تكونَ الضَّحيَّةُ الجاني، وأن يكون الجاني الضّحيّةَ! إيّاك والحكم على من حولك بمجرّد سماعك عنه، أو النّظر إلى طبيعة حياته! إيّاك أن تخدعك البراءة المرتسمة في وجوه الكثيرين كما في وجهي، فكثير منّا من يُخفي وجه الشّيطان بقناع ملاك! وحسْبكَ قول المتنبّي في شعره:

"فلا تحقرنَ صغيرًا في مخاصمةٍ

إنّ البعوضةَ تُدمي مقلةَ الأسدِ"

لا تخدعنّك الأشكال والمسمّيات، فهل جرّبت أن تسأل الذّئب يومًا إن كان الجاني أم المجنيّ عليه، في قصّة ليلى والذّئب، الّتي سمعناها وتداولناها؟ فما يدريك أيّهما الجاني بحقّ؟ الجميع آمن بالدّور الّذي أُجبرْتُ على أدائه جيّدًا، فذلك الرّجل المسكين هزّاع نال منّي جزاء حسن ظنّه الشّديد بي، ولكن من أجبره على أن يثق بي؟ ومن قال له أن يحكمَ عليّ وفق حكمه المطلق؟ ثمّ إنّ دوره في هذه الحياة قد انتهى، فلا ثقة لي بغيري، وهذا ما تعلّمته عن أمّي وأبي منذ صغري! فما يدريني إن كان يضمر

الشّرّ لي؟ أو أنّه كان ينوي أن يشي بأمري؟ صحيح أنّه ساعدني على الوصول إلى الحدود، وأنقذني من موت حتميّ، بعد أن كنتُ أصارعُ الجوعَ والعطشَ والخوفَ، إلا أنّه وثق بي أكثر من اللّازم، وهذا الأمرُ يُغيظني، فطعنته بهذه السّكّين الّتي أعطاني إيّاها لأتدبّرَ أمري، فتدبّرْتُ بها أمرَهُ!

كم وددْتُ أن ألقّن كلّ إنسان، يُعطي ثقته المطلقة بأيّ إنسان آخر، درسًا عظيمًا في التّعامل مع الجميع، في الحياة: أيّها الإنسان، وأنت تقود سيّارتك، انتبه! فالأجسامُ أقربُ ممَّا تبدو في المرآة! وفي قانون العلاقات، انتبه! فالأشخاص أقرب مما يبدو لك، فتجنّب الاصطدام بهم فالانكسار! حافظ على مسافة بينك وبين كلّ شخص مهما أحببته، واجعل بينك وبين أيّ شخص مساحة، لا تقترب فتصطدم، ولا تبتعد فتنسى. أمعنوا النّظر جيّدًا بالشخصيّات، قبل أن تطلقوا الحكم على أيّ منها.

رحمة الله عليك أستاذ نزيه، كنتَ دائمًا ما تردّد هذا الحديث على مسامعنا:

"أحببْ حبيبك هونًا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وأبغض عدوّك هونًا ما، عسى أن يكون حبيبك يومًا ما"

أعطيتنا درسًا لم تطبّقه في حياتك، إلا أنّي استفدت منه كثيرًا، أو لعلّي كنتُ أؤمن به من قبل أن تلقيه علينا! حتّى إيلاف أعطتني كامل الثّقة، من اليوم الأوّل الّذي التقت فيه بي، جميعكم مذنبون، على استخفافكم بي، أنتم من رسمتم نهايتكم، ومنكم من سينالها قريبًا، رأيتموني صفرًا، ولم تعلموا أنّ لعنة هذا الصّفر قد حلّت عليكم جميعًا.

نعم، لقد آن الأوانُ لهذا الصّفر أن يتحرّر أخيرًا، وأن يثبت نفسه في عالم يضجّ بالسّذّج ومحدودي التّفكير. ممّن يقيسون النّاس على مقاسهم، يعتقدون أنّهم أصبحوا عالمين ببواطن كلّ شخصٍ فينا، يتحيّزون لعالم الأرقام والكثرة، ولا يعلمون أنّ في الصّفر بركانًا، آنَ لهُ أنْ ينفجرَ فيهم جميعًا، كما انفجرْتُ بعد أن امتلأتُ عن كلّي بتلك الصّهارة التي أخذتْ تندفع من خلالي إلا الأعلى، لقد ضغطتموني كثيرًا بأحكامكم، فانفجرتُ بمن انفجرْتُ، وسينالُ بركاني في القريب العاجل آخرون.

حلّتْ عليكم اللّعنةُ، أيُّها المُبتلون بعالم الأرقام والحسابات، ثار عليكم صفركم، رمز الفراغ واللّا وجود، ثار عليكم ثورته الأبديّة، وأخرج بعضكم من حيّز الوجود إلى عالم الفراغ، تبدّلتِ الأدوارُ، وآن

لصغيركم أن يَصيرَ كبيركم، كما آن لكبيركم أن يرضخ لصغيركم، فالأيّام دول!

أمضيتم حياتكم تركضون خلف الأعداد والأرقام الكبيرة، تجمعونها وتبجّلونها، لم يعبأ أيٌّ منكم بالصّفر، ذلك العدد الّذي لطالما كان خارجًا عن حساباتكم واهتماماتكم، وضعتموني في عالمٍ افتراضيٍّ، من نسج خيالكم، سمحتم لأنفسكم أن تحكموا عليّ بالقلّة والمسكنة، فكنتم أنتم المساكين.

عشْتُ بينكم ميْتًا، جسدًا بلا روح، فحجزتُ لكم تذكرةً لرحلة بلا عودة، فغدوتُ الحيّ بينكم، بعد أن عادت لي روحي، وغدوتم أنتم الأموات!

أبي، أمّيّ، أستاذي، هزّاع وكلّ غريبٍ كان حظّه سيّئًا عندما دخل عالمي، سامحوني أو لا تسامحوني، فالأمرُ عائدٌ لكم، وإن سألتموني: لماذا فعلْت بكم ما فعلْت؟ فسأقول: أنتم من فعلتم بأنفسكم كلّ هذا، أنتم من اخترتم نهايتكم، من اللّحظة الّتي قرّرتم فيها أن تجهلوا قوّتي، وتتناسوا دوري، رأيتموني حملًا، وعُميتم عن ذلك الأسد الهائج داخلي، لم أحفل بغايتكم، ولم أفرح بحبّكم، فلم أنلْ من حبّكم هذا غيرَ الاستصغارِ والتّهميش...

صنعتم لي حيّزًا ضيّقًا، وقلتم لي: تعايشْ! رأيت في وجوهكم نظرات الإشفاق والاستهانة، فقضيْتُ على نظراتِكم، واستمتعْتُ بنظراتِ الخضوعُ عندما خطفْتُ منكم حياتَكم!

هبَّ عمرُ من مكانهِ، وكأنَّه تذكَّر شيئًا هامًّا، عليه القيام به، وخطا خطوتينِ، بعدَ أنْ شعرَ فجأةً برغبةٍ عارمةٍ، لأنْ يعودَ أدراجَهُ من جديدٍ، أمسكَ هاتفَه المحمول، وراح يطلب الرّقم .....

- عمر، أين أنت؟ الجميعُ يبحثُ عنكَ؟

- أحتاجُ المساعدة؛ أنا في مأزقٍ كبيرٍ.

- أخبرني، أينَ أنتَ؟

- في طريقي لرؤيتك....

انتهت بحمد الله

حنين نصَّار

عمَّان - 17 يناير 2023

H A N I N N A S S A R

يَا أيُّها الصّفر، أمَا آنَ لكَ أنْ تضعَ حدًّا لهذا؟ أما آنَ الأوانُ لأنْ ترسمَ لنفسكَ صورةً جديدةً؟ صورةً تُرضيكَ أنتَ قبلَ أن تُرضيَ غيرَك، صورةً تدبُّ الحياةَ في أعماقكَ؟! لا تنتظرْ أن تُحَرَّكَ من مكانٍ لآخرَ، كحجرِ نردٍ بائسٍ، لا تنتظرْ أن يُلغى دورُك ويُنسى فضلُك، لا تسمحْ بأن تبقى صفرَ اليدينِ، وصفرَ المكانِ، وصفرَ الوجود، وصفر العدد. اصنعْ من نفسكَ في هذا العالم عددًا، أو تبدّدْ بددًا.

حنين

• لوحة الغلاف: حنين نصّار

دار الخليج للنشر والتوزيع
الأردن: عمّـــان، العبدلي، تلفاكس: 35 98 933 77 00962

Designed By S. Alyousef

9 789923 011027